

الكتاب: دراسات في نهج البلاغة

المؤلف: محمد مهدي شمس الدين

الجزء:

الوفاة: معاصر

المجموعة: مصادر الحديث الشيعية . القسم العام

تحقيق:

الطبعة: الثانية

سنة الطبع: ١٣٩٢ - ١٩٧٢ م

المطبعة:

الناشر: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

ردمك:

ملاحظات:

دراسات
في نهج البلاغة

(١)

الطبعة الأولى: طبعت في النحاف - العراق

١٣٧٦ هـ ١٩٥٦ م

الطبعة الثانية: طبعت في بيروت - لبنان

١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م

(٢)

محمد مهدي شمس الدين
دراسات في
نهج البلاغة
دار الزهراء (ع)
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

(٣)

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين. والصلوة والسلام على خير خلقه محمد وآلـه الطاهرين.

ذكرت في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب (دراسات في نهج البلاغة)

أنه أثر إنساني خالد لا يحده مكان، ولا تنتهي الحاجة إليه في زمان، لأنـه من

الآثار الإنسانية التي (لم توضع لفريق دون فريق، ولم يراع فيها شعب دون

شعب، وإنـما خوطـب بها الإنسان أني وجد وـكان. ولأنـها تلامـس كل قـلب،

وتضمـد كل جـرح، وتـكـفـكـف كل دـمـعـة، كانت مـلـكاً أجـمـعـين، وكانت خـالـدة

عـنـدـ النـاسـ أـجـمـعـين).

وآمل أن يلـبـيـ الكتاب حاجة يـحسـ بهاـ كـثـيرـ منـ المـتـقـفـينـ الـذـينـ يـحملـونـ فـيـ

قلـوبـهـمـ هـمـومـ الـحـاضـرـ فـيـ الـعـالـمـيـنـ الـعـرـبـيـ وـالـاسـلـامـيـ.

فعـلـىـ صـعـيدـ الشـخـصـيـةـ نـواـجهـ غـزـواـ فـكـرـيـاـ وـحـضـارـيـاـ يـهـدـفـ إـلـىـ تـهـديـمـ

شـخـصـيـتـنـاـ، وـذـلـكـ بـتـدـمـيرـ مـقـوـمـاتـهـاـ مـنـ الـعقـيـدـةـ، وـالـحـضـارـةـ وـالـتـارـيخـ.

وـعـلـىـ صـعـيدـ الـمـجـتمـعـ نـعـانـيـ مـنـ تـمـزـقـاتـ وـصـرـاعـاتـ تـسـتـنـزـفـ قـوـىـ الـأـمـةـ، وـتـجـعـلـهـاـ

عـاجـزـةـ عـنـ التـصـدـيـ لـعـدـوـهـاـ الصـهـيـوـنـيـ، وـالـهـجـومـ عـلـيـهـ بـغـيـرـ الـكلـمـاتـ وـالـشـعـارـاتـ

والشكاوى إلى مجلس الامن وما إليه من منظمات الأقوياء التي تخدم مصالحهم والتي تضفي صفة الشرعية على الظلم الذي ليس له مثيل في التاريخ. وهو الظلم الذي حل بالعرب وال المسلمين في فلسطين بطرد شعبها وتوطين الصهاينة فيها. وعلى صعيد المفاهيم الاسلامية يعاني المسلم المتعلّم وغير المتعلّم، المثقف، وغير المثقف، من الالتباس وسوء الفهم، بحيث أن (الزهد) و (القناعة) و (التوكل) و (القضاء والقدر) وغيرها غدت تعني في ذهن كثير من المسلمين معانٍ سلبية أمام تحديات الحياة وحركة التاريخ، والاستسلام للآخرين ولما يريده الآخرون.

وماذا بعد؟

ثمة غير هذا كثير مما نعاني منه على كل صعيد. وفي نهج البلاغة الذي يمثل الاسلام في صفاته ونقائه كما فهمه الإمام علي عليه السلام، وعاشه، وطبقه - في نهج البلاغة أجوبة مبدئية على كل هذه الأمور التي نعاني منها وغيرها.

ولذا فإنني آمل - كما قلت انفا - أن يلبي هذا الكتاب حاجة يحس بها الكثيرون منا.

وقد دفع بي هذا الامل إلى الاستجابة للطلبات الكثيرة التي تلح منذ سنين على أن يعاد طبع الكتاب بعد أن نفد تماماً، فاستجابت إلى ذلك راجياً من تعالى شأنه أن يجعله نافعاً للناس وأن ينفعني به يوم القيمة سبحانه وتعالى. وتمتاز هذه الطبعة عن سابقتها بإضافة بعض ما خطر في البال من الأفكار أثناء المراجعة السريعة له تمهيداً لطبعه.

كما تمتاز بالتنظيم والترتيب، وطريقة يسهل على الباحث أن يرجع إلى نصوص من نهج البلاغة بسرعة، لأنني اعتمدت - فيما أثبتته من النصوص، وما لم أثبته -

على ذكر أرقام النصوص، كما وردت في طبعات نهج البلاغة وأكثر الطبعات
ال الحديثة لنهج البلاغة تحمل أرقاماً متسلسلة لنصوص الإمام علي عليه السلام.
سواء في ذلك الخطب، أو الكتب، أو الكلمات القصار.

أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما نجهل من الحق، وأن يوفقنا للعمل بما نعلم من
الحق، وأن يتقبل هذا العمل بأحسن قبوله، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم
والحمد لله رب العالمين.

محمد مهدي شمس الدين

بيروت: الخميس ١٣٩٢ شعبان ٥

الموافق: ٢١ أيلول ١٩٧٢ م

(٧)

مقدمة الطبعة الأولى

الإرث الثقافي، وليس الحضارة المادية، هو أثمن ما خلفه الإنسان للإنسان. فالثقافة يستكمل الإنسان وجوده الحق، لأنها تمده بالمعنى الذي لا يكون لولاه سوى وجود تافه في ميزان القيم والأقدار.

وليست الحضارة المادية، مهما عظمت سوى حسنة صغيرة من حسنات الثقافة الإنسانية إذا قيست بالآثار المعنوية لهذه الثقافة.

ولا تفوتنا ملاحظة أن أغلب الآثار الثقافية وقنية وليست خالدة، وتخص بعض الشعوب دون أن تكون للإنسانية كلها، وذلك لأنها تصدر بتأثير عوامل اجتماعية معينة فتلبّي حاجات عقلية واجتماعية معينة، ثم تفقد قيمتها عندما يتغير العامل الذي أثّرها، ولا يكون لها من الأصالة والعمق والعمومية ما يهيئ لها أن تتعدي محيطها الخاص إلى محيط أوسع.

وإلى جانب هذا الإرث الثقافي الموصعي الواقعي تختص كل أمة من الأمم بآثار قليلة تعتبرها خالدة عندها، لا ينال من جدتها الزمان مهما طال، لأن البحث فيها يتصل بما يدخل في الكيان الصميمى لتلك الأمة، فهي لذلك تعتبر عند هذه الأمة خالدة ما دام لها كيان.

وأقل منها تلك الآثار التي تعتبر ملكاً للإنسانية كلها في كل زمان. فلئن كان القسم الأعظم من الثقافة الإنسانية محدوداً بحدود الزمان والمكان.

ولئن كان القسم القليل منها محدوداً بالمكان وحده.
فإن القسم الأقل، والأعظم قيمة، من الثقافة الإنسانية لا يحده زمان
ولا مكان.

هذه الآثار خالدة عند الناس كلهم لأنها لم توضع لفريق دون فريق، ولم يراع
فيها شعب دون شعب، وإنما خوطب بها الإنسان أني وجد وكان.
ولأنها تلامس كل قلب، وتضمن كل جرح، وتكشف كل دمعة، كانت
ملكاً للناس أجمعين، وكانت خالدة عند الناس أجمعين.

وهي قليلة، ولكنها لا تزال، على قلتها، تثير في الناس الدوافع الطيبة
النبيلة، وتسمو بهم إلى أعلى، إلى ملاعب النور، كلما شدتهم عوامل الشر
إلى التراب.

* * *

ونهج البلاغة من هذه الآثار.

وسواء أنظرت إليه من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون وجدته من الآثار
التي تقل نظائرها في التراث الإنساني على ضخامة هذا التراث.

فقد قيل في بيان صاحبه انه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.
بيان معجز البلاغة، تتحول الأفكار فيه إلى أنغام، وتحتاج الأنغام فيه
إلى أفكار، ويلتقي عليه العقل والقلب، والعاطفة والفترة، فإذا أنت من
الفكرة أمام كائن حي، متحرك، ينبض بالحياة، ويمور بالحركة.

وتلك هي آية الاعجاز في كل بيان.

ولم يكرس هذا البيان المعجز لمدح سلطان، أو لاستجلاب نفع، أو للتعبير

عن عاطفة تافهة مما اعتاد التافهون من الناس أن يكرسوا له البيان.. أن البيان في نهج البلاغة قد كرس لخدمة الإنسان.

فلم يمجد الإمام الأعظم في نهج البلاغة قوة الأقواء، وإنما مجد نضال الضعفاء، ولم يمجد غنى الأغنياء، وإنما أعلن حقوق الفقراء، ولم يمجد الظالمين العتاة، وإنما مجد الأتقياء والصلحاء.

إن الحرية والعبودية، والغنى والفقير، والعدل والظلم، والجهل والعلم، وال الحرب والسلم، والنضال الأزلبي في سبيل عالم أفضل لانسان أفضل، هو مدار الحديث في نهج البلاغة.

فنهج البلاغة كتاب إنساني بكل ما لهذه الكلمة من مدلول: إنساني باحترامه للإنسان وللحياة الإنسانية، وانساني بما فيه من الاعتراف للإنسان بحقوقه في عصر كان الفرد الإنساني فيه عند الحاكمين هباءة حقيرة لا قيمة لها ولا قدر، إنساني بما يشيره في الإنسان من حب الحياة والعمل لها في حدود تضمن لها سموها ونقاءها.

لهذا ولغيره كان نهج البلاغة، وسيبقى على الدهر أثرا من جملة ما يحويه التراث الإنساني من الآثار القليلة التي تعشو إليها البصائر حين تكتنفها الظلمات. وحق له أن يكون كذلك وهو عطاء إنسان كان كونا من البطولات، ودنيا من الفضائل، ومثلا أعلى في كل ما يشرف الإنسان.

* * *

وهذه دراسات في نهج البلاغة قصدت من وضعها إلى أن أكشف عن ناحية ما فطن لها من كتبوا عن الإمام علي عليه السلام، وهي آراءه في الاجتماع والاقتصاد والسياسة. فإن آراء الإمام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تلاق من الكتاب العناية التي تستحقها، وكأن البحث في نشاطه السياسي قد

صرفهم عن البحث في نشاطه العلمي، مع أن نشاطه السياسي لا يمكن أن يفهم حق الفهم إلا إذا درس على ضوء آرائه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وشيء آخر حفزني إلى وضع هذه الدراسات، وهو أن قسماً كبيراً من الوعاظ يقدمون نهج البلاغة إلى الجماهير على أنه كتاب وعظي يشل في الإنسان إرادة الحياة، على ما هو المعروف من أساليب كثيرة من وعاظ هذه الأيام، فأردت أن أكشف في هذه الدراسات عن أن نهج البلاغة ليس كتاباً وعظياً بقدر ما هو كتاب يعني بمشاكل الإنسان الروحية والاجتماعية والاقتصادية ويضع لها الحلول، وحتى القسم الوعظي منه ينكشف، إذا رد إلى أصوله الاجتماعية، عن مفاهيم لاتمت إلى ما يقوله هؤلاء الوعاظ بصلة، ولا تلتقي معه على صعيد (١).

محمد مهدي شمس الدين
النجف الأشرف في شعبان ١٣٧٥ هـ
المصادف آذار ١٩٥٦ م

١ - في هذا الكتاب فصل بعنوان (الوعظ) درسنا فيه القسم الوعظي من نهج البلاغة على أساس اجتماعي.

المجتمع والطبقات الاجتماعية

(١٣)

لعل فكرة المجتمع من أقدم الفكر التي اهتدى إليها الإنسان - الفكر التي لعبت دوراً خطيراً في تطوير الحياة الإنسانية، ودفعت بالانسان إلى القيام بتجارب كثيرة كانت، على ما فيها من أخطاء وحمقات، تربة خصبة لتجارب أعظم أصالة، وأشد إحكاماً، وأقرب إلى شريعة الصواب من سابقتها. وكانت أيضاً حافراً إلى القيام بمحاولات جديدة تهدف إلى تطوير الحياة الاجتماعية وارسائها على ركائز تضمن لها استقرارها ونموها.

ودخلت هذه الفكرة دورها الذهبي - ولا تزال فيه حتى اليوم - يوم جعلها العقل العلمي ميداناً لبحثه، فخرجت، بهذا، عن أن تكون ميداناً لتجارب عشوائية، أو ميداناً لتطبيقات السياسيين الضيق الأفق، الناظرين إلى قريب، المبتغين النفع العاجل من جل ما يصنعون - خرجت عن أن تكون ميداناً لمثل هذه التجارب الفجة لتصير ميداناً للنظر العلمي المتزن الرصين. وصار من هم الفيلسوف - وهو رجل المعرفة الأول الذي عرفته البشرية بعد النبي - أن يتعرف على آليات الحياة الاجتماعية وقوانينها، ويدرس اتجاهاتها، ويصنف هذه القوانين والاتجاهات.

خصوصاً بمزيد من العناية سقراط وأرسطو وأفلاطون، هذه القمم الشامخة في الفكر الفلسفي، وتعاقب بهم فلاسفة كثيرون لم يغفلوا هذه الفكرة ولم

ييحسوها حقها من البحث والتفكير.. حتى جاء ابن خلدون فسجل في (مقدمة) حدثا علميا عظيما بالنسبة إلى هذه الفكرة حين خطط الخطوة الأخيرة، فجعل منها علما قائما بنفسه يفترق عن الفلسفة في مادته وهي الحياة الاجتماعية، ويفترق عنها في منهجه وهو الملاحظة، ويفترق عنها في غايتها وهي التعرف على أحسن الوسائل لتنمية الحياة الاجتماعية.

وجاء العصر الحديث، عصر الجماهير، فزادت أهمية هذه الفكرة، وحصلت على هيبتها العظمى من أوغست كنت في الفلسفة الوضعية، وأصبح لها دوائر معارف خاصة هي دوائر المعارف الاجتماعية، وأصبح لها معاهد علمية خاصة لا تخلو منها جامعة تشرف عليها هيئات علمية تخصصت في هذا العلم: علم الاجتماع. هذا عرض خاطف، وأرجو ألا يكون مقتضبا جدا، لمراحل تكون فكرة المجتمع وتبلورها.

وهنا تجيء لحظه التساؤل عن صلة نهج البلاغة بهذا كله؟
والجواب عن ذلك اردا ان نكشف عن أن نهج البلاغة لم يحظ بالالتفات الجدير به من هذه الناحية (١).

وسنرى بعد أن نعرف ما لفكرة المجتمع في نهج البلاغة من مكان مرموق بين ما اشتمل عليه من بحوث.

وبعد أن نعرف ان الامام قد تمرس بهذه الفكرة وعانها كما لم يتمرس بها ولم يعانها حاكم في زمانه على الاطلاق.

١ - اللهم إلا ما كان مؤخرا من المحاولة الموفقة التي قام بها الأستاذ الكبير جورج جرداد في كتابه القيم (الإمام علي: صوت العدالة الإنسانية) ففي هذا الكتاب الذي يعتبر فتحا جديدا في عالم التأليف يبرهن الأستاذ جرداد عن وعي صحيح لآراء الإمام في الاجتماع الإنساني وسياسة الجماعات. والكتاب، بعد، نصر لحرية الفكر، وللبحث النزيه، وبرهان حي على أن المؤلف إنسان واع لهاته (؟) كأديب قائد.

وبعد أن نعرف أن معاناته لها قد انتهت به إلى نتائج باهرة - بعد أن نعرف هذا كله يتبيّن لنا أن نهج البلاغة كان يجب أن ينال حظاً من الالتفات إليه من الاجتماعيين، لأنّه يسجل حدثاً مهماً في فكره المجتمع.

لا نريد أن نقول إنّ الإمام قد اخترع علم الاجتماع لترتفع بنسب هذا العلم من ابن خلدون إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، بعد أن تبيّن للدوائر الاجتماعية أنّ الأب الشرعي لهذا العلم ليس أوغست كن트.

لا نريد أن نقول هذا، فلم يكرس الإمام نفسه لاختراع العلوم، وإنّ كان قد شارك في هذا المجال الابداعي فاختبر وحده العلم الذي حفظ للعربية أصولها وضمن لها الخلود ذلك علم النحو.

لقد كانت محاولة تطبيق الصيغة الإسلامية الصحيحة للحياة الإنسانية على المجتمع في سبيل بناء الإنسان المتكامل - كانت هذه المحاولة هي همة الكبير كقائد رسالي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولقد كانت مشاكل السياسة والإدارة وال الحرب هي شاغله الأول وهي ميدانه الأصيل كحاكم.

إنّ الذي نريد أن نقوله هو انه - كحاكم عادل - قد فكر في المجتمعات التي حكمها. وفكّر في أفضل الطرق والوسائل التي تتميّز حياتها الاجتماعية وترتفع بها إلى الذروة من الرفاهية والقوة والامن، مع ملاحظة انّها تدين بالاسلام وانّ شؤون اقتصادها، وحربها، وسلمها، وعلاقتها الاجتماعية، تخضع لقوانين الاسلام، وانّها يجب ان تأخذ سبيلاً إلى النمو في اطار إسلامي بحت.

وقد هدأ تفكيره إلى نتائج باهرة في التنظيم الاجتماعي: فالحكم

وضرورته، والنزعـة القبلية وعقايلها، وشغـب الغوغـاء ونتائجـه، ودعـامـات المجتمعـ ومقـومـاته، والطبقـات الاجـتمـاعـية وآلـيـتها - كلـ ذـلـك خـصـه الـاـمام بـمـزـيد من الـبـحـث وـالـتـفـكـيرـ، وـطـبـقـ النـتـائـجـ التـي اـهـتـدـى إـلـيـها عـلـى المـجـتمـعـات الـاسـلامـيـةـ، وـلـوـلاـ أـعـدـاءـ الـأـشـرـارـ شـغـلـوـهـ عـنـ أـنـ يـفـرـغـ لـمـهـامـ الـعـلـمـ السـلـمـيـ لـبـادـهـنـاـ مـنـ أـعـمـالـهـ شـئـ عـظـيمـ.

وـإـنـ ماـ بـيـنـ أـيـديـنـاـ مـنـ كـلـامـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـ المـجـتمـعـ لـيـدلـ دـلـالـةـ وـاضـحةـ عـلـىـ أـنـهـ رـاـصـدـ اـجـتمـاعـيـ مـنـ الطـرـازـ الـأـولـ، وـإـنـ تـقـسـيمـهـ لـلـطـبـقـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـتـعـرـيفـهـ بـآـلـيـاتـهـ لـيـدـخـلـ فـيـ بـابـ الـحـدـسـ الـعـبـرـيـ وـالـاـلهـامـ.

وـيـقـيـنـاـ لـوـ أـنـ الشـرـيفـ الرـضـيـ رـحـمـهـ اللـهـ حـفـظـ لـنـاـ كـلـ مـاـ وـقـعـ إـلـيـهـ مـنـ كـلـامـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ، وـلـمـ يـؤـثـرـ الـفـصـيـحـ الـبـاذـخـ وـحـدـهـ لـاـنـتـهـيـ إـلـيـنـاـ مـنـ ذـلـكـ شـئـ عـظـيمـ. وـلـوـ ضـمـ مـاـ ضـاعـ مـنـ كـلـامـهـ إـلـىـ مـاـ حـفـظـ إـلـىـ زـمـانـ الشـرـيفـ لـاـنـتـهـيـ إـلـيـنـاـ مـنـ ذـلـكـ شـئـ أـجـلـ وـأـعـظـمـ خـطـرـاـ وـقـدـراـ (١).

وـسـيـكـونـ مـرـكـزـ الـبـحـثـ فـيـ حـدـيـثـنـاـ هـذـاـ هـوـ الـطـبـقـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ فـيـ نـهـجـ الـبـلـاغـةـ.

وـقـبـلـ أـنـ نـأـخـذـ سـبـيلـنـاـ إـلـيـهـ يـحـسـنـ بـنـاـ أـنـ نـدـخـلـ فـيـ حـسـابـنـاـ أـمـرـاـ بـالـغـ الـأـهـمـيـةـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ بـحـثـنـاـ هـذـاـ، فـلـقـدـ قـلـنـاـ آـنـفـاـ إـنـ الـاـمـامـ لـمـ يـقـصـدـ إـلـىـ وـضـعـ أـصـوـلـ عـلـمـ جـدـيدـ، وـإـنـماـ فـكـرـ - كـحـاـكـمـ عـادـلـ - فـيـ شـؤـونـ الـمـجـتمـعـ وـخـرـجـ مـنـ تـفـكـيرـه

١ - صـرـحـ الشـرـيفـ الرـضـيـ رـحـمـهـ اللـهـ فـيـ مـقـدـمةـ (نهـجـ الـبـلـاغـةـ) بـأـنـهـ استـجـابـ لـرـغـبـةـ الـأـصـدـقـاءـ وـالـاخـوانـ فـيـ تـأـلـيـفـ (كتـابـ يـحـتـويـ عـلـىـ مـخـتـارـ كـلـامـ مـوـلـانـاـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ عـلـيـهـ السـلـامـ.. فـأـجـبـتـهـمـ إـلـىـ ذـلـكـ.. فـأـجـمـعـتـ بـتـوـقـيقـ اللـهـ تـعـالـىـ عـلـىـ الـابـتـدـاءـ بـاخـتـيـارـ مـحـاسـنـ الـخـطـبـ، ثـمـ مـحـاسـنـ الـكـتـبـ، ثـمـ مـحـاسـنـ الـحـكـمـ وـالـأـدـبـ).

بنتائج طبقها أو أراد تطبيقها على المجتمع، فلذلك لم يفرغ آراءه الاجتماعية كلها في قالب علمي مجرد، وإنما قدم بعضها مفرغا في التجربة العملية، ولا يسلبها قيمتها كحقيقة موضوعية أنها مفرغة في قالب تجريبي اجتماعي يسbug عليها، بدل حمود الحقيقة العلمية المجردة، حيوية وحركية تنشأ من حيوية الجماعات وحركيتها.

(١٩)

(١)

لا نعرف متى دخلت فكرة الطبقة، كوحدة اجتماعية كبيرة وذات مدى رحب، في تركيب المجتمع الإنساني. ففي تاريخ الإنسان المكتوب لا نجد حضارة تألقت ثم انطفأت إلا وكانت تعرف فكرة الطبقات، وكان لهذه الفكرة واقع عياني يضرب بجذوره عميقا في تنظيماتها الاجتماعية. كل المجتمعات التي وجدت وبادت والتي لا تزال مستمرة الوجود تقوم على النظام الطبيعي. وهذا يعني، في ظاهر الحال، أنه لم يمر على البشرية وقت طويل لم تعرف فيه فكرة الطبقات.

وربما كان هذا حقا بالنظر إلى ما نرجحه في تعليل نشوء المجتمع الإنساني. فالمجتمع الإنساني، فيما نرجح، يخضع في نشوئه لعاملين: عامل الغريزة (بمعناها الواسع الذي يشمل عاطفة الأبوة والدوافع النفسية إلى تكوين العائلة) وعامل الثقافة بمعناها الواسع أيضا. وهذا يعني أن المجتمع الإنساني وجد منذ اللحظة التي تعدد فيها أفراد النوع، فلم يمر على الإنسان أمد طويل كان فيه حيوانا غير اجتماعي.

ومنذ أخذ المجتمع الإنساني في الاتساع وجدت فكرة الطبقة سبيلا إلى العقل. فالأفراد يختلفون في مقدار ما يأتونه من أعمال البر والخير، ويختلفون في المواهب وفي القدرة البدنية، ويختلفون تبعاً لهذا في القدرة على الصيد

(٢١)

وحياته.. هذه الامتيازات وأخرى غيرها وجدت سببها إلى الوعي الانساني في تصورات طبقية استبعت فكرة الطبقات.

هذا، ولكننا حين نتناول الطبقات بالبحث لا يمكن أن نتناولها على هذا المستوى الساذج البسيط، فقد أصبحت الطبقة مؤسسة اجتماعية ضخمة تمدها بالغذاء تقاليد عريقة، وتقوم على جذور موغلة في أعماق الماضي.

* * ما المبدأ الذي يقوم عليه الانقسام الطبقي؟

لقد اختلفت آراء الاجتماعيين في هذا المبدأ، فبعضهم يرى أنه المهنة، وثان يرى أنه الدخل أو الثروة، وثالث يرى أنه الدخل والمهنة معا.

ولأجل الحصول على جواب صحيح لهذا السؤال نلاحظ أن هذا المبدأ يختلف باختلاف النظر إلى الطبقة كمؤسسة اجتماعية.

فتارة ينظر إلى الطبقة باعتبارها تقوم بدور معين في العمليات الاجتماعية، وتقدم خدمات معينة إلى المجتمع.

وأخرى ينظر إليها باعتبارها كتلة بشرية ذات مستوى (مادي) اقتصادي واحد وذات مزاج نفسي وعقلي خاص يوحد بين مفاهيم أفرادها في الأسرة وغيرها من المؤسسات الاجتماعية، ومحظوظ الأذواق والطبع العادات.

لابد من اعتبار المهنة وحدها مبدأ للانقسام الطبقي إذا نظرنا إلى الطبقة من زاوية الدور الذي تقوم به في العمليات الاجتماعية، وذلك لأن هذا الدور يشتق من المهنة التي تمارسها الطبقة. أما حين ننظر إلى الطبقة من زاوية مستوى الحياة المادي والمعنوي الذي تتمتع به فلا بد من اعتبار مبدأ الانقسام الطبقي المهنة والدخل معا، فالمهنة بما تخلفه في صاحبها من آثار نفسية معينة، والدخل

بما يتيحه لصاحبها من مستوى معيشى معين يشتهر كان في صياغة الحياة المادية والنفسية للانسان.

ويختلف مبدأ الانقسام الطبقي عن هذا وذاك حين ننظر إلى الطبقة الاجتماعية من زاوية المركز الاقتصادي الذي تتمتع به في المجتمع حسب نظام الانتاج والتوزيع، ففي هذا الحال لابد من جعل مبدأ الانقسام الطبقي الدخل وحده، لأن مجموع دخل الطبقة يعبر عن المركز الاقتصادي الذي تحمله بين الطبقات الأخرى. والدخل ينظر إليه هنا باعتباره ثروة متكدسة قارة ذات امكانيات اقتصادية، لا باعتباره وسيلة إلى بلوغ مستوى معيشى معين (١). هذه مبادئ مختلفة للانقسام الطبقي، وهي تختلف باختلاف زاوية النظر إلى الطبقة كما رأينا.

ولتكنا نلاحظ ان هذه المبادئ كلها إنما تعتبر مبادئ انقسام طبقي فقط، ولا تستتبع حكمًا تقويميا للطبقات. فمبادئ المهنة أو الدخل أو الدخل والمهنة معاً تشير إلى سبب الانقسام وحده أما أن هذه الطبقة ذات قدر معين تحمله في سلم القيم والأقدار فذلك شئ لا يتضمنه مبدأ من هذه المبادئ على الإطلاق.

وهنا نتسأل: ما هو المبدأ الذي يستتبع الحكم التقويمي للطبقات؟ وبعبارة أخرى: نحن لا نتمثل المجتمع في أذهاننا سطحاً متساوياً فيه الرؤوس، وإنما نتمثله هرمي الشكل، فيبينما توجد طائفة من الناس تحمل قمة الهرم توجد طائفة أخرى تحمل قاعدته: وتوجد بينهما طوائف تختلف

١ - دكتور محمد ثابت الأفندى: الطبقات الاجتماعية: ص ٦٤ - ٨٠ وثمة خلاف في وجهة النظر إلى مبادئ الانقسام الطبقي فقد ذكرنا هنا أنها لا تستتبع أحکاماً تقويمية ولا تسلسلاً طبقياً بخلاف ما ذهب إليه أصحابها.

بالرفة والانحطاط على حسب قربها أو بعدها عن القمة والحضيض. واذن، فإذا كان لكل طبقة من الناس قيمة معينة في التصنيف الهرمي الاجتماعي، فمن أين جاء هذا التصنيف الذي يستتبع احكاما تقويمية لمختلف الطبقات؟

اننا، فيما أحسب، لا نستطيع أن نضع أيدينا على ضابط حقيقي لهذا التصنيف الاجتماعي إلا إذا درسناه من زاوية القيمة العليا للحياة. وذلك لأن أي حكم تقويمي إنما حدث بسبب هذه القيمة العليا، فترى انه كلما قرب المرء من هذه القيمة وشارك فيها وزاد في تأكيدها واكتسب خصائصها، ارتفعت قيمته وعلت منزلته، وبالعكس نراه كلما بعد عنها ولم يساهم إلا بقسط ضئيل فيها أو لم يساهم فيها على الاطلاق هبط في المنزلة الاجتماعية. والقيمة العليا للحياة قد تكون المال والثروة، أو الفضيلة، أو السياسة، أو الحرب.

وقد تكون هذه القيمة العليا عبارة عن المبدأ الذي استدعي التشعب الطبقي، وذلك كما في المجتمعات التي يكون الاقتصاد هو القيمة العليا فيها، فقد رأينا ان الاقتصاد وحده أو منضما إلى المهنة يكون مبدأ لانقسام الطبقي فإذا ما كان بالإضافة إلى هذا قيمة عليا أيضا استتبع حينئذ احكاما تقويمية تتفاوت بتفاوت القدرة الاقتصادية التي تملكها كل طبقة من الطبقات.

وقد تكون القيمة العليا شيئا آخر غير المبدأ الذي سبب الانقسام الطبقي وحيئذ تحدث هذه القيمة انقساما في داخل كل طبقة من الطبقات، وذلك كما لو كانت القيمة العليا للحياة عبارة عن الفضيلة، فإن هذه القيمة تستتبع احكاما تقويمية تحدث انقساما في داخل الطبقات نفسها، فقد يكون الفرد متسببا من حيث المهنة أو المهنـة والدخل أو القوة الاقتصادية إلى طبقة ضعيفة ومنحطة

المستوى المعيشي ولكنه يكون بسبب قربه من القيمة العليا التي هي الفضيلة في ذروة الهرم الاجتماعي (١).

ومهما يكن من أمر فإن هذه القيم التي ذكرنا تستتبع أحکاما تقويمية تختلف باختلافها، ويتشكل وضع المجتمع صحة وفسادا بسبب ما تخلفه فيه هذه القيم من آثار، وهذا ما نلمسه حين ندرس الطبقات على أساس أن المثل الأعلى للحياة هو الفضيلة أو الاقتصاد.

فتارة تكون القيمة العليا للحياة هي الفضيلة.. هي ان يكون الانسان فاضلا رحيم بالضعفاء، باذلا لهم المعونة دون أمل في تلقى الجزاء، ساعيا في خدمة النوع مؤثرا لذلك على مصالحة الخاصة وأطماعه، مستعدا للتعاون مع الغير في سبيل المنفعة العامة، منافحا عن الحق أيا كان موطنه ومستقره، محاربا الباطل في جميع أشكاله وألوانه، شاعرا بمسؤوليته كأنسان، عاملًا على ضوء هذه المسؤولية بحرارة وإيمان.

تارة تكون القيمة العليا للحياة عبارة عن هذا، وحينئذ تتحدد المراتب الاجتماعية على أساس هذه المفاهيم، فيرقى إلى القمة كل من استطاع أن يجعل من نفسه مثلا أعلى للفضيلة، ويحتل المرتبة السفلية من المجتمع أولئك الذين لا فضيلة لهم أو الذين يستمسكون بالفضيلة استمساكا واهيا، وما بينهما تتفاوت المراتب الاجتماعية على أساس الحصيلة الأخلاقية التي يحويها الإنسان ويعمل عليها. في المجتمع كهذا توجد طبقات، وقد رأيت الأساس الذي أدى إلى انقسامها، ولكن هذا التفاوت الطبقي الناشئ عن تفاوت المستوى الاقتصادي والمعيشي عند هذه الطبقات من الناس لا يأخذ صفة الصراع المتمثل في استغلال الطبقات العليا للسفلة وهذه الأخيرة التفلت من أسر هذا الاستغلال بالثورة أو

١ - المصادر السابق: ص ٣٦ - ٤٤ .

بغيرها من أساليب الصراع، وإنما تنظر الطبقات السفلية إلى العليا نظر حب ورحمة وآكبار، لأنها لا ترى في الطبقات العليا مستغلين يريدون امتصاص دمائها وجهدها، وإنما ترى فيهم رسول إصلاح ضحوا بمصالحهم في سبيل مصالح الجميع، وتنكروا لأنفسهم وشهواتهم في سبيل الآخرين، فهم ليسوا مستغلين لأن أكفهم لم تتعود غير العطاء. وفي مجتمع كهذا تنظر الطبقات العليا إلى السفلية نظرة رحمة وإشفاق وتحاول جهدها أن تنشرها من الوهدة التي قبعت فيها إلى الأفق العالي حيث يقبل جبينها نور الشمس. لا صراع ولا تناحر لأن الطبقات هنا لم تنحط عن القمة لأنها منعت من الصعود. لا صراع ولا تناحر لأن الأجنحة التي يحلق بها الإنسان هنا ليست شئ خارجاً عن النفس يملكه فريق ولا يجده الآخرون، وإنما هي شئ ينبع من النفس.. هي أنت بما أودع الله فيك من إمكانات الصعود، ولم تبق حيث أنت لأنك لا تملك هذه الامكانات، وإنما لأنك فضلت واقعك اللاذ على الأفق العالي حيث الثمن هو التضحية وانكار الذات.

في مجتمع كهذا يحتل الاقتصاد مرتبة ثانوية من حيث التقويم، فإذا اتخد ذه الانسان وسيلة لنشر الفضيلة كان مزية يحمد عليها، وإنما كان رديلة لا تبهه قيمة ولا تسبيغ عليه قدرًا.

وأخرى تكون القيمة العليا للحياة هي الاقتصاد.. النجاح المادي الخارق القائم على تكديس الأموال وتراكم العقارات، حينئذ تحدد المراتب الاجتماعية على هذا الأساس، فيرتفع إلى القمة أولئك الأغنياء الكبار ملوك المال والأعمال، ويقع في الحضيض أولئك الذين لا يملكون شيئاً أو يملكون شيئاً قليلاً، وتتفاوت مراتب الناس بين هاتين الطبقتين على مقدار ما يملكون.

في مجتمع كهذا توجد طبقات كما رأيت، ولكن التفاوت الطبقي يأخذ صفة الصراع، لأن ما سبب الانقسام الطبقي هو مصدر القيمة في المجتمع، ولأن

القيمة العليا هنا شئ خارج عن النفس فلا يكون للطبقات السفلية أمل بالارتفاع.

ومن هنا ينشأ عند الطبقات السفلية شعور بالاستغلال، ويواكب هذا الشعور شعور آخر، فالطبقات العليا عند هؤلاء تعني - بالنسبة إليهم - المزاحم على متع الحياة والسعادة والقوة، ويولد هذا الشعور في أنفسهم مشاعر الحقد والبغضاء، ويدفع بهم إلى الخيانة والاجرام.

وهذا التخطيط الذي ذكرناه يصح بالنسبة إلى كل المجتمعات التي تجعل الاقتصاد مثلاً أعلى لها، سواء منها ما يرفع إلى القمة الرأسماليين، أو ما يرفع إليها العمال وال فلاحين، لأن الصراع في هذه الأخيرة هو الصراع في المجتمعات الرأسمالية ومنابعه هنا هي منابعه هناك، فالاحداد، والمطامع، والنيات السيئة، والمكر الخبيث هي المد النفسي الذي يطغى على الكتلة الاجتماعية في هذه الحالة وينسج مصيرها.

غاية ما في الباب ان قمة الهرم الاجتماعي وقادته متعاكستان في بينما يحتل الرأسماليون القمة في المجتمعات الرأسمالية يحتلها - نظرياً - العمال في المجتمعات الشيوعية القائمة اليوم. على أنها لا نستطيع أن نعقل ما يقال من أن الطبقة العاملة في المجتمعات الشيوعية هي التي تحتل قمة الهرم الاجتماعي. إن العلماء والأطباء والمهندسين والكتاب والممثلين ورؤساء المصانع ورؤساء الهيئات العمالية والمزارع التعاونية يتمتعون بميزات اجتماعية واقتصادية لا تناح لسائر العمال.

وإذن لا فرق بين المجتمعات الرأسمالية والشيوعية في العقابيل التي تنشأ من جعل الاقتصاد قيمة عليا، ولعن كان ثمة فرق فإنما هو في السطح والشكل، أما الاعماق. وأما ينابيع الصراع فهي واحدة في كل هذه المجتمعات. وهكذا ترى كيف أن جعل الاقتصاد قيمة عليا للحياة يسوق إلى التفسخ

الاجتماعي. ولا أتصور جريمة أكبر من جريمة الماديين الذين ينادون بان الاقتصاد هو القيمة العليا في الحياة، إنهم بخرافهم هذه يجرؤن المجتمع إلى شر عظيم، ويشوّهون المثل الإنسانية العليا.

* * *

من هذين المثليين تعرف أن الطبقات الاجتماعية لا يمكن أن تدرس دراسة موضوعية صحيحة تؤدي إلى فهمها حقاً، وإلى وعي مستلزماتها القريبة والبعيدة إلا إذا تناولها الباحث على صعيد المثل الاعلى في الحياة للمجتمع الذي يدرس الطبقات فيه.

ولابد لنا، إذا رمنا وعيا حقيقياً لرأي الإمام في هذه المسألة، أن نتناول مسألة الطبقات الاجتماعية على هذا الصعيد

(٢)

إن الفقر الذي هو عجز إنسان أو جماعة من الناس في المجتمع عن وجدان ما يوفر مستوى الكفاية في العيش - إن الفقر بهذا المعنى ظاهرة حاربها الإسلام في شريعة ووصاياته كما سنرى ذلك فيما يأتي من أبحاث - واعتبرها شرًا إنسانيا باعتباره يسبب حرمان الإنسان من أحد حقوقه الذي هو الكفاية في العيش، وشرًا اجتماعيا باعتباره يعوق المجتمع عن التقدم المادي والمعنوي، واعتبر الإسلام أن المجتمع الأمثل الذي يسعى إلى تكوينه هو المجتمع الذي لا فقر فيه ولا فقراء.

ومن هنا فإننا حين نستعمل كلمة (طبقات) في سياق الحديث عن الإسلام فإنما نقصد بذلك الفئات الاجتماعية، وليس الطبقات بالمعنى الذي شاع استعماله في الأدب السياسي في العصر الحاضر، وإنما حرصنا على استعمال كلمة طبقات لأنها وردت في كلام الإمام علي بمعنى فئات اجتماعية، ولم تكن في ذلك الحين قد تضمنت معناها الذي تعنيه الآن.

* * *

لقد اعترف الإسلام كما اعترف الإمام بالطبقات الاجتماعية (الفئات) القائمة على أساس اقتصادي أو مهني أو عليهما معا، وذلك لأن وجود هذه الطبقات (الفئات) ضرورة لا غنى عنها ولا مفر منها في المجتمع، فلا بد أن يوجد تصنيف مهني يقوم بسد حاجات المجتمع المتعددة، ولابد أن يوجد أناس

(٢٩)

لديهم مال كثير وآخرون لا يملكون من المال إلا قليلاً لأن التحكم التام في توزيع الثروات على نحو متساوٍ أمر مستحيل إطلاقاً. وإذا اختلفت المهن وتفاوتت الثروات فلابد أن يختلف مستوى المعيشة ويتفاوت طراز الحياة المادي والنفسي وحينئذ توجد الطبقات.

وقد رأينا أن التفاوت الطبيعي يصير منبعاً للصراع الطبيعي إذا جعل الاقتصاد مثلاً أعلى للحياة. وإذا، فالتفاوت الطبيعي الناشئ عن التفاوت الاقتصادي خطير بقدر ما هو ضروري، وإذا لم يوضع للمجتمع نظام يذهب بالخطر من هذا التفاوت ويستبقي جانب الخير فيه فإنه خلائق لأن يسبب للمجتمع بلبلة تقوده إلى الدمار.

وهنا تتجلى عقرية الإسلام وعقرية الإمام.

فقد تدرك الإسلام هذه الثغرة فسدها بنظام من القوانين عظيم، وجاء الإمام فوضع قيوداً أخرى تحول بين التفاوت في مستوى الدخل وبين أن يحلف في المجتمع عقابيه الضارة، وأثاره الوبيئة.

وعند الحديث عن التدابير الحكيمة التي وضعها الإسلام لوقاية المجتمع من شرور التفاوت في المستوى الاقتصادي يجيء الحديث عن المثل الأعلى للحياة في الإسلام قبل كل حديث.

وحديثنا عن المثل الأعلى للحياة في الإسلام يسوقنا إلى الحديث عن المثل الأعلى للحياة عند الإمام. وما نهج البلاغة إلا انعكاس الإسلام في نفس الإمام. ومن هنا كان الحديث عن أحدهما يلزمـه الحديث عن الآخر كما تستهدـي العين بخيـوط الشـعـاع على مـركـز الـاشـراقـ.

إن المثل الأعلى للحياة في الإسلام وعند الإمام هو التقوى. فقل أن ترد سورة في القرآن لم يرد فيها الأمر بالتقى، تقوى الله. وقل أن ترد خطبة أو كلام في نهج البلاغة لم يرد فيه الأمر بالتقى، تقوى الله. فالقرآن أمر بالتقى، وفصلها، ومدح المتقين، والامام أمر بالتقى، ووصفها، ومدح المتقين. قال عليه السلام:

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها حق الله عليكم، والوجبة على الله حكمكم، وأن تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله، فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة (١) وفي غد الطريق إلى الجنة. مسلكها واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ، لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضيين والغابرين، ل حاجتهم إليها غداً.. فاهطعوا بأسماعكم إليها، وكظوا بحدكم عليها، واعتاضوها من كل سلف خلفاً) (٢).

وقال عليه السلام:

(أما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله. فان تقوى الله دواء داء قلوبكم، وبصر عمى أ福德تكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وظهور دنس أنفسكم، وجلاء عشا أبصاركم، وأمن فزع جأشكم، وضياء سواء ظلمتكم. فمن أخذ بالتقى عزبت عنه الشدائيد بعده، نوها، واحلوت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها،

١ - الجنة الدرع الواقية.

٢ - نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٨٦.

وسهلت له الصعاب بعد إنصابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه الكرامة بعد إرذادها) (١).
وقال عليه السلام:

(. فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة
معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل
هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الها رب،
وتثال الرغائب (٢).

ولكن ما هي التقوى؟

إن الإمام عليه السلام لم يتعرض لوصف التقوى من داخل إذا صح التعبير.
انه اكتفى - على كثرة ما قاله فيها - بوصفها من خارج: ميزاتها، وفضلها،
وثرتها، وأصحابها، أما هي بذاتها: مقوماتها، طبيعتها، فأمر لم يتعرض له
له الإمام عليه السلام وإنما تعرض له القرآن.

ولعل الإمام ترك الكلام في هذه الجهة اعتماداً على ما جاء في القرآن،
واعتماداً على أن المسلمين إذ ذاك كانوا ولا شك يعون ما هي التقوى، فاكتفى
بتشويفهم إلى الأخذ بها والاعتصام بحبلها. أو ان الإمام قد تكلم في هذا
الموضوع وأعطاه حقه من البيان ولكن الشريف رحمه الله لم يقع على شيء منه،
أو وقع عليه ولم يكن بين ما اختاره. وعلى أي حال فيما قدمه لنا القرآن
غنى وكفاية.

١ - المصدر السابق - رقم الخطبة: ١٩٣ .
٢ - (()) : ٢٢٥ .

قال الله تعالى:

(). ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين
يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون *
والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة
هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
المفلحون (١).

وقال تعالى:

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغارب،
ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب
والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام
الصلاه، وآتى الزكاه، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا،
والصابرين في اليساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين
صدقوا وأولئك هم المتقوون) (٢).

وقال تعالى:

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات

١ - سورة البقرة: ٢ - ٥.

٢ - سورة البقرة: ١٧٧.

والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء، والكافرمين الغيظ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) (١).

وقال الله تعالى:

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (٢).

وروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: جماع التقوى في قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والاحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون) (٣).

من هذه النصوص الإلهية، وغيرها أكثر منها، نعرف طبيعة التقوى: إنها الفضيلة في أرفع معاناتها وأجل صورها.

إنها الإيمان بالله في أظهر حالاته وأسمى معانيه.

وبذل المال لمن أعزوه المال... ولكن كيف..؟ إنها بذل المال على حبه.

١ - آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤ .

٢ - المائدة: ٨ .

٣ - مجمع البيان في تفسير القرآن ١ - ٣٧ ، الآية في سورة النحل: ٩٠ .

حب الله تعالى، فلا امتنان على المعطى ولا إفضال، ومتى؟ إنها بذله في السراء والضراء.

وهي الصبر في جميع المواطن وجميع الأحوال. وهي كظم الغيظ، وهي العفو عن الناس، وهي العدل فيهم والاحسان إليهم إلى غير ذلك من حميد الأخلاق وجميل الخصال.

هذه هي التقوى. فإذا حققت التقوى في نفسك: وعيت وجود الله وأمره ونهيه في كل ما تلم به من فعل أو قول، وتحريت الفضيلة أنني كانت فأخذت بها وأخضعت نفسك لها، وجعلت من نفسك وجميع إمكاناتك خلية إنسانية حية، تعمل بحرارة وإخلاص على رفع مستوى الكيان الاجتماعي الذي تضطرب فيه، وصدرت في ذلك كله عن إرادة الله المتجلية فيما شرع من أحكام، تكون قد حققت في نفسك المثل الأعلى الذي نصبه الإسلام.

فالمال لا يكسب قيمة إلا إذا بذل حيث أجاز الله أن يبذل، وإنما إذا اتخذ وسيلة إلى رضوان الله. أما أولئك الذين لا يبذلون أموالهم فلا جدوى منهم للجماعة، ولذلك فلا مزية لهم على غيرهم من الناس الذين لا مال لهم. والسلالة لا قيمة لها حين لا يكون صاحبها متقياً لله.

والقوه لا قيمة لها حين لا يستخدمها صاحبها في مرضاه الله. والسلطان؟ انه لا يكسب صاحبة قيمة إلا إذا كان ذا تقوى.

هناك أغنياء وفقراء، وحاكمون ومحكومون، وأقوياء وضعفاء، وأناس تحدروا من سلالات لها ماض عريق وآخرون ليس لهم ماض مذكور، ولكن كل هذا لا يرفع من صاحبه ولا يضع إلا إذا اقترن بالتقى أو عري عنها. وتعاليم الإسلام صريحة في ذلك لا لبس فيها ولا غموض، فهي تنص على أن القطب الذي يدور عليه التفاضل ليس شيئاً غير التقى.

قال الله تعالى:

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١).

وقال النبي ص:

(لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى).

وقال الإمام ع:

(لا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا) (٢).

وإذن، فالقيم الاجتماعية تتفرع عن هذا الأصل، وتنبع من هذا الينبوع.

وهكذا تكون الرغبة في الخير، ورضوان الله، ومساعدة الضعفاء،

وتكريس المواهب في سبيل الجماعة تقرباً إلى الله، هي رائد كل إنسان وعي

مبادئ الإسلام. وهكذا يكون المجتمع متحاباً متاحراً متعاوناً على

البر والتقوى، بدل أن يكون في صراع يؤدي به إلى التفسخ والانحلال.

هذا هو المثل الأعلى للحياة في الإسلام وعند الإمام.

* * *

ولكن الإسلام حين جعل الفضيلة مصدر القيمة الاجتماعية، وأراد أتباعه أن يحملوا أنفسهم على هذا المركب، صوناً للمجتمع من أحطر التفاوت الطبقي لم يغفل أمر الواقع النفسي والشعوري للإنسان.

فإن القوي الغني يتغنى بالفضيلة في كل آن، ولكنه عندما تستيقظ فيه نوازع العداوة يمضي في سبيل الشر دون أن يصغي إلى نداء فضيلة أو تقريرع

١ - سورة الحجرات: الآية، ١٣.

٢ - نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٨٩.

ضمير. وعندئذ تغدو الفضيلة ضلا لا أثر له في صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي.

لذلك لم يكل أمر تحقيق القيمة العليا إلى الإنسان وحده، وإنما جعل لها سندا من القانون، ليكون لها من القوة ما يحمل الأغنياء الأقوياء، وغير الأغنياء على التمسك بها. وكان من ذلك أن ساوي بين جميع الطبقات في الحقوق والواجبات، فالجميع سواء أمام الله، والجميع سواء أمام القانون، وجريمة الغني هي جريمة الفقر، وجريمة الرفيع هي جريمة الصعلوك، لا يمتهن هؤلاء لضعفهم ولا يحابي أولئك لشرفهم.

وبهذا حال بين الطبقات العليا وبين أن تطغى وتعتر، لأنه أثبت لها أن الغنى والسلالة والماضي العربي لن تحدي شيئاً أمام القانون. وحال بين الطبقات السفلية وبين أن تشعر بالحيف والضعة والاستغلال، لأنه أثبت لها أن عدم الغنى وأن ضعة النسب لا تجعل من القانون لها عدوا، وإنما هي أدعي لان تجعله أرفق بها، وأحنى عليها، وأرعى لشؤونها في السراء والضراء.

* * *

وحين تحتد الفروق الاقتصادية، فتتسع وتعمق، تغيب منابع الفضيلة من المجتمع وتسوده نوازع الحيوان.

فأنت لا تستطيع أن تطلب من جائع لا يجد القوت أن يصير فاضلا، لأن الحرمان لا يدفع إلى الفضيلة وإنما يخلق تصورات الحرمان التي تدفع إلى التمرد والاجرام حين لا يجد المحروم اليد الباردة الوصول.

إن الجائع الذي لا يجد ما يسد جوعته وإن حشن وهان، والعاري الذي يجد للريح مثل لسع السياط، وللشمس مثل مس الحميم، والمريض الذي لا يجد ثمن الدواء ولا الخلاص من اللاإاء - هؤلاء لا يستطيعون أن يتغنو بالفضيلة حين يرون الغني الكاسي الصحيح الذي لا يعرف معنى للجوع، فالفضيلة ليست

طعاماً ولا كساء ولا دواء، إن هؤلاء ينقلبون إلى قتلة و مجرمين ولصوص حين لا يجدون ما يسدون به حاجاتهم الأولى من طريق مشروع. وهكذا يظهر إلى العيان الصراع الطبقي بالرغم من أن المثل الأعلى هو الفضيلة ومكارم الأخلاق.

وعلى الإسلام هذا الواقع فلم يكن أمر صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي إلى المثل الأعلى وحده، وإنما أولى الاقتصاد ماله من الأهمية في أمر الصيانة والعلاج.

فشرع الله تعالى أحکاما تحول دون تكون الثروات بطريق غير عادل وغير مشروع - وتحول بين أصحاب الثروات بعد أن تكون لديهم الثروة بطريق مشروع وبين أن يستخدموها في استغلال الآخرين.

وشرع نظاما للضرائب (الزكاة، الخمس) والمواريث يفتت هذه الثروات تدريجيا، ويحول بينها وبين التراكم والتعاظم، وأعطى للحاكم حق وضع اليد على ما تقضي به المصلحة العامة من أموال الأغنياء إذا قبضت بذلك حاجة طارئة تعجز عن الوفاء بها المصادر التقليدية لتمويل النفقات العامة.

وشرع نظاما للأموال العامة يغذي من الضرائب ومصادر الثروة العامة، يضمن مستوى الكفاية في العيش لجميع الناس. وبذلك يحول بين المجتمع الإسلامي وبين أن توجد فيه ظاهرة الفقر بالمعنى الاقتصادي الاجتماعي المعروف، وإن كان هذا لا يعني أن يتساوى الناس في دخلهم وفيما يملكون، لأن هذا أمر مستحيل في أي مجتمع يتخيله الإنسان على الإطلاق. ويدخل في باب الأحلام والتصورات الطوباوية التي تأباهَا واقعية الإسلام. وبذلك يشعر الفقراء أنهم ليسوا مهملين: لاعين ترعاهم، ولا يد تأسو جراحهم، وتقليلهم عثرات الزمان.. بل يشعرون أنهم ملء سمع المجتمع وبصره، فتحتفظي دوافع الاجرام من أنفسهم، وحينذاك يقول لهم الإسلام: إن المثل الأعلى هو الفضيلة، ويطلب إليهم أن

يكونوا فضلاء.. وأن يجعلوا الأرض أختا للسماء.
* * *

فقد وعى الامام ان الانسان الجائع، المستغل، المحروم، المصعد بالاغلال لا يستطيع أن يكون فاضلا، وأن من اللغو أن يوعظ بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وإن إنساناً كهذا ينقلب كافراً: كافراً بالقيم، والفضائل والانسان.

إن معدته الخاوية، وجسده المعدب، ومجتمعه الكافر بانسانيته، المتنكر له، وشعوره بالاستغلال، وميسّم الضعف الذي يلاحقه أني كان - هذه كلها تجعله لصاً، وسفاحاً، وعدوا الإنسانية التي لم تعرف له بحقه في الحياة الكريمة. ووعى ان المجتمع القائم على سيادة فريق وعبودية فريق، وعلى استغلال الأسياد للعبد، والأحرار للمصفدين بالاغلال، مجتمع لا يمكن أن توجد فيه فضيلة ولا يمكن أن يوجد فيه فضلاء. إنه ليس إلا مجتمع لصوص و مجرمين و عبيد، تسير أفراده الأحقاد والمكر والاستغلال، وما كانت اللصوصية والعبودية وما إليها يوماً فضائل تشرف الإنسان.

على أساس من هذا الوعي جعل الامام الاصلاح الاقتصادي أساساً للإصلاح الاجتماعي.

ولقد كان من الطبيعي جداً - حتى عند المفكرين والمصلحين - في عصر الامام وقبله أن يوجد أناس جائعون فقراء، وان يوجد أغنياء يحارون كيف ينفقون أموالهم، فلم يكن الفقر بذاته والغني بذاته مشكلة اجتماعية تطلب حلها، لأنها في نظرهم أمر طبيعي لا محيد عنه. إنما المشكلة هي: كيف السبيل إلى إسكات الفقراء وحماية الأغنياء؟ فكان الامام - بعد النبي الأعظم صلى الله عليه وآلـه وسلم هو أول من كشف أن الفقر والغني مشكلة اجتماعية خطيرة، ونظر إليها على أساس أفاعيلها الاجتماعية.

إن فلسفة الفقر عنده تجتمع في هاتين الكلمتين:
إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء مما جاع فقير إلا بما متع به غني (١).

و (ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع).

ومن هنا أصبح من أبرز المشاكل التي حفل بها منهاج الإصلاح يوم ولـي الحكم، مشكلة الفقر والغنى.

ولقد كان مجتمعه إذ ذاك يعاني جراحًا عميقًا بسبب هذه المشكلة، فقد ولـي الإمام الحـكم والتفاوت الطبقي في المجتمع الإسلامي على أشد ما يكون عمـقاً واتساعـاً.

ففي العهد السابق على ولادة الإمام عليه السلام للحكم كانت الطريقة المتبعة في التقدير وإظهار الكرامة هي التفضيل في العطاء. وقد اتبعت هذه الطريقة في بعض الحالات بصورة خارجة عن حدود المعقول والمقبول، ففضل من لا سابقة له في الدين ولا قدم له في الإسلام على ذوي السوابق والاقدار.

وقد أوجد هذا اللون من السياسة المالية طبقة من الأشراف لا تستمد قيمتها من المثل الاعلى للإسلام، وإنما تستمدها من السلالة والغنى والامتيازات التي ولا ماض عريق، وكان من عقایل ذلك أن أحس الفقراء الضعفاء بالدونية واستشعر الأشراف الاستعلاء، وحرم الفقراء المال الذي تدفق إلى جيوب الأغنياء.

فَلِمَا وَلَى الْإِمامُ الْحُكْمَ الْفِي بَيْنِ يَدِيهِ هَذَا الْإِرْثُ الْمُخِيفُ الَّذِي يَهْدِي بِاسْتِعْصَامٍ
مَا غَرَسَهُ النَّبِيُّ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ.

١ - نهج البلاغة - باب المختار من حكم أمير المؤمنين - رقم: ٣٢٨

وقد عالج هذا الواقع الذي سيق (؟) إليه بالتسوية بين الناس في العطاء، فالشريف والوضيع، والكبير والصغير، والعريبي والعجمي، كلهم في العطاء سواء. فلم يجعل العطاء مظهاً للتفاضل بين الأفراد والأفراد والطبقات والطبقات. وبهذا أظهر للناس أن القيمة ليست بالمال، وحال بين الفقراء والضعفاء وبين الشعور بالدونية، وبين الأشراف والأقواء وبين أن يشعروا بالاستعلاء. وأهاب بالناس أن يثوبوا إلى الله فيجعلوا التقوى مناط التفاضل ومقاييس التقويم. وقد ثارت الطبقة الأرستقراطية لسياسة المساواة المالية التي قام بها الإمام فأشاروا عليه أن يصطنع الرجال بالأموال، فقال:

(أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟
والله ما أطور به ما سمر سمير، وما أنم نجم في
السماء نجماً، لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف
وإنما المال مال الله. ألا وأن أعطاء المال

في غير حقه تبذير وإسراف..) (١)

ولم يكن هذا كل ما ينتظر الطبقة الأرستقراطية على يديه يوم أمسك بالزمام، لقد كانت أموال الأمة تتدفق - تحت عينيه - قبل أن يتولى الحكم إلى حيوب فريق من الناس، فأخذ على نفسه عهداً بمصادرتها، بردتها إلى أهلها، وكان أن أعلن للناس يوم ولـيـ الحـكم مـبدأـ من جـملـةـ المـبـادـئـ التي أـعـدـهاـ لـمحـارـبةـ الفقر الكافر في مجتمعه الموشك على الانهيار، فقال:

(ألا إن كل قطعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال. فإن الحق لا يبطله شيء. ولو وحدته قد تزوج به النساء،

١ - نهج البلاغة - رقم النص: ١٢٤ .

وفرق في البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق) (١).

وكم كان يقض مضجعه عدم التوازن في توزيع الثروات في زمانه عليه السلام، فتراه يصرخ أكثر من مرة، من على منبر الكوفة، بمثل هذا القول:

(.. وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا، والشر فيه إلا إقبالا، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعا.. اضرب بطرفك حيث شئت من الناس: هل تبصر إلا فقيرا يكابد فقر؟ أو غنيا بدل نعمة الله كفرا؟ أو بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفرا؟ أو متمراً كأن بأذنه عن سمع المواتظ وقرا، أين خياركم وصلحاؤكم، وأحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورعون في مكاسبهم، والمتزهون في مذاهبهم؟) (٢).

ولا يعالج الفقر عند الامام بالمواعظ والخطب، وإنما يعالج بحماية مال الأمة من اللصوص والمستغلين، ثم بصرفه في موارده.

وبهذا عالجه الإمام، فكان عينا لا تنام عن مراقبة ولاته على الأمصار: وعن التعرف على أموال الأمة وطرق جبايتها وتوزيعها.

وكم من وال عزل وحوسب حسابا عسيرا لأنه خان أو ظلم أو استغل. وكم من كتاب كتبه عليه السلام إلى ولاته يأمرهم أن يلزموا جادة العدل فيمن ولوا عليهم من الناس (٢).

١ - نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٥، وهذا الكلام جزء من خطبة خطبها في اليوم الثاني من بيعة للناس له بالخلافة، ولم يذكر الرضي رحمه الله النص بكامله.

٢ - نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١٢٧.

٣ - نهج البلاغة - راجع مثلا كتابه إلى الأشعث بن قيس عامل آذربيجان، رقم النص: -

وبينما هو يأمرهم بهذا يضع عليهم العيون والرقباء ليرى مدى طاعتهم وتنفيذهم لأوامره.

لقد كان عليه السلام، بهذا، أول من اخترع نظام التفتيش.

ولقد كان يكتب إلى ولاته: (إن أعظم الخيانة خيانة الأمة (١)) وليس الولاة أعضاء في شركة مساهمة هدفها أن تستغل الأمة وإنما هم كما كان يكتب إليهم (خزان الرعية، ووكالء الأمة، وسفراء الأئمة) (٢).

وكون الأموال العامة هي أموال الأمة مفهوم لم يأخذ صيغته الحقة إلا على لسان الإمام عليه السلام وفي أعماله. لقد جاءه أخوه عقيل يطلب زيادة عن حقه فرده محتاجاً بأن المال ليس له وإنما هو مال الأمة (٣)، وجاءه ثان يطلب إليه أن يعطيه مالاً، مدللاً بما بينهما من رابطة الحب فرده قائلاً: (إن هذا المال ليس لي ولا لك وإنما هو في لل المسلمين) (٤). ***

بهذا كله لم يكل الإسلام ولا الإمام أمر التزام الفضيلة في السلوك إلى الضمير وحده وإنما جعلا لها سندًا من القانون يكفل لها أن تصير واقعاً اجتماعياً تبني عليه العلاقات الاجتماعية والسلوك الانساني. ولكنهما لم يجعلما القانون كل شيء في حياة الإنسان لئلا يكون آلة مسيرة لا تملك اختيار ما تريد، وإنما أناطتا جانباً من سلوكه بمتلزمات الضمير بعد أن أيقضاً هذا الضمير. ولم يكلا أمر

٥، وكتابه إلى زياد بن سمية وهو متول على البصرة، رقم النص: ٢٠ - ٢١، وكتابه إلى بعض عماله، رقم النص: ٤٦، وغير ذلك كثير نجده في باب المختار من كتب أمير المؤمنين في القسم الأخير من نهج البلاغة.

١ - نهج البلاغة - من عهد له إلى بعض عماله على الخراج، رقم النص: ٢٦.

٢ - نهج البلاغة - من كتاب له إلى عماله على الخراج: ٥١.

٣ - نهج البلاغة - رقم النص: ٢٢٢.

٤ - نهج البلاغة - من كلام له مع عبد الله بن زمعة، رقم النص: ٢٣٠.

صيانة المجتمع من أخطار التفاوت الطبقي إلى الفضيلة وحدها، لأنها لا تسد حاجات الإنسان التي لا يقوى بدونها على التزام الفضيلة ومكارم الأخلاق، وإنما أنماطاً جانباً من مهمة الصيانة بالاقتصاد لأنه هو الذي يسد حاجات الإنسان.

وهكذا، بين الضمير اليقظ والقانون الوعي لحاجات الفرد والمجتمع ينمو الإنسان المسلم، ويأخذ سبيله إلى الكمال النسبي الذي يتاح للإنسان.

وحيث قد تبين لنا موقف الإسلام وموقف الإمام من الطبقات الاجتماعية والتفاوت الطبقي، فلسلك سبيلاً إلى دراسة الطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة.

* * *

راجع الأوامر بالتقوى، ووصفها، ووصف المتقين في نهج البلاغة في النصوص التالية:

رقم - ١٥، و ٦٢ و ٨١ و ١١٢ و ١٣٠ و ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٥ و ١٧١ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٦ و ١٨٩ و ١٩٠ (القاصعة) و ١٩١ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٦ و ٢٢٨، وفي باب الكتب رقم ١٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٣٠ و ٣١، (وصية لابنه الإمام الحسن) و ٤٥ و ٤٧ و ٥٣ (عهد الأشتر) و ٤٦ وفي المختار من حكمه وكلماته القصار - رقم ٩٥ و ٢٠٣ و ٢١٠ و ٢٤٢ و ٣٤٤ و ٣٨٨ و ٤١٠.

(٣)

مصدرنا الكبير والأساس من نهج البلاغة، في دراسة الطبقات الاجتماعية عند الامام هو كتابه إلى مالك بن الحارث الأشتر النخعي حين ولاد مصر وعزل به محمد بن أبي بكر عنها يوم شغب الحزب الأموي على هذا الأخير، وضعف أمره.

ولكن لم يطبق في مصر شيء من هذا القانون الذي كتبه الامام. فقد دس معاوية من قصى على الأشتر وهو في اعتاب مصر (القلزم - منطقة السويس حاليا) باسم دس في كأس من عسل، وذلك في سنة ٣٨ هجرية، وبعد ذلك قتل محمد بن أبي بكر، وتمت لمعاوية الغلبة على مصر فنزل عنها عمرو بن العاص وفاء بالعهد الذي بينهما (١).

١ - لم يوافق عمرو بن العاص على الاشتراك مع معاوية في العمل السياسي والعسكري ضد أمير المؤمنين علي عليه السلام إلا بعد أن تعهد معاوية بأن يولي عمرو ابن العاص على مصر ولاية مطلقة. وقد جاء في صك الولاية المذكورة (.. ان معاوية أعطى عمروا ابن العاص مصر وأهلها هبة يتصرف كيف يشاء). وقد وردت بعض الإشارات في نهج البلاغة إلى هذه الاتفاقية بين معاوية وعمرو بن العاص منها قوله: (.. ولم يبأع حتى شرط أن يؤتنيه على البيعة ثمنا فلا ظفرت يد البائع، وخزيت أمانة المتابع ..) رقم النص: ٢٦.

ومنها (.. إنه لم يبأع معاوية حتى شرط أن يؤتنيه أتية، ويرضخ له على ترك الدين رضيحة) رقم النص: ٨٢.

(٤٥)

وما بين أيدينا من هذا العهد ليس تمامه. لا، إنما قطع منه اختارها الشريف الرضي رحمة الله. وليته أثبته كله، إذن لزدنا بصرًا بأراء الإمام في هذا الموضوع، ولكن ماذا نصنع والشريف لم يختر إلا البليغ من كلامه عليه السلام.

ويحسن بنا أن ننوه، ونحن على اعتاب البحث عن الطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة، بأن التقسيم الطبقي الذي ذكره الإمام يقوم بالدرجة الأولى على الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها كل طبقة، وهناك تقسيم آخر يتم في داخل الطبقات هو التقسيم على أساس المثل الاعلى، والتقسيم الأول لا يستتبع حكما تقويميا على الشخص المنتسب إلى طبقة ما يجعله في القمة أو ينحدر به إلى الحضيض.

ان التقسيم الذي يستتبع الحكم التقويمي، أعني الذي يحدد قيمة الشخص، إنما هو التقسيم الثاني، فالإنسان الذي يستغل إمكاناته في سبيل خير المجتمع هو في القمة أما الإنسان الذي يتخذ هذه الامكانات سبيلا إلى العيش والافساد وإضرار المجتمع فذلك شخص يحتل مركزه في الطبقات السفلية.

وإذن فترتيب الطبقات في التقسيم لا يعني ترتيبها في القيمة، فيكون الجنود هم الطبقة العليا ويكون المعدمون هم الطبقة السفلية، وتكون قيمة ما بينهما على هذا الترتيب قربا من الجنود وبعدها عنهم. لا، فقد عرفت ان الإمام لم يراع قيمة كل طبقة حين قدمها وآخرها، وإنما راعى الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها، أما القيمة فلا تقاد إلا بالتقوى.

ونقدم بين يدي بحثنا هذا ملاحظة لها خطرها، وهي: ان هناك طبقات (فئات) افترض الإمام وجودها وتحدث عنها كأهل الخارج، والتجار والصناع، والمعدمين، وهناك طبقات لم يفترض وجودها، وإنما تكلم رأسا في كيفية إنشائها وتكوينها، فإذا تم تشير هذه الملاحظة؟
ان ما تشير إليه هذه الملاحظة، فيما أرى، أمر طريف جدا ومعجب حقا،

فالطبقات التي تكلم الامام في كيفية إنشائها وتكوينها هي: طبقات (فئات) العسكريين، والوزراء، والولاة، والقضاة. وهذه الهيئات هي التي تشرف على تنظيم المجتمع وسير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدعوية، وبها يتعلّق مصير المجتمع النير أو الويل، وقد كانت هذه الأجهزة قبل عهد الامام فاسدة ومتهرئة فأراد الامام أن ينشئها من جديد.

ومن هذه الملاحظة نستكشف مدى عظمة الامام في المسائل الاجتماعية. فالمجتمع، خيره وشره، نحن نصنعه بأيدينا، وليس ضربة لازمة لنا أن نعيش في مجتمع متذائب متداع لا يوفر لافراده فرضاً حسنة، وإنما بامكاننا أن نعيش في مجتمع حسن التنظيم يجد فيه كل فرد من الافراد المجال الربح لتحقيق مطامحه التي يريد، ولا يتم ذلك إلا إذا أصلحنا الأجهزة التي تدير آلة الحكم أو بدلناها بأخرى أجدى منها.

بهذه العقلية العظيمة الوعائية نظر الإمام عليه السلام إلى المجتمع الإسلامي في أيامه، وبهذه العقلية العظيمة الوعائية وضع له هذا النهج وسن له هذا القانون، ولكن المجتمع مصر لم يسعد بتطبيق هذا النظام.

قسم الامام الرعية إلى طبقات (فئات) سبع.

- ١ - الجنود
- ٢ - كتاب العامة والخاصة، وهم بمنزلة الهيئة الوزارية ومساعديها.
- ٣ - القضاة
- ٤ - الولاة
- ٥ - الزراع
- ٦ - التجار
- ٧ - الطبقة السفلية.

ولكنه في مورد ثان جعل القضاة والولاة والكتاب طبقة واحدة، وإن كان فيما بعد قد جري في الكلام عن الطبقات على تقسيمه الأول.

ومع أنه يمكن إدراج الكتاب والولاة في طبقة واحدة باعتبارهم إداريين من حيث الوظيفة، وباعتبار أن (نوع الحياة) الذي يحيونه واحد أيضاً، فإن مستوى الدخل والأنفاق والتصورات الاجتماعية عندهم واحدة أو متقاربة تقارباً شديداً - أقول مع أنه يمكن إدراج هاتين الطائفتين في طبقة واحدة جعلهما الإمام طبقتين متمايزتين. وأحسب أن الذي دفعه إلى ذلك رغبته الأكيدة في التنصيص التام على كيفية تأليف كل جهاز من أجهزة الحكم في الدولة لئلا يقع اللبس والابهام من اشتراك طائفتين مختلفتين مجال النشاط في حدث واحد.

ونحن، محافظةً منها على إبراز جميع خصائص العهد، سنجري في كلامنا عن الطبقات حسب تقسيمه عليه السلام وإن لم تكن ثم ضرورة، بلحاظ الطبقات ذاتها، تدعوا إلى اتباع هذا النهج.

* * *

وبعد أن قسم الإمام الطبقات على النحو الذي رأيت، تقدم بملاحظة ذات مغزى، وهي أن كل واحدة من هذه الطبقات، عدا الطبقة التي لا تستطيع عملاً، ضرورية للمجتمع، والعمل الذي تقوم به ضروري الوجود، وكما أنه يعتقد في وجوده على جهود الآخرين كذلك جهود الآخرين لم تكن لتوجد لولاه. ولذلك قال عليه السلام.

(الرعاية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى
لبعضها عن بعض.)

لو لا الجنود لا نعد الأمان، وحينئذ تنعدم التجارة ويختفي نظام الزراعة،
وإذا اختفى هذان انهار الكيان الاجتماعي.

ولولا التجارة والزراعة لما وجدت الضرائب التي تمد الجنود بالمال والسلاح.

ولولا التجارة لحدثت أزمات اجتماعية تنشأ من تكدس الانتاج في غير مكان الحاجة إليه، وعدم وجوده في مكان الحاجة إليه.
والعمال (الولاة) والكتاب يشرفون على تنظيم هذا النشاط ولو لاهم لتسيب واتجه اتجاهات غير صالحة.
ولولا القضاة للجأ الناس إلى تسوية مشاكلهم بالعنف، وذلك يؤدي إلى بلبة الاجتماع.

وإذن، فالنشاطات الاجتماعية متشابكة ومترابطة، وليس فيها لاحد على أحد فضل، فكل واحد من الناس يؤدي عملاً يأخذ في مقابلة من المجتمع أعمالاً كثيرة، ولو كف المجتمع عن تقديم المعونة له لما أمكنه أن يقوم بشيء.

قال عليه السلام:

(.. فالجند يأذن الله حصون الرعية، وزين الولاية،
وعز الدين، وسبل الأمان، وليس تقوم الرعية إلا بهم.
(ثم لا قوم للجند إلا بما يخرج الله لهم من الخارج
الذي يقوون به على جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم.

(ثم لا قوم لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من
القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد
ويجمعون من المنافع، ويؤمنون عليه من خواص الأمور
وعوامها).

(ولا قوم لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما
يحيطون به من مراقبتهم، ويقيموا من أسواقهم،
ويكفونهم من الترافق بأيديهم مالا يبلغه رفق غيرهم)
عهد الأشتراط. (٤)

وحيث كان النشاط الاجتماعي متشابكاً على هذا النحو، متداخلاً على هذه الشاكلة، فيجب أن تشق له القنوات التي يجري فيها على نحو لا يختل ولا يتدافع، ولا يطغى لون منه على لون، وأمر هذا موكول إلى الحاكم.

قال عليه السلام:

(وفي الله لكل سعة، ولكل على الوالي بقدر ما يصلحه، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما أزلمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل)

عهد الأشتراط

(٤)

ال العسكريون

ال العسكريون خطر و ضرورة في آن.

هم خطر لأن الطبقة التي ينتمون إليها هي أقوى طبقات الأمة كلها، فالجيش طوع أمرهم، والسلاح تحت أيديهم، ولا قوة تمنعهم من الثورة إذا ما أرادوا، ولا حاجز يحول بينهم وبين ظلم الرعية إذا تمكّن ذلك من أنفسهم، ووجد هوى في صدورهم.

والوجдан الذي ينتظم أفراد هذه الطبقة يقتضيهم ذلك وينزع بهم نحوه، فإن التصورات التي يتكون منها هذا الوجدان هي تصورات القوة والغلبة والفتاك، وما يتبع هذه من تصورات الخيلاء والاستعلاء.

و طبيعة عملهم العسكري تقتضيهم أن يواجهوا مشاكلهم من طريق العنف والقسر وتحملهم على أن يحلوها من هذا الطريق. و طبيعة عملهم أيضاً تجعلهم ينظرون إلى المجموعات الإنسانية (كوحدات عدديّة) تقوم بعمل معين لا أكثر ولا أقل وذلك لأنهم لا ينظرون من الجندي الذي يدين لهم بالطاعة إلى أكثر من أنه آلة تحيد استعمال السلاح، أما ما وراء ذلك من صفات نفسية وسمات ذاتية فلا ينظرون إلى شيء منها، لأن هذه كلها تنطمس في التجمع البشري الضخم المسمى بالجيش، وأنها لا تغنى كثيراً في أداء المهمة المطلوبة من الجندي. وإذا كانوا ينظرون إلى الجماعة الإنسانية على هذا النحو فلا يؤمنون من

(٥١)

الانحراف عن جادة الصواب في معاملتهم مع الناس، لأن الصفات النفسية هي التي يجب أن تلحظ في هذه المعاملة، وهم يغفلونها لأن طبيعة عملهم تقتضي ذلك كما رأيت.

هذا الوجдан الطبيعي (وهو ضروري إذ لولاه لما كانوا عسكريين) خطير إذا احتج، وعبر عن نفسه في غير أوانه وجرى في غير أقنيته الحقيقة. هذا هو وجه الخطر فيهم.

وهم ضرورة لأن وجودهم يحفظ الامن ويصون الدولة، ويردع السفيه ويضرب على يد المعتدي.

وحيث كانوا ضرورة فلا بد من وجودهم، وحيث كانوا خطرا فلا بد من تفاديه.

وإذ قد لزم هذا وذاك فقد شرع الإمام عليه السلام للحاكم نظاماً يستهدى به في تأليف هذه الطبقة من جديد، وشريعة يجري عليها في انتخاب من يريد ضمه إليها من رعيته، وسنة يأخذ بها في معاملتها. وقصد من ذلك كله إلى أن يؤمن من هذه الطبقة جانب الضرورة، وينأى بها عن أن تكون مصدر خطر وإرهاب.

* * *

الشخصية العسكرية ضرورة لازمة للقائد العسكري لزوم الهواء لكل كائن حي.

وهذه الشخصية عبارة عن طائفة من الصفات تتلقى في القائد فتكون له شخصيتها.

فيجب أن يكون القائد العسكري متصفًا بصفة النفوذ والهيبة التي تجعله نافذ الامر، وذلك لأن الصفة الأولى المطلوبة من الجندي هي الطاعة وبدونها لا يمكن أن ينجح جيش على الإطلاق، وما لم يكن للقائد العسكري صفة

النفوذ والهيبة بعدت الطاعة عن منال يديه، وحينئذ لا ينجح في عمله العسكري.

ويجب أن يكون واجداً لصفة الخبرة بمن يعمل تحت يديه من مرؤوسيه، عارفاً بامكانياتهم وكفاءاتهم، ليضع كلاً منهم في موضعه اللائق به، لأن خطأ بسيطًا في تعيين قائد ربما أدى إلى كارثة قومية.

ويجب أن يكون واجداً للثقافة العسكرية: عارفاً بأساليب قيادة الجيش وحركتاته، والاستراتيجية العسكرية.

ولما كان القائد هو المثل الأعلى للجندي وجب أن يكون هذا القائد مثلاً يحتذى لجنوذه في الصبر على المكاره، والتفاني في القيام بالواجب، وهما من أبرز الصفات العسكرية في الجنود والقادة على السواء.

ولا توجد هذه الصفات في عامة الناس، وهي ليست صفات تحدر بالوراثة من جيل إلى جيل، بل لابد فيها من التربية المنهجية الوعائية.

ولم تكن في زمن الإمام عليه السلام مدارس وكليات عسكرية تقدم مثل هؤلاء القادة في كل وقت.

هذه الملاحظات دفعت بالامام إلى تعيين العناصر التي يؤخذ منها هؤلاء.

هذه العناصر هي البيوتات الشريفة ذات الأحساب والتقاليد المتوارثة، فقد كانت هذه البيوتات تأخذ أبناءها بتربية قاسية واعية توفر لهؤلاء الأبناء الثقافة العسكرية، وهي من أهم ما كان يأخذ به العرب ويعنون باتقاده، وتغرس في أنفسهم الشعور بالمسؤولية والتحمل والصبر على المكاره. وقد كانت هذه البيوتات تحتل في نفوس أبناء الشعب، وهم الذين يؤخذ منهم عامة الجند، مركزاً ساماً حصلت عليه بسبب الخدمات التي تقدمها هذه البيوت للأمة في الحرب والسلم على السواء، وهذا يوفر للقائد صفة الهيبة، ويضمن له نفوذ الأمر وحصول الطاعة.

قال عليه السلام:

(ثم أصدق بذوي المروءات والأحساب، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والشخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم، وشعب من العرف).

عهد الأشترا

* * *

ولكن هؤلاء القادة يستمدون من وسطهم العائلي تصورات القوة والاستعلاء لمكان ما لهم من مركز مرموق في المجتمع، ويستمدون من وظيفتهم الجديدة ما يعزز هذه التصورات ويمدها بالحرارة والفعالية، وينزع بها إلى التحقيق نظراً إلى ما توفر لهم من الهيمنة على الجيوش والسلاح، ويستمدون من ثقافتهم ما يزين لهم الفعل ويرت لهم العمل - هذه اليابسات الثلاثة للوجودان الظبيقي عند العسكريين تعمل دائماً على إثارة هذا الوجودان وبعثه. وهنا يظهر وجه الخطر فيهم، وقد وضع الإمام العلاج الواقي من هذا الخطر.

فإلى جانب الصفات السابقة يجب أن تتوفر في القائد صفات أخرى. منها الثقافة الدينية، وهذه الثقافة لا يكفي فيها أن تكون (علماء) بالواجبات الدينية فقط وإنما يجب أن تكون (وعياً) لهذه الواجبات بحيث تكون في جهاز القائد النفسي قوة دافعة تحمله على أن يسير على هديها في حياته العملية، ولا تبلغ هذه الثقافة هذا المدى في تأثيرها إلا إذا استحالت في القائد إلى (طاقة شعورية) محركة.

ومنها أن يكون أميناً لا تمتد يده إلى ما ليس له، حليماً لا يحمله الغضب على فعل ما لا تحمد عقباه، واسع الصدر يجد العذر موقعاً في نفسه، رحيمًا بالضعف لا يتخذه موضعًا لاظهار مدى سلطته.. وهكذا، إلى جانب الثقافة الدينية التي يجب أن تبلغ من نفس القائد مرتبة الطاقة الشعورية يجب

أن يكون على مستوى أخلاقي عال يصده عن الافساد، ويمسكه على الجادة، ويأخذ بعنقه إلى الهدى.
قال عليه السلام:

(.. فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم حبسا، وأفضلهم حلما، ومن يبسط عند الغضب، ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف).

عهد الأشتر

وبعد أن نهج الامام القواعد التي يجب أن تتبع في اختيار أفراد هذه الطبقة أخذ في بيان الأسلوب الذي يجب أن تعامل به.

يرى الامام أنه لا يجوز للحاكم أن يعتمد على التربية وحدتها، وعلى الخلق الشخصي وحده فيما يرجع إلى ضمان اخلاص هذه الطبقة. فهو بقدر ما يحرص على أن يكون القادة العسكريون ذوي تربية عالية وخلق متين يحرص كذلك على توفير ما يتوقعون إليه من الناحيتين: المادية والمعنوية.

فهؤلاء القادة يتوقعون إلى أن يروا أعمالهم التي يقومون بها تلاقي التقدير الذي تستحقه عند الحاكم، ويتوّقون إلى أن يروا أن عين من فوقهم ترعاهم وتعاهد أعمالهم وتوفّيها ما تستحق من جزاء. وهؤلاء القادة، كغيرهم من الناس، خاضعون للضرورات الاقتصادية، وربما كانت حاجتهم إلى المال أكثر من حاجة غيرهم إليه، وإذا كانوا كذلك فلا بد للحاكم من مراعاة حالتهم الاقتصادية.

ولا يجوز له أن يعتمد على الخلق والتربية في ضمان اخلاصهم وتمسكهم

بمثلكم العليا، فإن الحاجة تدفع إلى الاجرام أو الانحراف. ولا بد له من تتبع مآثرهم والإشادة بها، ومدحهم، والثناء عليهم بما أبلوا من بلاء حسن، وأتوا من فعل عظيم.

فاما حين تغفل عنهم عينه: فلا يتفقد أحوالهم، ولا يوليهم منه جانب اللين والرأفة - حين يجدون هذا منه يشعرون بأن أعمالهم لا تجد ثوابها وان جهدهم يذهب أدراج الرياح، ويعظم في أعينهم الصغير ويصغر العظيم، وتنعدم ثقتهم بالحاكم، ويذهب وده من قلوبهم، فلا يمحضونه النصح، ولا يخدمونه بصدق، لأنهم لا يجدون في أنفسهم ما يدفعهم إلى خدمته وهو متخاذل عنهم مقصراً معهم، ويدفعهم هذا الموقف النفسي إلى استقال دولته، واستطالة مدتة، والتبرم بحكمه، فماذا يمنعهم، وهذا موقفهم منه، عن أن ينتقضوا عليه ويكيدوا له ويواجهوه بما لو أحسن السياسة لاتقاده.

قال عليه السلام:

(ثم تفقد من أمرهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به. ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به، وإن قل، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك.

(ولا تدع تفقد لطيف أمرهم اتكللا على جسميهما فإن لليسير من لطفك موضعًا ينتفعون به، وللجمسم موقعًا لا يستغون عنه.. فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك).

(وان أفضل قرة عين الولاية استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية، وانه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا

بحيطةهم على ولاة الأمور وقلة استثمار دولتهم، وترك
استبطاء انقطاع مدتهم، فأفسح لهم في آمالهم، وواصل
في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء
منهم، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع
وتحرض الناكل إن شاء الله).

عهد الأشترا

وتأمل الفقرة الأخيرة: (. فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع
وتحرض الناكل ..) فإنها تتضمن مغزى عميقاً، فبدلاً من أن يوجه اللوم إلى
الناكل لنكولة مما قد يولد في قلبه الضغف والنية السيئة - بدلاً من هذا يبعث
إلى العمل عن طريق المنافسة، فحين يسمع الثناء على ذوي البلاء الحسن من
أقرانه، وحين يرى أن العمل يجد صدى مستحبًا عند الرئيس يعبر عنه بالتقدير،
يندفع إلى العمل بياض نفسي فيجد فيه متعة ولذة يدفعه إلى اتقانه، بدل
أن يزاوله مكرهاً، لو دفع إليه عن طريق اللوم فلا يجد فيه لذة، ولا يشعر
نحوه بأي سرور نفسي يدفعه إلى التجويد والاتقان.

وعلى الحاكم أن يكون يقطا في تتبع أفعالهم، فينسب الفعل إلى صاحبه،
ولا يتجاوز به إلى غيره، ولا يقصر في جزائه، فإن غفلته عنهم تشعرهم بأن
أعمالهم لا تجد ثوابها الحق، ولا تلقى التقدير الذي تستحق.

قال عليه السلام:

(ثم أعرف لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تضييف
بلاء امرئ إلى غيره، ولا تقصير به دون غاية
بالئه).

عهد الأشترا

والقياس في الجزاء والثواب وحسن الأحدوثة نفس العمل، لا السلالة ولا
الغني ولا أي شيء آخر.

قال عليه السلام:

(ولا يدعونك شرف امرى إلى أن تعظم من بلائه ما
كان صغيرا ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه
ما كان عظيما)

عهد الأشترا

* * *

وال المشاركة الوجданية من الأمور التي يجب توفيرها بين القائد وجنوده .
فحينما تتوفر المشاركة الوجданية بين القائد وجنوده ، ويشعرون بأنهم ليسوا
تحت سلطان جبار يسومهم العذاب، ويتخذهم سبلا إلى إظهار سلطانه، ووسائل
لخدمة ماربه، وإنما هم تحت رعاية أب بار يعمل لخيرهم، ويسعى لسعادهم،
ويحدب عليهم، ويرأف بهم، ويوجههم نحو ما فيهم صلاحهم .. حينما يستقر في
أعماقهم هذا الشعور يعملون بإخلاص وإتقان وحرارة وإيمان ، ويقبلون على
عملهم بشوق رغبة منهم في إبهاج قائدتهم وإشاعة الرزهو(؟) والفرح في قلبه ، فإن
القائد بجنوده ، وكلما كان عملهم رائعًا ومتقدما دل ذلك على حسن توجيهه
وواسع خبرته وعظم معرفته . وليس بخاف ما يعود به هذا على الدولة من
القوة والتماسك .

وكما أن المحبة والعطف والخلق الحسن شرط لازمة في حصول هذا الشعور
عند الجنود فإن تأمين الناحية الاقتصادية شرط لازم أيضا . فلا يسع جنديا
أن يخلص لعمله وهو يسمع، بقلبه، صراغ زوجته وأطفاله من الجوع أو
العرى أو المرض، لذلك أرشد الإمام الحاكم إلى أن طبقة العسكريين يجب أن
تتألف من يولون كلا الناحيتين: الاقتصادية والمعنوية عظيم اهتمامهم، وان خير
قواده خيرهم لجنوده، وأحد بهم عليهم، وأرفقهم بهم، وأرعاهم لشؤونهم في
السراء والضراء، فإن هذا هو السبيل الوحيد إلى توليد هذه المشاركة الوجданية
التي تعود على الدولة بأجل الفوائد وأعظم الخيرات .

قال عليه السلام:

(ول يكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في
معونته، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع
من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما
واحدا في جهاد العدو).

عهد الأشترا

والأجل التوسيع في معرفة موقفه من الجيش وقادته راجع قسما من كتاب له إلى أمرائه
على الجيش - رقم النص: ٥٠. ووصيته لشريح بن هانئ عندما وجهه على مقدمته
إلى الشام - رقم النص: ٦٥. وكتابه إلى العمال الذين يطأ الجيش عملهم - رقم
النص: ٦٠. وفقرات من كتابه إلى أمراء الأجناد لما استخلف - رقم النص: ٧٩
هذه النصوص في (باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين).

(٥)
القضاة

السلطة القضائية من أعظم سلطات الدولة، بها يفرق بين الحق والباطل، وبها يتصف للمظلوم من الظالم. وحين تجحظ الظروف بهذه السلطة إلى الأسفاف فإنها لا تنزل إلى الحضيض وحدها وإنما تجر معها المجتمع كله أو بعضه. حين تسف تصير في عون الظالم وتعضد المجرم، وحيث أنها تنطق باسم العدالة فإنها تسكت كل فم، وتطفي جذوة الحياة في كل انسان يتصدى لها. وماذا يحدث حينئذ؟

يحدث أن يستشرى الفساد، ويعظم الجور، وتعتم الفتنة، ويكون المظلوم في الخيار بين أن يرفع أمره إلى هذه السلطة فيسلب حقه باسم العدل بعد أن سلبته إياه القوة، وبين أن يسكت حتى تحين الفرصة فيستعيد حقه عن طريق العنف، وفي بعض هذا شر عظيم.

وإن الإمام عليه السلام ليقدر هذه السلطة حق قدرها، فيختتم وصاياه إلى عامله فيما يتعلق بها بقوله:

(.. فانظر في ذلك نظراً بلغاً، فان هذا الدين قد

كان أسيرا في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى،
وتطلب به الدنيا).
عهد الأشترا

وهذا ما لم نشاهد منه في غير هذه الطبقة من الطبقات التي يتالف منها جهاز الحكم، مما يدل على أنه كان يعي كيف أن القضاء حين يصير إلى غير أهله ينقلب إلى أداة للظلم: ظلم الضعفاء، ويصير مؤسسة ترعى مصالح الأقوياء فحسب.

وقد تحدث كثيرا عن هؤلاء الذين يتسمون مناصب القضاء وليسوا لها بأهل،
فيتحولون بهذا المنصب إلى أداة للشر والفساد.
قال عليه السلام:

(.). وآخر قد تسمى عالما وليس به، فاقتبس جهائل من
جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس شركا من حبائل
غرور وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف
الحق على أهوائه، يؤمن من العظائم ويهون كبير الجرائم،
يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع. ويقول:
وأعتزل البدع وبينها اضطجع، فالصورة صورة
انسان، والقلب قلب حيوان) (١).

وقال عليه السلام:

(.). ورجل قمش جهلا، موضع في جهال الأمة، عاد
في أغباش الفتنة، عم بما في عقد الهدنة، قد سماه
أشباء الناس عالما وليس به، فاستكثر من جمع ما قل
منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماء آجن، واكتنز
من غير طائل، جلس بين الناس قاضيا ضامنا تخليص

(١) نهج البلاغة - رقم الخطبة: ٨٥

ما التبس على غيره، فان نزلت به إحدى المهامات هيأ
حشوا رثا من رأيه ثم قطع به، فهو من لبس الشبهات
في مثل نسج العنكبوت، لا يدرى أصاب أم أخطأ؟
فإن أصاب خاف ان يكون قد أخطأ، وان أخطأ
رجا ان يكون قد أصاب، جاهل خباط جهالات، عاش
ركاب عشوارات، لم يغض على العلم بضرس قاطع.) (١).
ولا جل تفادى هذا المصير السئ لسلطة القضاء، وضع عليه السلام نظاما
يجب أن يتبع في تأليف هذه الفئة، يضمن أن تكون على مستوى عال من
الكفاءة للمهامات المناطة بها.

* * *

تؤتي السلطة القضائية من ناحيتين.
الأولى: ناحية القاضي نفسه فإذا كان غير كفء لمنصبه أسف بهذا المنصب، ولم يؤد
حقه المفروض.

الثانية: ناحية المنصب نفسه، فما لم يكن القاضي مستقلا في حكمه لا يخضع لتأثير
هذا وإرادة ذلك، لم تكن هناك سلطة قضائية بالمعنى الصحيح، وإنما تكون
السلطة القضائية حينئذ أدلة لا لباس رأي فلان ثوب الحق وإسباغ مسحة
الباطل على دعوى فلان. ولا تؤتي السلطة القضائية من غير هاتين الناحيتين.
وقد رسم الإمام في عهده إلى الأشرت ثلاثة أمور ينبغي أن تتبع في انتقاء
أفراد هذه الطبقة ومعاملتهم، واتباع هذه الأمور يكفل لهم أن يمارسوا مهمتهم
بحرية، وأن يؤدوا هذه المهمة بخلاص.

(١) نهج البلاغة - رقم النص ١٧

هل يكفي في صلاحية الرجل للقضاء أن يكون على معرفة بمواد القانون الذي يقضي به دون اعتبار لتوفر ميزات أخرى فيه؟ إن الجواب السديد على هذا السؤال هو النفي، فلا يكفي في القاضي أن يكون على علم بمواد القانون فحسب، لأنه إذا لم تتوفر فيه غير هذه الصفة يكون عالما بالقانون، ولا يصلح أن يكون قاضيا، لأن منصب القضاء يتطلب من شاغله إلى جانب علمه بالشريعة، صفات أخرى فصلها الإمام في عهده، وأنماط اختيار طبقة القضاة بتوفرها، وهذا يعني أن فاقدها ليس جديراً بهذا المنصب الخطير. يجب أن يكون القاضي واسع الصدر كريم الخلق، وذلك لأن منصبه يقتضيه أن يخالط صنوفاً من الناس، وألواناً من الخلق، ولا يستقيم له أن يؤدي مهمته على وجهها إلا إذا كان على مستوى أخلاقي عال يمسكه عن التورط فيما لا تحمد عقباه.

ويجب أن يكون من الورع، وثبات الدين، وتأصل العقيدة، والوعي لخطورة مهمته وقيمة كلمته، بحيث يرجع عن الباطل إذا تبين له أنه حاد عن شريعة العدل في حكمه، ولم يصبها اجتهاده ولم يؤده إليها نظره، فلا يمضي حكماً تبين له خطأه خشية قالة الناس.

ويجب أن يكون من شرف النفس، ونقاء الجيب، وطهر الضمير، بحيث (لا تشرف نفسه على طمع) في حظوة أو كرامة أو مال وفضلاً عن أن يتأنص فيه الطمع ويدفعه إلى تحقيق موضوعه، وذلك لأن القاضي يجب أن يجلس للحكم ضميراً نقياً، وروحاً طاهراً، وعقلاً صافياً، ونفساً متعالية عن مساف الأغراض، وألا يشغل نفسه بعرض من أغراض الدنيا، لأن ذلك ربما انحرف به من حيث لا يدري فأدان من له الحق، وبرأ من عليه الحق. لتأثيره بها جس نفسه، وهاتف قلبه، ومطمئن هواد.

ويجب أن يكون من الوعي لمهمته بحيث لا يعجل في الحكم، ولا يسرع في إبرامه، وإنما عليه أن يمضي في دراسة القضية ويقتلها بحثاً ويستعرض وجهاتها

المختلفة، فإن ذلك أحرى أن يهديه إلى وجهة الحق وسنة الصواب، فإذا ما استغلق الامر واشتبه عليه فلا يجوز له أن يلفق للقضية حكما من عند نفسه، وإنما عليه أن يقف حتى ينكشف له ما غمض عنه، وينجل لي له ما اشتبه عليه.

هذه الصفات يجب أن تتوفر في القاضي، ويجب أن يناظر اختيار الرجل لمنصب القضاء بما إذا توفرت فيه، وبذلك يضمن الحاكم ألا يشغل منصب القضاء إلا الأكفاء في عملهم، ودينهم، وبصرهم بالأمور.

قال عليه السلام:

(ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك:
ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا
يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفئ إلى الحق إذا
عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى
فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم
بالحجج، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصوم، وأصبرهم
على تكشف الأمور، وأصرهم عن اتضاح الحكم،
ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء).

عهد الأشترا

* * *

وهنا، كما في كل موطن، يضع الامام بين عينيه التأمين الاقتصادي ليضمن الاستقامة والعدل وحسن السيرة.

فالقاضي مهمما كان من سمو الخلق، وعلو النفس، وطهارة الضمير، إنسان من الناس يحوز عليه أن يطمع في المزيد من المال، والمزيد من الرفاهية، وإذا جاز عليه هذا جاز عليه أن ينحرف في ساعة من ساعات الضعف الانساني، فتدفعه الحاجة إلى قبول الرشوة، ويدفعه العدم إلى الضعف أمام الاغراء، وإذا جاز عليه ذلك أصبحت حقوق الناس في خطر، فلا سبيل للمظلوم إلى

الانتصاف من الظالم وتغدو الحكومة حكمة الأقوياء والأغنياء.
هذه أمور قدرها الإمام حق قدرها، وأدرك مدى خططها، فوضع
الضمادات لتلافيها.

وذلك يكون: أولاً: بأن يتعاهد الحكم قضاء قاضيه، وينظر فيما أصدره
من الأحكام، فإن ذلك كفيل بأن يمسك القاضي عن الانحراف، ويستقيم
به على السنن الواضح لأنه حينئذ يعلم أن المراقبة ستكشف أمر الحكم الجائر،
ووراء ذلك ما وراءه من عار الدنيا وعذاب الآخرة. وثانياً: بأن يعطى
المزيد من المال لينقطع داعي الطمع من نفسه، فيجلس للقضاء وليس في ذهنه
شيء من أحلام الثروة والمال.

قال عليه السلام:

(.. ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له في البذر ما
يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس).

عهد الأشتر

والقاضي، بعد، إنسان يخاف: يخاف على ماله أن ينهب، ويخاف على
مكاناته أن تذهب، ويخاف على كراماته أن تناول، ويخاف على حياته أن يعتدي
عليها بعض من حكم عليهم من الأقوياء، فإذا لم تكن لديه ضمادات تؤمنه من
كل ذلك اضطره الخوف إلى أن يصانع القوي لقوته، والشرير لشره، وحينئذ
يطبق القانون من جهة واحدة. يطبق على الفقراء والضعفاء الذين يؤمنون بجانبهم.
هذا الخوف ينشأ من عدم تأمين مركز القضاء وصيانته ضد الشفاعات،
وينشأ من زوجه في المساومات السياسية وغيرها، وحينئذ تكفي كلمة من قوي
أو غني ليسلب القاضي مركزه ومكاناته.

هذه الناحية وعاها الإمام عليه السلام وأعد لها علاجها، فيجب أن

يكون القاضي، لكي يؤمن ذلك كله، من الحاكم بمكانة لا يطمع فيها أحد غيره، ولا تناح لأحد سواه، وبذلك يؤمن دس الرجال له عند الحاكم، ويتحقق بمر كزه وبنفسه، وتكتسبه منزلته هذه رهبة في قلوب الأشرار يقوى بها على حملهم على الحق، وردهم إليه حين ينحرفون عنه ويتمردون عليه.

قال عليه السلام:

(.. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك).

فانظر في ذلك نظراً بلغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا).

عهد الأشترا

هذه هي الضمانات الثلاث التي وضعها الإمام عليه السلام، مبيناً فيها النهج الذي يحسن أن يتبع في انتخاب أفراد هذه الطبقة، وشارحاً كيفية معاملتهم ليؤدوا مهمتهم على نحو نموذجي.

* * *

وقد سجل الإمام بما شرعه هنا سبقاً عظيماً على إنسان اليوم، وذلك لأن استقلال مركز القضاء وعدم تأثره بأي سلطة أخرى، وتأمين الناحية الاقتصادية للقاضي، ونظام التفتيش القضائي، جهات تنبه لها الإمام وجعلها واقعاً يختلف في حياة المجتمع آثاره الخيرة، في عصر كانت سلطة القضاء أداة يديرها الحاكموн والمتسطلون كما يحبون.

* * *

ولا شيء أدعى إلى ثقة الناس بالقضاء من نفوذ حكم القاضي على جميع الناس، حتى على من تربطهم بالحاكم الاعلى قرابة قريبة أو صداقة حميمة، فإن

ذلك خلائق بأن يطمئن الرجل العادي، ويدخل في روعه انه حينما يدخل مجلس القضاء لا يواجه بنظره احتقار. وان الحكم الاعلى لأحرى الناس بالمحافظة على ذلك والحرص عليه، فإذا ما اعتدى بعض خواصته على بعض الناس وجب عليه أن يرده إلى الحق حين يروع عنه، ويرده إلى الجادة حين يؤثر العصيان.

قال عليه السلام:

(وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابرا محتسبا، واقعا ذلك من قرابتكم وخاصستكم حيث وقع، وابتغ عاقبة ذلك بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة).

* * *

راجع عهد الأشتر: وراجع كلاما له (ع) في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك باهل رقم النص: ١٦ - وبعض خطبة له في صفات الفساق: رقم النص: ٨٣.

(٦)
الولاة

إنهم رجال الإدارة، وأيديي الحاكم التي تمتد في أطراف بلاده، والأدلة التي يستعين بها على تنفيذ أمره، وامضاء ما يريد امضاءه من الشؤون. وهم المرأة التي ينظر بها الرعية إليه، وأعمالهم تنسب إليه وتحمل عليه، ويناله خيرها وشرها.

والوَجْدَانُ الطَّبَقِيُّ لِهَذِهِ الطَّبَقَةِ يَنْزَعُ بِهَا نَحْوَ التَّسْلِطِ النَّاشِيِّ مِنْ تَصْوِرَاتِ الْقُوَّةِ وَالْهَمِيَّةِ وَالنَّفْوَذِ، وَيَصْبِحُ هَذَا الْوَجْدَانُ حَطْرًا وَبِيَلاً إِذَا عَبَرَ عَنْ نَفْسِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَجَرِيَ فِي غَيْرِ أَقْنِيَتِهِ.

لهذا وذاك: لمكان الخطر فيهم، ومبلغ الفائدة منهم، احتاط لهم الإمام واحتاط منهم، فوضع الشروط التي ينتخبون على أساسها، والطريقة التي يعاملون بها، و(الكواكب) التي تزعهم عن أن يسيئوا سلطانهم وأن يخرجوا به عمما أنشئ لأجله من منفعة الرعية إلى استغلاله في سبيل المنافع الخاصة، والمصالح الشخصية.

لا يدخل في هذه الطبقة كل من شاء له الحاكم أن يدخل، وإنما يدخل فيها من خبر المجتمع عن كثب، فعرف حاجاته، وتبيّن نعائصه، فإنسان

كهذا إذا ولـي عملاً مضـى فيه على بصـيرـة، فلا يـرـتـجـلـ الخطـطـ اـرـتـجـالـا دونـ أنـ يـعـيـ حاجـاتـ المـجـتمـعـ، ويـلـبـيـ فيـ خـطـطـهـ وـمـنـاهـجـهـ هـذـهـ الـحـاجـاتـ.

وـإـلـىـ جـانـبـ التـجـربـةـ وـالـخـبـرـةـ الـعـمـلـيـةـ يـجـبـ أـنـ يـتـوفـرـ لـهـ مـسـتـوىـ عـالـ منـ الـأـخـلـاقـ، فـهـوـ كـمـاـ قـلـناـ، الـمـرـآـةـ الـتـيـ يـنـظـرـ بـهـاـ الشـعـبـ إـلـىـ الـحـاكـمـ، وـلـذـلـكـ فـيـنـبـغـيـ

أـنـ يـكـونـ عـلـىـ خـلـقـ رـفـيـعـ يـمـسـكـهـ عـنـ الشـطـطـ وـمـجـانـبـةـ الـعـدـلـ، وـيـسـتـقـيمـ بـهـ عـلـىـ

الـجـادـةـ، وـيـؤـمـ بـهـ قـصـدـ السـبـيلـ. فـالـحـيـاءـ خـلـقـ يـجـبـ أـنـ يـتـوفـرـ فـيـهـ، وـالـحـيـاءـ هـنـاـ

لـيـسـ عـلـىـ معـنـاهـ الـمـبـتـلـ، وـإـنـمـاـ هـوـ الـحـيـاءـ مـنـ النـفـسـ.. مـنـ تـلـويـثـهـاـ بـالـظـلـمـ

وـالـعـدـوـانـ وـالـتـهـاـوـنـ فـيـ الـقـيـامـ بـالـوـاجـبـ، وـهـذـاـ الـخـلـقـ يـدـفـعـ بـصـاحـبـهـ دـائـماـ إـلـىـ

الـتـعـالـيـ وـالـتـسـامـيـ.

وـيـجـبـ أـنـ تـتـوـفـرـ فـيـهـ صـفـةـ الـقـنـاعـةـ، بـاـنـ لـاـ يـلـوـثـ نـفـسـهـ بـرـذـيـلـةـ الـطـمـعـ الـتـيـ توـشـكـ

أـنـ تـنـقـلـبـ إـلـىـ حـقـيقـةـ خـارـجـيـةـ حـينـ تـحدـ لـهـ مـحـلـاـ فـيـ نـفـسـ الـإـنـسـانـ، وـصـدـىـ

فـيـ تـصـورـاتـهـ.

وـإـلـىـ جـانـبـ هـذـهـ الـمـيـزـاتـ يـجـبـ أـنـ يـجـمـعـ بـعـدـ النـظـرـ، وـأـصـالـةـ الـفـكـرـ،

وـجـوـدـةـ الـفـهـمـ، فـهـذـهـ الـصـفـاتـ ضـرـورـيـةـ لـمـنـ أـنـيـطـ بـهـ أـمـرـ جـمـاعـةـ مـنـ النـاسـ وـاعـتـبـرـ

مـسـؤـولـاـ عـنـ أـمـنـهـمـ وـنـشـاطـهـمـ الـاجـتمـاعـيـ.

وـلـمـ يـكـنـ فـيـ زـمـنـ الـإـمامـ عـلـيـهـ السـلـامـ مـدارـسـ تـعـدـ الـمـوـظـفـينـ الإـدـارـيـينـ،

وـتـلـقـنـهـمـ الـثـقـافـةـ الإـدـارـيـةـ، لـذـلـكـ أـرـشـدـ الـإـمـامـ الـحـاكـمـ إـلـىـ اـخـتـيـارـ هـؤـلـاءـ مـنـ بـيـنـ

أـبـنـاءـ الـأـسـرـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ التـقـالـيدـ، الـآـخـذـةـ أـبـنـائـهـ بـطـرـازـ عـالـ مـنـ التـرـيـةـ،

الـعـاملـةـ عـلـىـ تـنـشـيـتـهـمـ تـنـشـيـةـ نـمـوذـجـيـةـ.

قالـ عـلـيـهـ السـلـامـ:

(..) وـتـوـخـ مـنـهـمـ أـهـلـ التـجـربـةـ وـالـحـيـاءـ مـنـ أـهـلـ

الـبـيـوتـ الصـالـحةـ، وـالـقـدـمـ فـيـ الـإـسـلـامـ الـمـتـقـدـمـةـ، فـإـنـهـمـ

أـكـرمـ أـخـلـاقـاـ، وـأـصـحـ أـعـرـاضـاـ، وـأـقـلـ فـيـ الـمـطـامـعـ

إسرافا، وأبلغ في عواقب الأمور نظرا).

عهد الأشترا

* * *

ويخضع هؤلاء الولاة في لا ي لهم للاختبار، فحين يتقيهم الحاكم ممن توفرت فيهم الشروط السابقة يجب عليه أن يوليهم اختبارا، فيرى، وقد عرف نظريا مدى كفاءاتهم، إلى كفاءاتهم في المجال العملي، فإذا أثبتوا انهم أكفاء حقا، وانهم يعون مسؤوليات عملهم وأالياته ثبتوا وإلا عزلوا، واستبدل بهم غيرهم.

لهذا المبدأ، مبدأ الاختبار، يجب أن يخضع اختيار الولاة، أما أن يوليهم الأعمال تحببا إليهم، ودون أن يستشير في أمرهم، ودون أن يعرف مدى كفاءاتهم، فذلك جور عن الحق، وانحراف عن الجادة، وخيانة للأمة في مصالحها، فان مصالح الأمة أمانة في يد الحاكم يجب أن يسلّمها إلى أكفاء ولاته.

ومن هنا نعلم أن القوانين الحديثة التي تنص على وجوب خضوع الموظف الإداري الحديث العهد بالوظيفة لفترة اختبار تطول وتقصر، لم تأت بجديد، فقد أدرك الإمام قبلها بقرون وقرون هذه الحقيقة وسجلها في قانونه العظيم. قال عليه السلام:

(ثم انظر في أمور عمالك فولهم اختبارا، ولا
تولهم محاباة وأثره، فإنهما جماع من شعب الجو والخيانة).

عهد الأشترا

* * * وليس يكفي في حسن الظن بهم والركون إليهم مراعاة الدقة في انتخابهم،

فإن الوجدان الطبيعي لهؤلاء ينزع بهم نحو التسلط وإظهار القوة، وحين يحرى هذا الوجدان في غير أقنيته يصير خطرا على الرعية، لأنه يدفع صاحبه حينئذ إلى الانحراف والزيف.

لأجل هذا يقرر الإمام أن على الحاكم ألا يغفل عن تعقب هذه الطبقة ومرافقها، فيلزمها بانتخاب رقباء من أهل الدين والمعرفة والأمانة يبيثهم في أطراف البلاد، ويجعلهم عيونا له على عماله، يراقبونهم في أعمالهم، ويرصدون مبلغ ما يتمتع به هؤلاء الولاة من خبرة في الإدارة، وقدرة على التنظيم، ومعرفة بوجهه الاصلاح، ثم يرتفعون ذلك كله إلى الحاكم فينكل بالمنحرف الذي خان أمانته، ويستأديه ما حاز لنفسه من أموال المسلمين، ويجعله عبرة لغيره. ويشجع الصالح في نفسه، الصالح في عمله. ويرشد المخطئ إلى وجه الصواب. إن هذا التدبير يمسك الوالي عن الإسراف، ويحمله على العدل في الرعية، لأنه حين يعلم أن ثمة عينا ترقب أفعاله يحذر من الخروج عن الجادة، ويحرص على اتباع ما يصلح بلاده. وهذا التدبير الذي نهجه الإمام هو نظام التفتيش المعمول به الآن في الدول المعاصرة.

قال عليه السلام:

(.. ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والأمانة عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة، ولرفق بالرعية.

وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم يسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك، اكتفيت بذلك شاهدا. فبسطت عليه العقوبة في بدنك، وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة).

عهد الأشتراط

ولقد كان الإمام (عليه السلام) يحرص أشد الحرص على اتباع هذا الأسلوب مع ولاته، ففي نهج البلاغة طائفة كبيرة من كتبه إلى عماله تدور كلها حول هذا المعنى، فيها تنديد بخيانة، وعزل عن ولادة، وزجر عن ظلم الرعية، وفيها توجيه وإرشاد ونصيحة.

قال عليه السلام:

(.. وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك
أمانة، وأنت مسترعي لمن فوقك، ليس لك أن
تفتات في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يديك
مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزانه حتى
تسلمه إلي) (١)

وقال:

(. إن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة
واحتقارا وجفوة. ونظرت فلم أرهم أهلا لأن يدنوا
لشركهم، ولا أن يقصوا ويحفوا لعهدهم، فالبس لهم
جلبابا من اللين تشوبه بطرف من الشدة، وداول لهم
بين القسوة والرأفة) (٢).

وقال:

(بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسرخطت ربك
وعصيت أمامك، وأنحررت أمانتك. بلغني أنك
جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت

١ - نهج البلاغة (من كتاب له إلى الأشعث بن قيس عامله على آذريجان رقم النص: ٥ في المختار من كتب أمير المؤمنين،

٢ - نهج البلاغة - المختار من الكتب - رقم النص: ١٩

ما تحت يديك، فارفع إلى حسابك) (٣).
وقال:

(بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسرختت إلهك،
وأغضبت إمامك: إنك تقسم في المسلمين الذي حازته
رماهم وخيولهم، وأريقت عليهم دمائهم، فيمن
اعتماك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة وبرا
النسمة لئن كان ذلك حقاً لتجدن بك علي هوانا،
ولتخفن عندي ميزانا) (٢).

وقد كانت شرور هذه الطبقة هي التي سببت الثورة على عثمان، فقد ولى
على البلاد الاحداث من ذوي قرابته، ومن لا خبرة لهم في الحكم، ولا عاصم
لهم من دين، ولا ورع لهم عن المحارم، فظلموا الرعية، وامتصوا دمائها،
وكانت عاقبة ذلك وبالا.

وعلى النقيض من هذا كانت سياسة الامام مع ولاته، فهو ينتخبهم انتخاباً،
ثم يوليهم اختباراً، ثم يراقبهم ويحملهم على الاصلاح ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

والعامل الاقتصادي أداة يستخدمها الامام هنا - كما في كل موطن - لأجل
ضمان استقامة الولاية على ما سنه لهم من شرائع العدل. ولذلك لم يغفل الإمام عليه
السلام

ما للعامل الاقتصادي من عظيم الأثر في إصلاح هذه الطبقة
وإفسادها، فقد تدفع الحاجة أحدهم إلى الخيانة والظلم، وهم - كما عبر عنهم
الامام في بعض كتبه - (خزان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة) (٣).

٣ - نهج البلاغة المختار من الكتب - رقم النص: ٤٠.

٢ - نهج البلاغة المختار من الكتب - رقم النص: ٤٣.

٣ - نهج البلاغة المختار من الكتب - رقم النص: ٥١.

فلو ضيق عليهم الحاكم في الرزق، ولم يرفة عليهم في النعمة، كان حرمانهم مداعاة إلى أن تطمح أعينهم إلى ما ائتمناه عليه من مال، وذلك داعية إلى الرغبة في الخيانة، واحتلاس شيء من أموال الأمة.

لهذا أشار الإمام على حاكم مصر بأن يوسع على الولاة في الرزق، لئلا يتخدوا الحاجة مبرراً للخيانة.

قال عليه السلام:

(ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجّة عليهم أن خالفوك، وتلّمـوا أمانتك).

عهد الأشتر

* * *

راجع في باب الكتب عهد الأشتر: وكتابا منه إلى الأشعث ابن قيس عامل آذربايجان: رقم: ٥. وكتابا منه إلى عبد الله بن عباس عامل البصرة: رقم: ١٨. وكتابا منه إلى بعض عماله: رقم: ١٩. وكتابين منه إلى زياد بن أبيه رقم: ٢٠ و ٢١. وكتابين منه إلى بعض عماله: رقم: ٤٠ و ٤١. وكتابا منه إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني عامل أردشير خرة رقم: ٤٣. وكتابا منه إلى عثمان بن حنيف الأنباري عامل البصرة رقم: ٤٥. وكتابا منه إلى عماله على الخراج رقم: ٥١. وكتابا منه إلى الأسود بن قحطبة صاحب جند حلوان رقم: ٥٩. وكتابا منه إلى كميل بن زياد عامل هيت رقم: ٦١. وكتابا منه إلى قثم بن العباس عامل مكة رقم: ٦٧. وكتابا منه إلى المنذر بن الجارود العبدي رقم: ٧١.

(٧)
الكتاب

الكتاب وأعوانهم هم الهيئة الوزارية، ووكلاً لها، ومديروها. وإلى هذه الطائفة يرجع أمر الدولة كله: سلمها، وحربها، واقتصادها، وكل ما يلم بها من خير أو شر. فهي الجهاز الاعلى الذي ينظم نشاط الدولة، ويشرف على توجيهه. وعلى قدر ما تكون عليه هذه الطائفة من الصلاح والاستقامة، تصلح الدولة، وتستقيم ويعظم شأنها.

وقد نص الإمام (عليه السلام) في عهده على من يصلح أن يلحق بهذه الطائفة ومن لا يصلح لذلك، وأفاض في ذكر الصفات التي يجب أن تتوفر في الوزير، وبين الأسلوب الذي يحسن بالحاكم أن يتبعه في الاخذ منه والسماع عنه.

* * *

من جملة ما قدمناه بين يدي هذا البحث ملاحظة ذكرنا فيها أن الإمام كتب هذا العهد وهو يطمح إلى إنشاء جهاز جديد للحكم في مصر، جهاز واع لمسؤولياته، تقدمي في برامجه ومشروعاته، ليستجيب للحاجات التي يفتقر إليها المجتمع. وقد رأينا في البحوث المتقدمة محافظاً على هذه السمة في عهده، فهو دائماً يؤكّد أن جهاز الحكم يجب أن يكون سليماً، واعياً، تقدّمية، عملاً لمصلحة المجتمع.

وها هو، بالنسبة إلى طائفة الوزراء ومن يتعلق بهم، ينص على هذا المعنى وبيّن كده تأكيداً وافياً.

فلا يجوز أن يدخل في هذه الطبقة رجال كانوا وزراء للظلمة والأشرار. وذلك لأن تأليف هذه الطبقة من هؤلاء يستتبع عواقب وخيمة تعود بالضرر على الدولة.

فهم، وقد استمرعوا فعل الظلم وتعودوا على مقارفته لا يغفون عن العودة إليه والارتکاس فيه. وإذا كانوا ذوي أنفس شريرة مست أعمالهم المجتمع كله نظراً إلى سعة سلطانهم، وعظيم قدرتهم، لأن ملوك القوى كلها مجتمع عندهم. وضرر آخر ينجم عن دخولهم في هذه الطبقة، فالشعب الذي عرفهم بالجور، وذاق منهم مر الظلم تذهب ثقته بالحكم المهيمن عليه حين يراهم قد عادوا إلى مراكزهم، ويعتبره حكماً أقيم لمصلحة طبقة خاصة، ومتى ذهب ايمان الشعب بحاكمية أهلمن من حقوق الحاكمين عليه ما يجب أن يؤديه، لاعتقاده أنه حين يليبيهم فيما يطلبون لا يقوم بعمل يعود بالنفع عليه.

وقد أصبح من المعطيات البديهية في علم الاجتماع أن ما يثير الشعوب ليس الظلم نفسه وإنما الشعور بالظلم، وسيطرة أشخاص مثل هؤلاء على دفة الحكم يوقف في

الشعب تصورات الظلم الذي ذاقه على أيديهم في عهودهم السابقة، وهذا كاف لأن يولد في نفسه الشعور بالظلم وإن لم يكونوا ظالمين. وهكذا تحدث بين الحاكم والمحكوم هوة تبعد أحدهما عن الآخر، وتسلب ثقة كل منهما بالآخر، وفي بعض ذلك ما يجر الدولة إلى مصير وبيـلـ.

قال عليه السلام:

(إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكون لك بطانة، فإنهم أعون الأئمة، وأخوان الظلمة).

عهد الأشتـرـ

ولا يجوز أن ينما اختيار أفراد هذه الطبقة بالفراسة وحسن الظن، فان الرجال يتصنون الصلاح، ويظاهرون بالمقدرة والأمانة، ليظفروا بمثل هذا المنصب، فيخدعون الفراسة، وينزعون حسن الظن بتصنفهم، دون أن يكونوا على شيء من الصلاح والكفاءة.

إن اختيار أفراد هذه الطبقة يجب أن تلاحظ فيه اعتبارات متعددة. يجب أن يكونوا على معرفة تامة بمحيطهم وبحاجاته، ليصدروا في إدارته عن وعي. ويجب أن يكونوا إلى جانب المعرفة أكفاء، ذوي مقدرة على تصريف ما أنيط بهم من أمور.

ويجب أن يكونوا - إلى جانب هذا وذاك - من يفهم الشعب بالحب له، والحدب عليه، ورعاية مصالحه وتيسير حاجاته، والسهر على رفاهيته وسعادته، فان هذه الطبقة حين تتألف من مثل هؤلاء يطمئن الشعب إلى الحكم، ويستريح إلى أعمال الحاكم.

ويعرف ذلك كله بالنظر إلى سابق ما ولوه من أعمال الصالحين من الحكم، هل أحسنوا إدارته؟ وهل برهنوا فيه على دراية بأساليب الاصلاح؟ وهل كانت للشعب فيهم ثقة؟ فإذا اجتمعت فيهم هذه الصفات: من قدرتهم وكفائتهم إلى معرفتهم بمحيطهم، إلى حب الشعب لهم، وإيمانه بهم، حق لهم ان يدخلوا في هذه الطائفة، وحق على الحاكم ان يؤلفها منهم.

قال عليه السلام:

(.. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك، وحسن الظن منك، فان الرجال

يتعرفون لفراسات الولاية بتصنفهم، وحسن خدمتهم
وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن
اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك: فاعمد لأحسنهم
كان في العامة أثرا، وأعرفهم بالأمانة وجهها، فإن
ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره).

عهد الأشتر

* * *

لقد نظر ان الإمام فرأى أن طائفة الوزراء هي أعظم أجهزة الدولة أهمية،
لان جميع الشؤون تناط بها، وترجع إليها، وتتصدر عنها، في السياسة والإدارة
والحرب.

ولا يصح ان تناط هذه المهام بشخص واحد أو بمجموعة من الاشخاص،
فان الإحاطة بدقائق كل هذه المهام ومعرفة أسرارها لا تتاح في العادة
للشخص الواحد، ولو أتيحت لواحد فأنيط به أمرها لما أحسن التصرف،
ولوقع في الخطأ وسوء التدبير، لأن اضطلاعه بها يرهقه ويبيهظه، فاما أن
يصرفها كلها فيقع في الخطأ، وينأى عنه بعد النظر، وأصالة الرأي، وسلامة
التدبير. وإما أن يهمل بعضها ويصرف بعضها الآخر فيقع الاضطراب في أعمال
الدولة بسبب إهماله.

وان أنيطت المهام بجماعة من الناس دون تحديد المهمة الملقة على عاتق كل
منهم وقعت البلبلة وشاع الاهمال، فينقض أحدهم ما أبرمه الآخر، ويصرف
أحدhem ما أمسكه صاحبه، ويمضي اثنان أمررين متضادين، ويهمل كل واحد
منهم بعض المهامات اتكالا على رفاته.

فأحسن الوسائل لضمان سير أعمال الدولة على مستوى عال من حسن التدبير،
وإصابة الهدف هو ما قرره الإمام عليه السلام، وهو أن ينط بالكل واحد من

هؤلاء الوزراء بعض مهامات الدولة، ويراعى في إلتحق من اختيار للوزارة لعمل من الأعمال أن يكون ذا اختصاص بذلك العمل وذا خبرة بدقائقه واسراره ليؤدي ما استعصى منه على خير وجه.

وبهذا يكون الإمام قد قرر مبدأ الاختصاص وتوزيع الأعمال في الإدارة الحكومية: ويكون بذلك قد تجاوز مفاهيم عصره الذي لم يكن يعرف هذا المبدأ العظيم الأهمية في مهمة الحكم والإدارة.

قال عليه السلام:

(واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم، لا يقهره كبیرها ولا يتشتت عليه كثیرها. ومهما كان في كتابك من عيب فتغایب عنه ألزمته).
عهد الأشتر

وفي هذه الفقرة الأخيرة (ومهما يكن...) قرر الإمام أن الحاكم مسؤول عما يكون في وزرائه من العيوب، وذلك لأنه - وقد اختار - يجب أن يتحمل مسؤولية اختياره.

* * *

وعلى رأس هؤلاء جمیعا رئيسهم، وهو من يقال له (كاتب الكتاب). ومهمة هذا الوزير هي الإشراف على من دونه من الوزراء، ومراقبة أعمالهم.

ومهمته أيضا هي تولي السياسة العليا للدولة مع الحاكم، فهو عضد الحاكم في رسم الخطط السياسية، وإعلان الحرب، وعقد معاهدات الصلح، والتعرف على نيات من يخاف منهم على أمن الدولة وكيانها، فهو مع الحاكم الأعلى، العقلان اللذان يديران عميلة الحكم كلها.

هذا الوزير يشترط فيه الإمام شروطا لا يصلح بدونها:

فيجب أن يتمتع عن بقية الوزراء بأن يكون خيرهم، وذلك بأن يكون أكثر منهم إلماً بشؤون الدولة وإمكاناتها، ليتسنى له أن يوجه كلاماً منهم إذا انحرف، ويفهم عنه إذا قال.

ويجب أن يكون عارفاً بمركزه وأنه لا يخرج عن كونه وزيراً يستمد الصلاحية ممن استوزره، فلا تبطره الكراهة التي حصل عليها، فتدفعه إلى إشاعة خلافه مع الحاكم بين الناس، لأن ذلك يشعر الناس بأن في جهاز الحكم خللاً، وربما سبب شيوخ ذلك تحفز المشاغب إلى إظهار شعبيه اغتناماً لفرصة الانشقاق.

ان الامام: لا يطلب من الوزير ان يسلم بوجهة نظر الحاكم في كل ما يقول، لأنه حينئذ يكون بباء لا وزيراً، ان عليه ان يجاهر برأيه حين يرى الحق في جانبه، ولكن ذلك يجب أن يبقى سراً بينه وبين الحاكم، ولا يجوز ان يذاع في الناس.

ويجب أن يكون على وعي بحقيقة السياسة التي تسير عليها الدولة فيتبع في أوامره التي يصدرها إلى الولاية وفي مباحثاته السياسية هدى سياسة الدولة، ولا يغفل عنها فيلزم نفسه بما يتنافى وسياسة دولته التي يمثلها.

ويجب أن يكون عارفاً بأحابيل السياسة وألاعيبها، فيحافظ على التزامات الدولة السياسية التي تعود عليها بالنفع والقوة، ويعرف وجه الحيلة في اخراج الدولة من المآذق السياسية التي يكيد لها بها أعداؤها.

ويجب أن يكون، إلى جانب هذه جميراً، أجمع وزرائه لوجوه صالح الأخلاق، لأن المهام التي تناط به تتطلب قوة في الدين تمسكه على الجادة، وشعوراً بالمسؤولية يحمله على الاخلاص والاتقان، وعفة تعصمه من الاغراء. قال عليه السلام:

(ثم انظر في حال كتابك، فول على أمورك خيرهم،
واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك

بأجمعهم لوجه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة
فيجترئ بها عليك في حضرة ملا، ولا تقصر به الغفلة
عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، واصدار جواباتها
على الصواب عنك، فيما يأخذ لك ويعطي عنك، ولا
يضعف عقلا اعتقده لك، ولا يعجز عن اطلاق ما عقد
عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فان
الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل)
عهد الأشترا

وفي هذه الفقرة الأخيرة: (ولا يجهل..) يشترط الامام في الوزير أن يكون واقعيا، ينظر إلى الأمور نظرة جدية، ويعرف واقعة تمام المعرفة، فإذا كان مركزه ضعيفا احتاط لنفسه بما يحتاط به الضعيف، ولا يهمل الاحتياط غرورا منه واستعلاء، وإذا كان قوي المركز وجب عليه أن يمثل دور القوي ولا يهين امام خصوصه فيعطيهم من نفسه ما لو شاء لمنعه، ثم لا يلحقه من وراء ذلك شيء.

* * *

قلنا إن الوزير الذي يصوب كل ما يقوله الحاكم حتى إذا كان مخططا فيه ليس وزيرا وإنما هو ببغاء تقمصت اهاب وزير. وظيفة الوزير هي أن يتعاون مع الحاكم الاعلى على إدارة جهاز الحكم إدارة صحيحة، وعليه إذا أخطأ الحاكم في الرأي ان يرده إلى الصواب.

وعليها أن يتعاونا على معرفة أصلح الوجوه فيما يأخذان ويدعان من الأمور لذلك يجب أن يعطى الوزير حرية الرأي بحيث لا يقيده في هذا المجال شيء لأنه بقدر ما يكون متمنعا بالحرية يكون عظيم الفائدة.

ويجب أن ينال الوزير من الحضبة بمقدار ما يكون صريحا في رأيه، معالنا

الحاكم بالحق رادا له إلى الصواب، فكلما ازداد قوله بالحق وايشارا للصدق ازداد كرامة ورفعة. وأما حين يتبيّن الوزير في الحاكم أنه لا يطلب النصح وإنما يطلب الموافقة على رأيه فقط فإنه ينقلب إلى ببغاء، وحينئذ يسير الحاكم بالدولة معصوب العينين لأن أحدا لا يحرؤ أن يقول في وجهه كلمة الحق.

قال عليه السلام:

(ول يكن آثراً لهم عندك أقول لهم بمر الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع. ثم رضهم (١) على ألا يطروك، ولا يجحوك (٢) بباطل لم تفعله، فإن كثرة الاطراء تحدث الزهو (٣) وتدني (٤) من العزة).

عهد الأشتر

١ - عودهم على ألا يمدحوك

٢ - بحث: فرح. عودهم على ألا يتقرّبوا إليك بنسبة إعمال إليك، ولم تكن قد فعلتها

٣ - الزهو: الاعجاب بالنفس

٤ - تدني: تقرب

(٨)

الزراع

هذه الطبقة من أعظم الطبقات الاجتماعية، وأبلغها أثرا في حياة المجتمع ففي زمان الإمام عليه السلام كانت هذه الطبقة أضخم الطبقات الاجتماعية، وكانت مركز الكثافة في المجتمع، كما أن مركز الكثافة فيه هي طبقة العمال في العصر الحديث.

وكان المجتمعات القديمة مجتمعات زراعية في الدرجة الأولى، فكان كيان الأمة الاقتصادي يقوم على الأرض ومنتجاتها، لأن الصناعة لم تكن إذ ذاك على حال تسمح بان يقوم عليها الصرح الاقتصادي للأمة، لضعفها وضيق نطاقها.

ولم تكن التجارة وحدها كذلك لتسمح بإقامة هذا الصرح في كثير من البلدان، لعدم انتظام التجارة العالمية إذ ذاك، ولضعف المواصلات، ولعدم وجود طرق تجارية كافية ومأمونة في جميع الأوقات.

وإذن فقد كان الكيان الاقتصادي يقوم في الدرجة الأولى على الأرض ومنتجاتها، والرفاهية الاقتصادية منوطه بأن تتاح للأرض أفضل الفرص التي تمكّنها من أن تعطي عطاء كثيرا، ومنوطه بان تتاح (؟) للزارع أفضل الوسائل التي تعينه على صيانة أرضه، وخدمتها، والحصول منها على نتاج وفير.

وقد برهن الإمام عليه السلام في عهده إلى الأشتر أنه على وعي تام لمدى

أهمية هذه الطبقة في الكيان الاجتماعي، ثم للعمليات التي يعتبر نشاط هذه الطبقة ضرورياً لاستمرارها.

* * *

يقرر الإمام عليه السلام أن النشاط الاقتصادي كله يتوقف على ما يدفعه أهل الخراج من الأموال.

فسكان المدن على أقسام: الجنود المقاتلة، وأصحاب الحرف والصناعة، وأصحاب التجارات، والذين لا يستطيعون عملاً يرتفعون منه، أو لديهم أعمال لا يكفيهم ريعها.

ويوزع قسم كبير من أموال الخراج على الجنود، وعلى الفقراء، وعلى من لا يكفيه عمله من ذوي الأعمال.

وبهذه القوة الشرائية التي يحدثها هذا المال تستمر الحركة الاقتصادية، فتنشط حركة التجارة والصناعة، لأن في أهل المدن حاجة إلى الطعام، والكساء، والآنية والوقود وغيرها، يحصلون عليها من التجار والصناع والعمال، وبهؤلاء حاجة إلى الزراع فيشترون منهم المواد الحيوانية والنباتية وغيرها، لأجل أن يلبوا حاجات المدن المتتجدة، وبالزراعة حاجة إلى الكساء والآنية والسلاح وما إليها: فيحصلون بهذا المال الذي يصير إليهم على ما يريدون.

هكذا يتوقف ازدهار النشاط الاقتصادي على طبقة الزراع، وادن فاضطراب أمور هذه الطبقة لن يعود بالضرر عليها وحدها وإنما يمتد بآثاره الضارة إلى المجتمع كله، فيشل نشاطه، ويؤدي به إلى أزمات اقتصادية حادة ينجم منها التفسخ الاجتماعي.

قال عليه السلام:

(وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه

وصلاحهم صلحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا
بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله).

عهد الأشترا

وتعتمد هذه الطبقة اعتمادا مطلقا على الأرض، وعلى العناصر الطبيعية،
وعلى سواعدها.

فيجب أن تchan الأرض لتبقى في حالة جيدة، ولتستفيد من العناصر
الطبيعية إلى أقصى مقدار ممكن، فيجب أن تشق الترعة، وتبني القنطر
والسدود، وتحفر الآبار، لتتوفر للأرض حاجاتها من المياه وينتظم الري،
ويجب شق الطرق الزراعية التي تمكن هذه الطبقة من الاتصال ببعضها، وتسهل
قضاء المهام الزراعية والاستعانة بالعمال الزراعيين.

وصيانة الأرض ليست أمرا يعود بالنفع على هذه الطبقة وحدها، وإنما يعود
بالنفع على الدولة كلها، فقد رأينا ما لنشاط طبقة الفلاحين من تغلغل حيوي في
العمليات الاجتماعية، فصيانة الأرض والحال هذه من المصالح العامة، فيجب
الانفاق عليها من الأموال العامة.

فأما حين تهتم الحكومة بالجباية فقط وتهمل أمر الاصلاح والعمارة، حين
تتجه هذا المتوجه بصير بها الأمر إلى أن تخرب البلاد وتهلك العباد، ثم لا تجد
موردا تجبي منه المال، لعدم وجود انتاج وغير لان الخراج كثرة وقلة متصل
بحالة الأرض، فعلى مقدار ما تأخذ (؟) الأرض تعطي، وعلى مقدار ما تعطي تكون
قدرة أهلها على إجابة الحاكم إلى أداء ما يفرضه عليهم من خراج.
قال عليه السلام:

(.). وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فان في صلاحه
وصلاحهم صلحا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا

بهم: لأن الناس كلهم عيال الخراج وأهله.. ول يكن
نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب
الخرجاج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب
الخرجاج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم
أمره إلا قليلا).
عهد الأشترا

* * *

وطبقة الفلاحين أكثر الطبقات كدحا، وأشقيها عملا. فعند من عداهم من
الطبقات والطوائف وقت مخصوص من اليوم للعمل، وأوقات أخرى للراحة
والتسليمة، بخلاف الفلاحين فإن عملهم يمتد طول اليوم، وعلى مدار العام. وهذا
العمل أما في مركز الانتاج وهو الحقل، وأما في بيوتهم باعداد البذار والآلات
وما إليها. وحتى في الأوقات التي ينقطعون فيها عن العمل هنا وهناك لا
ينقطعون عنه في أحاديثهم وتصوراتهم.

وطبيعة عملهم تفرض عليهم هذا اللون من الحياة، وهذا المقدار من الجهد
غيرهم من الناس يستطيع أن يتحكم بعمله فيختار الوقت الملائم لأدائه ثم
ينقطع عنه، أما الفلاح فعمله ينحصر في مساعدة العناصر الطبيعية على
أن تؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل، فهو أسير لهذه العناصر، وعليه أن
يكون يقظا دائما ليعمل ما يجب عمله، ولما كان عمله متصلا بهذه العناصر فإن
أي تقصير منه يعود عليه بضرر كبير، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في الظواهر
الطبيعية ويُسخرها حسب هواه.

هذا العمل المرهق يحب أن يقابلة مستوى من المعيشة، ومقدار من الدخل
يشعر أن هذه الطبقة بأنها حين تعمل لا تستغل لصالح الآخرين وإنما تعمل
لنفسها في الدرجة الأولى.

ويجب أن يشعر الفلاح بأنه سيد أرضه وأن لا أحد يمكن أن ينمازه في هذه السيادة.

وحيث كان من اللازم مراعاة حال الفلاح وتمكينه من أن يحيا على مستوى لا يشعر معه بالاضطهاد والاستغلال.

وحيث كان من اللازم إشعاره بأنه سيد أرضه.

لهذا وذلك يجب أن يكون مسموع الكلمة فيما يتصل بأرضه وبقدرتها على الانتاج، فإذا اشتكتى ثقل الخراج لعدم تناسبه مع انتاج الأرض، أو شكتى آفة الالمت بالأرض فأثرت على انتاجها، أو ذهبت به فلذلك لا يستطيع دفع ما فرض عليه من المال، إذا شكتى شيئاً من هذا كان من اللازم ان يسمع كلامه فيوضع عنه من المال مقدار ما يصلحه.

وقد يذهب الظن بالبعض إلى أن هذه المعاملة تؤثر على مالية الدولة وتضعفها ولكن هذا الظن بعيد عن الصواب، لأن هذه الوضيعة التي يحصل عليها الفلاح تعود على الدولة نفسها بفوائد عظيمة تزيد في ازدهارها ورفاهيتها. وذلك لأن هذا المال يصرف في إصلاح الأرض وعماراتها، ويصرف في سد حاجات الفلاح نفسه من مسكنه وملبسه ومرافق حياته الأخرى، فيكون في ذلك تزيين للبلاد بما أتاح لها هذا المال من العمران ويكون في ذلك شعور هذه الطبقة بالطمأنينة والرضى مما يدفعها وهي أكثر طبقات المجتمع عدداً وأعظمها انتاجاً، إلى المحافظة على الحكم القائم، والدفاع عنه لأنه يحفظ لها مصالحها.

ولدينا شاهد من التاريخ على هذا، فقد كان نابليون الثالث (إمبراطور فرنسا) ممن حذبوا على هذه الطبقة ورعاها مصالحها، وحموها من عتاوة الظلمة، وأشعوا الفلاح الفرنسي انه سيد أرضه وان أمرها منوط به وحده، وقد كان موقفه هذا مما دفع بالفلاحين إلى أن يخصوه بتأييدهم دائماً لما لمسوه من رعايته لمصالحهم وفهمه لموقفهم.

وهذه النتيجة (عطفهم على الحكم القائم) مع عمران أرضهم يجعلهم على استعداد للمعونة حين تطلب منهم، لحسن ظنهم بالحكم القائم ورغبتهم في استمراره من جهة، ولأن حاليهم المالية تسمح لهم بالمساعدة لوفرة الانتاج. فهذا المال الذي وضع زاد في عمران البلاد، ومن ثم زاد في إيرادها، ومن ثم جعلها تحتمل من الضرائب فوق ما كانت تحتمل وهي أقل عمراناً، وحمل الفلاحين على حب الحكم القائم وبذل المعونة له حين يشكون العجز وتأييده حين يشكون الخذلان.

قال عليه السلام:

(فإن شكوا ثقلاً أو علة (١)، أو انقطاع شرب أو بالة (٢) أو إحالة أرض اغترتها غرق، أو أحجف بها عطش، (٣) خفت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم).

(ولا يثقلن عليك شيء خفت به المؤونة (٤) عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن شائهم، وتجحوك (٥) باستفاضة (٦) العدل فيهم، معتمداً فضل قوتهم بما

-
- ١ - ثقلاً - شكوا من ثقل الضريبة عليهم (علة) شكوا من مرض زراعي أتلف محاصيلهم
 - ٢ - الشرب بكسر السين: ماء الري في المناطق الزراعية التي تعتمد على الأنهر وما إليهم (بالة) بتشدد اللام وفتحها: ماء المطر في المناطق التي تعتمد في الري على الأمطار.
 - ٣ - إحالة أرض - فساد البندور فيها، (اغترتها غرق) غمرها الماء وظاف عليها فغرقت به (وأحجف بها عطش) لم تأخذ ما يلزمها من الماء للري - يعني أن الزراعة إذا شكوا من فساد موسمهم الزراعي بسبب طوفان الماء على الأرض المزروعة أو بسبب قلة الماء وعطش الأرض، فينبغي أن تأخذ شكاوهم بنظر الاعتبار.
 - ٤ - المؤونة: التفقة.
 - ٥ - تجحوك.. سرورك بمعاملتك العادلة لهم.
 - ٦ - الاستفاضة: الانتشار والشيوخ.

ذخرت عندهم من إجامامك (١) لهم، والثقة منهم بما
عودتهم من عدلك عليهم، ورفقك بهم، فربما حدث
من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه
طيبة (؟) أنفسهم به، فان العمران محتمل ما حملته).

عهد الأشتر
* * *

ولهذه الفقرات وجوه أخرى من الدلالة، عظيمة القيمة، باللغة الأهمية.
فمن الشروط الأساسية لنجاح العمل وازدهاره أن يقبل العامل عليه بهمة
ونشاط، وأن يشعر نحوه بالحب والرغبة. وأن يحس حين يزاوله أنه ينمي به
شخصيته الإنسانية، ويؤكّد قدرتها على الابداع - إذا كان هذا هو موقف
العامل النفسي من عمله ازدهر العمل وتقدم، ولا يمكن أن يقف العامل من عمله
هذا الموقف إلا إذا شعر بأن عمله له، وبأنه يعود عليه بالنفع والفائدة.
ومن هنا اعتبرت الملكية الخاصة من أعظم الأسباب الدافعة إلى ازدهار
العمل، لأن هذا اللون من الملكية يدفع العامل إلى بذل طاقته كلها مع شعوره
بالسرور لأنه يعمل لنفسه.

ويتغير هذا الموقف حين يكون العمل للغير ولا يرجع إلى العامل من ثمراته
شيء يذكر، فإنه حين ذاك يشعر بالكراهية نحو عمله، ويتهانون فيه ولا
يتحرى كماله واتقاده ويتحرى الفرض للتهرب منه، وهذا يضعف سير العمل،
ويهبط به، ويسري هذا الموقف النفسي إلى صاحب العمل نفسه فيتمنى العامل
هلاكه، ليتخلص منه.
هذه الملاحظات تفيدنا هنا.

١ - الاجمام: الترفيه والإراحة.

فحينما توضع على الفلاحين الضرائب الفادحة التي لا تناسب مع دخلهم، مع إهمال عمارة الأرض وصيانتها يشعر هؤلاء الفلاحون أنهم لا يعملون لأنفسهم، ولا يجرون من وراء كدحهم المرهق شيئاً ذا قيمة، وإنما يعملون لغيرهم، ويستغلون لهذا الغير استغلالاً بشعاً وذلك يخلق في نفوسهم كراهية عملهم والتذمر منه.

إن هذه المعاملة التي تحدث هذا الشعور وتدفع إلى هذا الموقف تخلف في المجتمع آثاراً ضارة قد تقوض المجتمع من أساسه.

هذه المعاملة تدفع بأضخم طبقة في الأمة إلى انحلال أخلاقي فظيع، وهذا الفلاح الذي يستغل الحاكم جهده دون أن يعوضه عليه شيئاً يريده أن يعيش، وهو يتوصل إلى غايته هذه بالكذب والغش والتهاون والسرقة فبدلاً من أن يعيش من أرضه بجهده يضطر إلى العيش من حيوب الآخرين بسلامه، وينقلب قاطع طريق، مجرماً، عدواً للمجتمع، بعد أن كان المفروض فيه أن يكون لبنة تزيد صرح المجتمع قوة ومناعة.

ومن جملة آثارها أن تنتقل الأيدي الفتية الشابة إلى بلاد أخرى هرباً من الظلم، وطليباً للقمة العيش. فمن لا يصبر على الظلم إما أن يتتحول إلى قاطع طريق وإما أن يهاجر، وهذا يسلب من البلاد زهرة شبابها، فإن الذين يهاجرون هم الأقوياء المغامرون، ذوي المستوى الأخلاقي العالي الذي يمنعهم من الجرم.

وإلام يؤدي هذا؟ انه يؤدي إلى هبوط الانتاج، فهذه الأيدي الفتية هي التي تدير عملية، وحين تقطع عن العمل فلا بد أن يصاب الانتاج بالشلل.

ومن جملة آثارها أن تنتقل رؤوس الأموال الكبيرة إلى خارج البلاد، فإن أصحاب الثروات يستغلون أموالهم عن طريق الزراعة في المجتمعات الزراعية، فيعمرون الأرض، ويحيون مواتها، ويصلحون نظام الري، ويوجدون عملاً لكثيرين ولكن غاية هؤلاء هي الربح، فإذا ما رأوا أن الضرائب والمظالم تذهب بثرواتهم

فظلا عن أرباحهم آثروا تجميد أموالهم أو نقلها إلى بلد آخر يأمنون فيه العدوان وينجم عن هذا تعطيل شبان كثريين يتوجهون إلى الهجرة أو إلى الاجرام، وتزيد البلاد خرابا، ويزيد الكيان الاقتصادي ضعفا.

ومن جملة آثارها ان تتحدد الأمة على بعض الحكم القائم، ثم لا تلبث أن تثور عليه وتجعله أثرا بعد عين.

هذه الكوارث الاجتماعية تنشأ من عدم التبصر في إمكانات الانتاج وحالة المنتجين. وقد وضع الإمام عليه السلام من المبادئ ما يعصم اتباعه من التردي، فيبين ان على

الحاكم قبل ان يفكر في وضع الضريبة ان يلاحظ حالة الأرض فيعمرها ويصلحها، وأن يراعي حالة العامل النفسية والمعيشية فيضمن له العيش في مستوى لائق لئلا يشعر بالاضطهاد، وعندما يفرغ من ذلك كله يحق له أن يضع الضريبة التي تتناسب مع مستوى الانتاج ومقدرة المنتجين.

قال عليه السلام:

(وإنما يؤتي خراب الأرض من إعواز (١) أهلها، وإنما يعوز أهلها للاشراف (٢) أنفس الولاية على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر).

عهد الأشترا

* * *

ولايكتفي هذا وحده في ازدهار هذه الطبقة وتقدمها، فقد يكون الحاكم محسنا إليها رؤوفا بها، ومع ذلك ينالها الظلم، ويلحق بها الحيف.
إن هذه الطبقة بحاجة إلى الحماية من طبقة الخاصة والنبلاء.

١ - الاعواز: الحاجة.

٢ - اشراف أنفس الولاية: الاشراف: التطلع، أي ان الولاية يتطلعون إلى جمع المال لأنفسهم، لعدم ثقتهم بالاستمرار في الحكم.

فهؤلاء يظلمون، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، ولا يفيئون إلى حق، اعتزازا بقوتهم وغناهم وصلتهم بالحكامين، ولذلك فيجب أن تحمى هذه الطبقة منهم بقطعهم عنها، ويكون ذلك بألا يجعل الحكم لهم سبيلا عليها ولا صلة بها فلا يقطعنهم الحكم أرضا تتصل بأرض من هم دونهم قوة وقدرا لأنهم يستغلوا المرافق العامة في سبيل منافعهم الخاصة، ويعتدون على أرض غيرهم فيلحقونها (؟) بأرضهم، ويعفيهم الجباة من الضرائب مراعاة لمنزلتهم، ويضعون ما رفعوه عنهم على عنق غيرهم ممن ليس له مثل منزلتهم، وذلك أفحظ الظلم وأقبحه.

إذا ما حدث شيء من ذلك وتعدى أحد هؤلاء على بعض الناس فظلمه بأن وضع عليه خراجه، أو سلبه أرضه، أو حرمه الانتفاع بالمرافق العامة، وجب على الحكم أن يؤد به ويرده إلى العدل كائنا من كان.

قال عليه السلام:

(ثم إن للوالى خاصة وبطانة، (١) فيهم استئثار وتطاول، وقلة انصاف في معاملة، فاحسّم مادة أولئك بقطع مادة تلك الأحوال. ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك (٢) قطيعة ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة (٣) تضر بمن يليها (؟) (٤) من الناس في شرب (٥) أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم،

١ - الخاصة والبطانة، رجال الحاشية المقربون من الحكم. (البطانة) من بطانة الثوب لأنها أقرب إلى جلد الإنسان، فاستعيرت الكلمة للتعبير عن الناس المقربين إلى الحكم.

٢ - الحامة - المقربون جدا من الحكم وأقاربه،

٣ - قطيعة - عقدة: الضيعة، المزرعة، الأرض الزراعية، (اعتقاد عقدة) اقتناه مزرعة.

٤ - يلي: يقرب، أي لا يجعل أحدا من حاشيتك يقتني مزرعة إذا كان يخشى منه أن يظلم جيرانه من المزارعين ويضرهم بأخذ أكثر من حصته المقررة له من الماء، أو بتكليفهم بأعمال زراعية مشتركة بينه وبينهم دون أن يتحمل ما يتطلب عليه من النفقات.

٥ - الشرب - بكسر الشين - ما، الري

فيكون مهناً (١) ذلك لهم دونك وعييه عليك في الدنيا والآخرة.

وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن في ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتكم وخاصمتكم حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فان مغبة (٢) ذلك محمودة).

عهد الأشتر

راجع: عهد الأشتر وراجع كتاباً منه إلى عماله على الخراج رقم النص: ٥١

١ - المهنأ - المنفعة الهنية.

٢ - المغبة: العاقبة.

(٩)

التجار والصناع

إذا كانت الزراعة هي ينبع النشاط الاقتصادي في العصور القديمة، فإن التجارة هي المظهر الأكمل لهذا النشاط في جميع العصور. وإن فطبقة التجار تشكل وحدة اجتماعية عظيمة القيمة، بعيدة الأثر في الكيان الاجتماعي.

ولو أن اضطراباً ألم بنشاط هذه الطبقة لاضطراب المجتمع كله، فتحدث المجتمعات في بعض الأطراف بينما تتكدس المواد الغذائية في أطراف أخرى، وبينما توجد في بعض المناطق سلع كثيرة للاستهلاك، توجد مناطق أخرى نقصاً في سلع الاستهلاك.

وهؤلاء التجار - في كلام الإمام على قسمين: منهم المقيم المستقر بماله وتجارته. ومنهم المتوجول المضطرب بماله بين البلدان يرصد حاجة كل بلد فيتجه فيه بالسلعة التي يفتقر إليها.

وأما الصناع فيجب أن ندخلهم في طبقة التجار وفهمهم على أنهم منها هنا، وذلك لأمرتين.

الأول: أن لكل من هؤلاء الصناع عملاً خاصاً مستقلاً يتجر به وحده أو يشاركه فيه غيره فهو يتمتع بنتيجة عمله وليس مستخدماً عند غيره كما هو حال العامل الآن.

(٩٤)

الثاني: ان الوجدان الطبقي عند التجار والصناع واحد كما سنرى.
والميزان في عد طائفتين من الناس طبقة واحدة هو وحدة الوجدان الطبقي
فيهما ***

هناك تلازم وثيق بين الازدهار الاقتصادي وبين التجارة، فكلما نشطت حركة التجارة ارتفعت نسبة الانتاج، وكلما ضعف أمر التجارة هبطت هذه النسبة، وتبعتها في الهبوط المكانة الاقتصادية للأمة.
نضرب لهذا مثلاً بحالة المقاطعات الفرنسية في عصر الانقطاع، ثم بحالة هذه المقاطعات بعد ضعف أمر الانقطاع ونشوء البرجوازية.

ففي عهد الانقطاع الذي ساد أوربا منذ انهيار إمبراطورية شرلمان إلى ما بعد الحركة الأولى للحروب الصليبية ضعفت الحركة التجارية في أوربا ضعفاً عظيماً فتبعدها الانتاج في الهبوط، واكتفى سكان كل اقطاعية بانتاج ما يلزمهم ويكتفي بهم من المواد الغذائية واقتصرت منها على أنواع خاصة تسد حاجتهم. ولا تستدعيم بذل جهد كبير فلم يكن شيء سوى سد الحاجة مطلباً لهم. نعم كانت ثمة استثناءات خاصة في السلاح والثياب والأثاث للزرعيم، وكانت هذه تنقل من أقاليم بعيدة نسبياً. وهكذا كانت المقاطعات الفرنسية كلها، تجنب في الاقتصاد نحو سياسة الاكتفاء الذاتي، وعدم انتاج ما يزيد على الحاجة.

ولكن ما ان التهبت شرارة الحروب الصليبية التي ذهبت بكثير من النساء والاقطاعيين، وما ان حدثت تطورات اجتماعية أخرى كالنزوح من الريف إلى المدينة، وتأييد الملك، واحتراز المدفع الذي ذهب بقيمه الحصون.. ما ان حدث هذا حتى عادت التجارة فنشطت نشاطاً عظيماً، ونشأت طبقة البرجوازيين التجارية التي يتنقل افرادها بين البلدان، واستطاع ذلك ارتفاع مستوى الانتاج، فزرع الزراع أنواعاً جديدة لم يكن ليزرعها لولا طلب التجار لها، واشتري

أشياء جديدة (ملابس وأسلحة، وآنية، وأدوات زينة) لم يكن ليقدر على شرائها لو لا نشاطه الجديد، وتفنن الصانع في صنعه، فلم يعد يصنع ما يسد الحاجة فقط، وإنما أخذ يصنع ما يرضي حاسة الجمال أيضاً. وقامت المشاريع الصناعية الكبرى فنشأت البرجوازية المالية والبرجوازية الصناعية. وهكذا ارتفع مستوى الانتاج بسبب نشاط الحركة التجارية.

وعندما نبحث عن أسباب التدهور الذي حل بفرنسا وغيرها من دول أوروبا في عصر الانقطاع نجد أسباباً مختلفة. منها عدم وجود الطرق التجارية الصالحة في جميع الأوقات بين مختلف أنحاء البلاد

ومنها قطاع الطرق، وعصابات اللصوص والقتلة التي تترصد القوافل التجارية.

ومنها عدم وجود سلطة مركبة ثبت الأمان، وتضرب على أيدي المفسدين في الأرض، لأن السلطة المركزية في عصر الانقطاع كانت واهنة وكان السلطان الفعلى بأيدي الانقطاعيين وكان هؤلاء في حالة حرب دائمة فيما بينهم في شغل عن تأمين السبل والضرب على أيدي المفسدين.

ومنها الرسوم الكمركية الفاحشة، والضرائب الباهظة التي تفرض على البضاعة عند حدود كل مقاطعة، وعند كل جسر وعبر مما يرتفع بشمن السلعة إلى مبلغ كبير لا يقوى عليه الفرد المحدود الدخل.

هذه الأمور أضعفـتـ الحركة التجارية وحصرتها في نطاق شديد الضيق.

ولكن الوضع تغير عندما حدثـتـ التطورات الاجتماعية التي أشرنا إليها. فلقد استبعـضـ ضعـفـ شأنـ الانـقطاعـيينـ تحـولـ الشـعبـ إـلـىـ تـأـيـيدـ الـمـلـكـ فـاشـتـ سـاعـدـ السلطةـ المـركـبةـ،ـ وـعـنـدـ ذـلـكـ ضـرـبـتـ هـذـهـ السـلـطـةـ عـلـىـ أـيـدـيـ اللـصـوصـ وـقـطـاعـ الـطـرـقـ وـمـهـدـتـ السـبـلـ التـجـارـيـةـ وـأـمـنـتـهـاـ،ـ وـوـحدـتـ الـضـرـائبـ فـاتـسـعـ مـحـالـ التـجـارـةـ،ـ وـنـجـمـ عـنـهـ الـازـدـهـارـ الـاقـتصـادـيـ الـذـيـ أـشـرـنـاـ إـلـيـهـ.

وما نشك في أن الإمام كان على وعي لهذا كله يوم كتب للأشر عهده الذي عهد إليه.

فقد استوصاه بالتجار خيرا، وأمره بأن يوصي بذلك ولاته وعماله. وما هذا الخير الذي أراده لهم إلا تسهيل مهمتهم، ليؤدوا خدماتهم للمجتمع على الوجه الأكمل، فلا يجوز أن تكون المكوس والضرائب باهضة تستصفى الربح كله، أو تبقى منه شيئا لا يسد الحاجة، ولا يحمل صاحبه على المخاطرة، لأن ذلك يلجه إلى أن يحمد ماله فلا ينميه بالتجارة، ويلحق بالمجتمع من ذلك ضرر كبير ينشأ من توقف حركة العرض والطلب التي ينجم عنها هبوط المستوى الاقتصادي.

ويجب أن تكون الطرق التجارية صالحة في جميع ^{؟؟؟؟؟} لينتيس للتجار التنقل بين أطراف البلاد، وليتتمكنوا من تلبية الرغبات في جميع الأنحاء، وليسوا قادرون على نقل فائض الانتاج من منطقه فيسدووا به حاجة منطقة أخرى تعاني نقصا فيه.

ويجب أن يستتب الامن، لئلا يمسك الخوف التاجر عن التنقل، ويقعد به الفرق من أن يذهب ضحية العدوان.

قال عليه السلام:

(ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا، المقيم منهم، والمضطرب بماله (١)، والمترافق بيده (٢)، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق (٣)، وجلا بها من المباعد والمطارح (٤)، في برك وبحرك،

(١) المضطرب بماله: التاجر المتنقل بين البلاد.

(٢) العامل اليدوي.

(٣) المرافق: الأدوات والآلات، وما إليها.

(٤) المطارح: الأماكن البعيدة.

و سهلك وجبلك، لا يلتهم (١) الناس لمواضعها،
ولا يجتربون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقته (٢)،
و صلح لا تخشى غائته، و تفقد أمرهم بحضورتك، وفي
حواشي بلادك).

عهد الأشتري

* * *

ذهب (سان سيمون) إلى أن الوجдан الطبيعي الذي يميز طبقة الصناع والتجار هو الانتاج، وإنماء بالشروع الفردية عن طريق تشكيل المادة على نحو ينتفع به الانسان، أو عن طريق الاتجار بهذه المادة.

وهم، بهذا، يخالفون طبقة الحاكمين لأن هؤلاء يجعلون مظهر سلطانهم على الانسان (كان سيمون يكتب هذا في سنة ١٨١٨) أما التجار والصناع فقد جعلوا سلطانهم على المادة، ولذلك فهم طبقة مسالمة لا يخشى منها شر، بخلاف من كان سلطانهم على الانسان، فإنهم ينزعون إلى الشر والسلط. وهو يرى أن البرجوازية الصناعية والتجارية قد حققتا انقلابا هائلا في نظرة الانسان إلى وسيلة جمع المال، وبذلت المفاهيم الاقتصادية التي سيطرت على العقل الانساني
آلاف السنين.

في بينما كانت هذه المفاهيم تقتضي بأن أحسن الوسائل لجمع المال هي السيطرة على طائفة من الناس واستخدامها، نرى هذه الطبقة الناشئة تؤكد أن السبيل الأفضل لذلك هو السيطرة على المادة وتسخيرها لاحتياجات الانسان بواسطة قوى العلم.

ويرى سيمون أن من الضروري للتقدم الانساني أن تتاح لهذه الطبقة جميع

(١) يلتهم: يجتمع الناس.

(٢) البائقة: الدهنية، والخطير، اي ان التجار والصناع مسالمون.

فرص النمو، لعم ثروتها المباركة على النظرية التقليدية لوسائل جمع المال (١) وهذه الفكرة بدئية. وقد أكدت جميع التجارب صحتها.

ولا يصعب علينا أن نتبين روح هذه الفكرة في عهد الامام، فقد رأيت أنه قد أوصى الحاكم بالتجار والصناع، وأمره أن يرعى شؤونهم ويتفقد أحوالهم، ويفسح لهم في المحالات ليتسنى لهم أن يساهموا مساهمة حضرة في رفع مستوى الانتاج وانماء الحياة الاقتصادية.

وتأمل في قوله: (... فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلاح لا تخشى غائلته) فإنه يؤكّد فيه وجوب العناية بهم والرعاية لهم، لأنّهم لا يخشى منهم شر، فطبيعة عملهم، والوجдан الذي يدفعهم إلى هذا العمل فيهما خير المجتمع ورفاهه.

وأما قوله: (وتفقد أمرهم بحضرتك وفي حواشي بلادك) بعد أن أمره وأمر عماله برعايتهم، فإنه يشبه أن يكون أمراً بإنشاء دائرة خاصة تعنى بشؤون التجار.

* * *

قلت: إننا لا يصعب علينا أن نتبين روح هذه النظرية في عهد الامام ولكن في هذا العهد ملاحظة عميقه واعية غفل عنها سان سيمون، وأولتها الأبحاث الاجتماعية الحديثة عناية كبيرة.

وذلك أنه إذا كان من الحق أن نعترف بأن طبقة التجار والصناع طبقة محبة للسلم، طبقة يعود نشاطها على المجتمع بالخير، فإن من الحق أن نعترف أيضاً أنها تصير في بعض الأحيان ذات نشاط عدواني مضر بالمجتمع فعندما تستحكم (العقلية التجارية) في التاجر والصانع إلى حد أنها تدفع بهما إلى التماس الشروة من أقرب الطرق - عندما يحدث هذا تجنب هذه الطبقة إلى التسلط والسيطرة

(١) دكتور محمد ثابت الفندي: الطبقات الاجتماعية ص: ٤٧ - ٥١

على الانسان بصورة غير مباشرة، ولكنها باللغة الضرر، وذلك بالاحتكار والتسلل به إلى السيطرة على الأسواق والتحكم بالاسعار، وبالتطفيف في الموازين، وبالغش وبيع الأصناف الرديئة، وبكل طريق يضمن ربحا وفيرا في مقابل رأسمال قليل.

عندما يحدث هذا الانحراف في عمل هذه الطبقة تصير خطرا. واذن فكما تجب معونتها، تجب مراقبتها أيضا لئلا تنحرف انحرافا يضر بالشعب، ويحرم الفقير من بلغة عيشه، فحينما ترتفع الأسعار وتبقى الأجور كما هي تحدث أزمة عند من لا تفي أجورهم بالاسعار الجديدة. هذه الظاهرة، ظاهرة انقلاب هذه الطبقة إلى خطر، لاحظها الامام، وتقدم إلى عامله بأن يلاحظها، وبين له العلاج.

فعندما يحدث الانحراف يتعين على الحاكم بأن يقوم بتدبير زجري يرجع الأمور إلى نصابها، وذلك إما بمنع المحتكر من الاحتكار، وإجباره على البيع بالسعر المعقول، وإما بتعيم المادة المحتكرة على تجار عديدين يسيرونها بالسعر العادل بالنسبة إلى الفريقين: البائع والمستهلك، فإذا ما احتكر تاجر بعد النهي عوقب ليتردع.

وأمر عامله أن يجعل الأسعار على مستوى لا يعجز عنه أو ساط الناس، ولا يخسر به التاجر.

وأمره أن يضبط المكاييل والموازين لئلا يخس البائع المبتاع. قال عليه السلام:

(واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقا (١) فاحشا، وشحا (٢)، قبيحا، واحتكارا للمنافع: وتحكما في

(١) سوء الخلق في المعاملة

(٢) الشح: البخل

البياعات، وذلك باب مضره للعامة وعيوب على الولاية.
فامنع من الاحتقار فان رسول الله صلى الله عليه وآله
منع منه، ول يكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل
وأسعار لا تجحف (١) بالفريقين من البائع والمبتاع،
فمن قارف (٢) حكرة من بعد نهيك إياه فنكيل (٣) به
وعاقبه من غير إسراف).

عهد الأشتراط

(١) الاجحاف: الظلم، يعني أن تكون الأسعار عادلة بالنسبة إلى: التاجر والمستهلك.

(٢) قارف: ارتكب و فعل

(٣) النكال: العقاب اي عاقب التاجر إذا احتكر بعد نهيك له

(١٠)

العمال ومن لا يستطيعون عملا

هذه الطبقة، طبقة الفقراء تتالف ممن لا يستطيعون عملا، لعاهة فيهم لا يقدرون معها على العمل، أو لا يستطيعونه لكبر السن وضعف البنية، أو لا يستطيعونه لصغر السن كالأيتام الذين لا كافل لهم، أو يستطيعون ويعملون، ولكن عملهم لا يمدتهم بالكافية، ولا يسر لهم مستوى لائقا من العيش.

هذه الطبقة تتالف من هذه الطوائف، وإذا لم تلاق عناء من المجتمع ينحرف قويها إلى طريق الجريمة، ويموت ضعيفها جوعا، وهي في الحالين سبة وخطر على المجتمع. واذن فلا بد من تدبير يدفع المؤس عن أفرادها، ويحول قويها إلى خلية انسانية عاملة وينهض بهم إلى مستوى الحياة الحرة الكريمة.

وقد سن الإمام عليه السلام قانونا تعامل به هذه الطبقة استحباب فيه إلى أحكام الإسلام.

وفي كلام الإمام عن هذه الطبقة نرى تشريعا عماليا ناضجا إلى أبعد الحدود، ومستوعبا تماما الاستيعاب، وهو على نضجه الكامل واستيعابه التام، سابق للتشريعات العمالية الحديثة بأكثر من الف ومائتي عام.

* * *

ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهرت طلائع الثورة الصناعية في

(١٠٢)

انكلترا، وهي أول بلد أو ربي شهد الانقلاب الصناعي الحديث. وقد تمت للثورة الصناعية عناصرها المكونة حين اخترع البخار كقوة محركة، وعمم في صناعة المحركات. واستتبع ذلك اتساع نطاق الصناعة وتركيزها في المدن، وحيثند حدثت الهجرة من الريف إلى المدينة، فقد باع الفلاحون أرضهم من كبار المالك، وانتقلوا إلى المصانع الجديدة كعمال، وعند ذلك ظهرت طبقة العمال إلى الوجود على نحو فعال، وانتقلت مراكز الكثافة في المجتمع من الفلاحين إليها.

ومن هذا الحين بدأت هذه الطبقة تستشعر الظلم أشد وأقسى ما يكون، فلم يكن لمطامع أصحاب المصانع حد ولا غاية، وكان العامل يعمل أكثر ساعات نهاره بأجر زهيد، فإذا ما استغنى عنه صاحب العمل، أو حلّت به آفة، أو اعتراه وهن، أو بلغ سنا لا يقوى فيها على العمل، طرد من عمله. وبدا كأن هذا الوضع الشائن سيستمر إلى الأبد.

وبدا كأن الكيان الاقتصادي القائم على هذا الاستغلال سيقى منيعا. وبدا كأن واقع العمال التعس أمر لا مفر منه ولا معدى عنه.

ولكن شيئاً من هذا لم يستمر، فقد نبهت هذه المظالم الوعي العمالي، ودفعتهم إلى تحسين مستواهم الاقتصادي عن طريق الصراع.

وقد عملوا كثيراً، وقد أخفقوا كثيراً، ولكنهم وفقو أخيراً إلى تحفيض ساعات العمل ورفع الأجور، والتعويض عند الصرف من العمل، والضمان الاجتماعي بإعانة مالية تدفع للعامل المتعطل من صندوق الدولة.

ونقدم هنا ملاحظات:

الأولى: أن هذا لم يتم إلا بجهود العمال أنفسهم، فلا المجالس التشريعية ولا

أصحاب العمل انتبهوا إلى حالة العمال واهتموا بتحسينها، ولم يستجب أصحاب العمل لمطالب العمال، ولم تسن التشريعات الملائمة إلا بعد صراع دام عقودا من السنين.

الثانية: إن هذه الإعانة التي تعطى للعامل المتعطل إنما تعطى له بشكل إحسان وصدقة، ولا باعتبارها حقا له.

الثالثة: إن هذه التشريعات لا تشمل بعض الحالات، فمن يعمل ولا يكفيه عمله لا يدخل فيها، ومن يعمل ويحصل على أجر مناسب ولكن عرض له ما جعله مفتقرًا إلى المزيد من المال لا يدخل فيها، وكذلك لا يدخل فيها الأيتام، ومن لا كافل لهم ولا يستطيعون العمل لصغر السن أي لا تعتبر الدولة نفسها مسؤولة عنهم.

وإذا رجعنا إلى عهد الإمام لنقارن بينه وبين النتائج التي خرجنا بها؟ فماذا نجد؟

نلاحظ أولاً: أن التشريعات الكافية للطبقة العاملة ومطلق من لا يستطيع العمل للمرض أو لكبر السن أو لصغرها - هذه التشريعات صدرت من فوق، من طبقة الحاكمين، ومغزى أن تكون التشريعات الحامية لطبقة العمال قد صدرت من فوق من دون أن يحدث من هذه الطبقة تحسس يلحى إلى هذا، كبير القيمة، فهو يدل على أن الإمام كان يفكر في هذه الطبقة ويعمل لخيرها.

وثانياً: أن ما تدفعه الدولة إلى هؤلاء ليس احسانا منها إليهم، وإنما هو حق لهم عليها، يجب أن تؤديه. وعهد الإمام صريح في هذا كما سترى.

ومغزى هذه الملاحظة عظيم، فعندما يأخذ المعوز ما يأخذ على أنه (احسان) يشعر بالدونية، أما حين يأخذ على أنه (حق) فإنه يشعر بشئ من هذا.

وثالثاً: أن التشريع الذي سنه الاسلام وذكره الإمام يشمل كل حالة عجز،

فمن لا يستطيعون عملاً لمرض أو هرم أو صغر سن، أو يعملون ولكن أجراً لهم لا يكفيهم - هؤلاء جميعاً تكفلهم الدولة، وتعتبر نفسها مسؤولة عنهم. وعهد الإمام صريح في أن على الحاكم أن ينشئ لهذه الطبقة دائرة خاصة ترعى شؤونها، فهو يقول:

(ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمرهم).

وقد جرى عليه السلام على هذا فيما نقل ابن أبي الحديد إذ قال: (وكان لأمير المؤمنين علي عليه السلام بيت سماه بيت القصص يلقى الناس فيه رقائهم).

واذن، فالرغم من سبق عهد الإمام على التشريعات العمالية الحديثة بأكثر من الف ومائتي عام نلاحظ أنه أوعى لحاجات هذه الطبقة وأرعاى لشؤونها، وأشمل لطائفها من هذه التشريعات.

نعم تمتاز هذه التشريعات بأنها أكثر تفصيلاً من عهد الإمام، وبأنها تشتمل على ملاحظات لم ترد في هذا العهد، ولكن ذلك لا يكسبها ميزة حقيقة، فالعبرة بروح التشريع وبশموله، ولا شك، بعدما عرفت، في أن عهد الإمام أشمل.

قال عليه السلام:

(ثم الله الله في الطبقة السفلی من الذين لا حيلة لهم
من المساکین والمحتاجین، وأهل البؤسی (۱) والزمنی (۲)
فإن في هذه الطبقة قانعاً ومتراً (۳)).

(۱) البؤس: جمع بائس، الذين يعانون من الفقر الشديد

(۲) الزمني: جمع زمین - والزمانة العاهة

(۳) القانع: السائل - المعتر: المترض لأخذ العطاء دون سؤال وطلب

واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل
لهم قسما من بيت مالك، وقسما من غلات (١)
صوافي (٢) الاسلام في كل بلد، فان الذي للأقصى (٣)
منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه (٤).
ولا يشغلنك عنهم بطر (٥) فإنك لا تعذر
بتضييعك التافه لاحكامك الكثير المهم، فلا تشخص
همك عنهم (٦)، ولا تصير (٧) خدك لهم، وتتفقد أمور
من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون (٨) وتحتقره
الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع
فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالاعذار إلى الله
سبحانه يوم تلقاه (٩)، فان هؤلاء من الرعية أحوج إلى
الانصاف من غيرهم.
وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه.
وتعهد أهل اليم وذوي الرقة في السن (١٠) ممن لا

(١) الغلات: المحاصيل الزراعية

(٢) الصوافي: الأرض المفتوحة عنوة (بالقوة)، فإنها ملك لجميع المسلمين، ويعود ريعها إلى
بيت مال المسلمين.

(٣) الأقصى: الابعد في القرابة أو في المكان. والأدنى: الأقرب، أي انه لا فرق في لزوم
الرعاية لهؤلاء بين القريب والبعيد.

(٤) وجبت عليك رعاية حقه

(٥) البطر: الطغيان بالعمدة

(٦) لا تشخص همك: لا تصرف عنائك واهتمامك عن هؤلاء الفقراء

(٧) لا تتكبر عليهم.

(٨) تقتحمه العيون: تحتقره، فلا تنظر إليه

(٩) ليكن عملك بالنسبة إلى هؤلاء الفقراء عذرا لك عند الله تعالى

(١٠) ذوي الرقة في السن: الذين بلغوا مرحلة الشيخوخة

حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه.
وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل، وقد يخففه
الله على أقوام طلبو العافية، فصبروا أنفسهم ووثقوا
بصدق موعود الله لهم).
عهد الأشترا

ونستطيع أن نتصور عظيم اهتمامه عليه السلام بهذه الطبقة حين نتأمل قوله (ثم الله الله..) وقوله: (فلا تشخص همك عنهم، ولا تصرخ خدك لهم) يأمر واليه بأن يتواضع لهم لثلا يشعروا بالذل من جهة، ولি�ضرب لأغنياء رعيته مثلا من نفسه في معاملته لهذه الطبقة. وقوله: (فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الانصاف من غيرهم). وأما قوله: (فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً) وقوله: (وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم) وقوله: (وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن، ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه) فإنها تنطوي على مضمون عظيم القيمة، فهوألاء الذين يمنعهم الحياة وشرف النفس من إظهار فقرهم ومن نصب أنفسهم للمسألة يموتون جوعاً إذا لم يبحث عنهم الحاكم ويرعى أمورهم، ولذلك أمر الإمام واليه بأن يتفقد هؤلاء وأمثالهم، ويوكِّل بهم من يتقددهم.

ولا أظن أن حكومة من الحكومات الحديثة بلغ فيها التشريع العمالي، والتأمين الاجتماعي من النضوج والوعي للمسؤولية الاجتماعية إلى حد أن تؤلف هيئة تبحث عن ذوي الحاجة والفاقة فترفع حاجتهم بأموال الدولة، كما نرى ذلك في عهد الإمام ولا أظن أن قلوب المشرعين وعقولهم اجتمعوا على أن تخرج للدنيا تشريعاً عمالياً فأفلحت في أن تخرجه أبسط من تشريع الإمام بالشعور الإنساني العميق.
راجع عهد الأشترا

(١١)

كنا فيما نتحدث عن آراء الامام في المجتمع باعتبار تركيبه الداخلي،
أعني الطبقات الاجتماعية.

والآن نريد أن نتحدث عن رأي الامام في المجتمع كوحدة عامة، فلا ننظر
إليه من داخل كما صنعنا في بحث الطبقات، وإنما ننظر إليه من خارج باعتباره
وحدة إنسانية عامة لا نلحظ فيها الفروق.

وكنا نتحدث عن آراء الامام في اصلاح المجتمع على هدي الاسلام عن طريق
التأمين الاقتصادي واصلاح جهاز الحكم، ونتحدث الآن عن آرائه في إصلاح
المجتمع عن طريق العوامل النفسية ذات الأثر في الجماعة الإنسانية.
للاجتماع الانساني مظهران: مظهر حقيقي، ومظهر مزيف.

أما المظهر الحقيقي للاجتماع الانساني فهو ذلك الذي يبدو الناس فيه وقد
شاعت بينهم الألفة، وجمعتهم المحبة، وقاربت ما بينهم وحدة الوسائل
والغايات.

وهو ذلك الذي يعي فيه الافراد المسؤولية، ويشعرون ان القانون الذي
يجب ان يسود هو قانون. حقي وواجبي.

وهو الذي يعي فيه الافراد أن الغاية من الاجتماع الانساني هي التعاون على

إيجاد الفرص المناسبة التي تمكن كل فرد من إظهار قدراته، وتحقيق ذاته على نحو فعال مجد، وليس عملا يراد منه إيجاد الفرص المناسبة لطائفة من الناس على حساب آخرين.

وأما المظاهر المزيف لل المجتمع الانساني فهو ذلك الذي يبدو فيه الافراد (مجتمعين) فحسب، فلا توحد بينهم الفة، ولا تلم شتاتهم محبة، ولا يتلقون على هدف صحيح.

وهو ذلك الذي يسعى فيه كل فرد أو كل جماعة إلى امتلاك كل ما يستطيع دون وعي لحاجات الآخرين ودون اهتمام لمصائرهم.

وهو ذلك الذي يسود فيه قانون الكلمة الواحدة، قانون: حقي، فقط. ان هذا الطراز من الاجتماع أحق بأن يسمى (تجمعا) ذئبيا من أن يسمى اجتماعا: إنسانيا.

هذان مظهران للاجتماعي الانساني ويسعد بنا أن نلتمس الأسباب التي تسوق إلى هذا وذاك.

روح العدوان غريزة أصلية في نفس الإنسان.

وإنما كانت أصلية فيه لأنها ضرورية لحياته، فلو لاها لما كان في الإنسان ما يحفزه إلى حماية نفسه من كواسر السباع، وفواتك الهوام، ولما كانت له القدرة على الصيد، ولا على أي عمل يتطلب صراعا مع كائن حي آخر في سبيل حفظ الحياة.

وأوقات الحاجة إلى هذه الغريزة هي حين تتعرض الحياة الإنسانية لخطر فاتك سواء كان من الإنسان أو الحيوان.

وليس في النفس الإنسانية جهاز يولد هذه الغريزة في أوقات الخطر ويعدمها

في أوقات الأمان. ولذا فان هذه الغريرة موجودة في جميع الأوقات. وهي في أوقات الخطر تعمل عملها الذي يسرت له وأودعت في الإنسان لأجله. وأما في أوقات الأمان فان وجودها يصبح مشكلة خطيرة قد تمتد باثارها إلى الآخرين من أفراد وجماعات.

ففي المجتمعات التي تدين بحضارة لا تجعل للإنسان هدفا ساميا في الحياة، ولا تعلمه إلا أن يبالغ في إرواء شهواته ونزواته، تعبّر هذه الغريرة عن نفسها في عدوان بعض الأفراد على بعض أو عدوان بعض الجماعات على بعض، لأنها - كغريرة - لابد لها من التعبير عن نفسها، وحيث لا تقدم لها الحضارة موضوعا للتعبير يصرفها ويحولها عن الأفراد، لابد أن تعبّر عن نفسها في هؤلاء الأفراد، وحينئذ ينقلب المجتمع الإنساني إلى مجتمع ذئبي تناحري، ذي غرائز عدوانية ضاربة، تعبّر عن نفسها باستمرار.

هذه هي الأسباب التي تذهب بروح الاجتماع الإنساني وتسبغ عليه مظها را اجتماعيا مزيفا.

وجاء الإسلام والمجتمع الإنساني كله في واقع تعس نشأ من أن الحضارات التي كان يدين بها كانت في الغالب حضارات لا تتجاوز بالإنسان مدى الحس. وكان المجتمع العربي يعني الأزمة في أحد مظاهرها، فقد كان يقوم إلى جانب ما يعنيه من جدب روحي على أساس قبلي. وكان هذان العاملان: الجدب الروحي والروح القبلية يشيران غريرة العدوان أعظم وأضر ما تكون. وقد عالج الإسلام هذه المشكلة.

أولا، بأن حارب عناصر الفساد والانحلال في الإرث الثقافي المنهل الذي دعت إليه تلك الحضارات، وجاء بثقافة جديدة حرية بأن تعيد تكوين الإنسان الروحي من جديد، وجعل للحياة الإنسانية هدفا أعلى من إرواء الحس باللذة، جعل لها الفضيلة هدفا، وأمر الإنسان بالمسير إليه.

وثانيا، بأن وجه غريزة المقاتلة إلى موضوعين: أحدهما أعداء الإسلام الذين يكيدون له، ويغعون عليه، ويريدون اطفاء نور الله فيه. والثاني هو الشيطان، هذا الكائن الذي هو أعدى أعداء الإنسان: يزين له الظلال، ويحبب إليه الانحراف، ويدفعه عن طريق الأغواء والاغراء إلى تشويه شخصية الإنسانية وتلويشها.

وقد أكد الإسلام عداوة الشيطان للإنسان تأكيدا مطلقا، وأكد وجوب الاحتراز منه، والحذر من مكائده، والتحصن من شباكه، تأكيدا مطلقا وبذلك وجه غريزة القتال والعدوان إلى موضوع يستفيد منه المجتمع أعظم الفائدة، فالإنسان، منذ اليوم، يكافح الشيطان من أجل أن يسمو.. من أجل أن يحقق الإنسان.

وقد أحرز النبي صلى الله عليه وآله نصرا باهرا حين استطاع، عن طريق الإسلام، أن يجمع العرب على عقيدة توحد بينهم في الوسائل والغايات، وأن يكون من الشراذم العربية أمة عربية. ولكن الظرف الزمانى لم يسعفه على استئصال الروح القبلية من نفس العربي، فما أن قبضه الله إليه حتى حدث ما بعث هذه الروح من جديد.. حتى ولـي الخليفة عثمان فعبرت عن نفسها بسبب سياسات معينة تعبيرات شديدة، فلما ولـي الإمام الحكم جوبه بهذا الواقع، واقع المجتمع العربي المسلم الذي ساقته الروح القبلية إلى مصير ويل. فنصب نفسه لمحاربة هذه الروح.

وقد كانت طريقته في العلاج فذة رائعة، ستفنـ في فصل آت على جانب منها يتناول التشقيق الفردي، وتعليم أصحابه روح الإسلام أما هنا فتتحدث عن كفاحه للروح القبلية باعتبارها نزعة هدامة ولا بد انه عليه السلام تكلـ كثيرا في هذا الموضوع، لأن واقعه كان يدعوه

إلى ذلك، ولعن لم يصل إلينا كل ما قال أو أكثره فان ما في نهج البلاغة يعني في مقام التعرف على آراءه في هذه المسألة، وثمة خطبة من طوال خطبه خصصها لمحاربة هذه النزعة في مجتمعه، وقد ذكر الشريف مختارا منها، ونحن ذاكرون طرفا مما اختار نستشهد به على أن الإمام كان يعي العمليات الاجتماعية، وكان يعي ما وراء هذه العمليات من دوافع نفسية تحمل عليها وتدفع إليها.

* * *

تكرر ذكر الشيطان في نهج البلاغة كثيرا:

- ١ - قصة آدم (ع) وإغراء الشيطان له.
- ٢ - الشيطان أخطر عدو للإنسان، يزين له المعصية، ويحمله على تسويف التوبة، ويدفعه إلى مقارفة الإثم، حتى إذا حق الحق تبرأ منه وتركه بين يدي عذاب غليظ.
- ٣ - من جملة مهام الأنبياء الكبارى ان يحذروا الناس من إغواء الشيطان. وقد كان الإمام يهدف من كل ذلك إلى تأكيد عداوة الشيطان في النفوس لتنصرف إليه غريزة العداون.
وأعظم خطبة تضمنت ذلك، وتجلى فيها غرض الإمام الاجتماعي هي خطبته المسماه (القاصعة).
ففيها صرخ الإمام بأن الاجتماع الإنساني الحق لا يمكن أن يجتمع مع النزعة القبلية.
وفيها يصرح بأن النزعة القبلية إن هي إلا ارث شيطاني يزينه الشيطان لأوليائه.
وفيها يبين أن الشيطان أحق بالمحاربة من هؤلاء الضعفاء الذين يقع عليهم الظلم ويلحقهم الحيف بسبب النزعة القبلية

وفيها يضرب الأمثال التي تشهد لدعواه والتي تدل على أن النزعة القبلية، بما لها من آثار سيئة، هي التي محققت المجتمعات القديمة.

قال عليه السلام:

(الحمد لله الذي ليس العز والكبرياء، واحتارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمى وحرما على غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده).

(ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه، وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب:

إنني خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحِي فجعلوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس (١). اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لاصله، فعدوا الله إمام المتعصّبين. وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية.).

- الخطبة القاسعة - رقم النص: ١٩٠

(١) سورة ص، آية ٧١ - ٧٤.

وبعد أن بين أن الله ابتلى خلقه بهذا لينفي عنهم التكبر والخيلاء، وبعد أن أمرهم أن يعتبروا بما صار إليه إبليس حين تكبر، قال: (فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائئه، وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله (١)، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد (٢)، وأغرق لكم بالنزع الشديد (٣)، ورمأكم من مكان قريب، وقال: (رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغويتهم أجمعين) (٤) قذفا بغير بعيد، ورجما بظن غير مصيّب، صدقه أبناء الحمية وإخوان العصبية، وفرسان الكبير والجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم (٥)، واستحکمت الطماعية منه فيكم، فنجحت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي (٦)، استفحـل سلطـانـه

(١) أجلب بخيله، يعني استعان بفرسانه. وأجلب برجله، يعني استuan بمشاته.

(٢) فوق السهم: أعده للرمي.

(٣) أغرق بالنزع: شد وتر قوسه إلى أقصاه ليصيب الهدف إصابة مهلكة.

(٤) سورة الحجر، آية ٣٩.

(٥) الجامحة: من جمع الفرس، إذا فر وشد، يريد الإمام بذلك من عصاه من أصحابه الذين تأثروا بالروح القبلية.

(٦) نجم: ظهر، يريد أن العصبية القبلية كانت في أول الأمر مجرد فكرة، ولكنها بعد أن أثر الشيطان أثره، تحولت العصبية من مجرد فكرة خفية إلى حقيقة خارجية ظاهرة جلية.

عليكم، ودلف (١) بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجأت الذل (٢)، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطئوكم إثخان الجراحه (٣).. فأصبح أعظم في دينكم جرحا، وأورى (٤) في دنياكم قدح من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألين، فاجعلوا عليه حدكم وله حدكم (٥)، فلعمر الله لقد فخر على أصلحكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم. فأطغتوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحداد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونحواته، ونزعاته (٦) ونفتاته (٧)، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أنفاسكم، واتخذوا التواضع مسلحة (٨) بينكم وبين عدوكم إبليس وجندوه،

(١) دلف: تقدم.

(٢) ولجات: مفرده: ولجة، المأوى في الطريق، يلتجأ إليه الناس.

(٣) أوطأ: أركب، (إثخان الجراحه) يقال: أثخن في العدو: أي أوقع فيه إصابات شديدة، فيكون معنى قوله (ع) (أوطئوكم إثخان الجراحه) انهم أشعلوا نار الفتنة بينكم، ففتكم بعضكم البعض الآخر فتكا شديدا.

(٤) أورى النار: جعلها تشتعل بشدة وقوة.

(٥) الحد: هنا الغضب. والحد هنا القطع. يريد: صبوا عليه غضبكم، واقطعوا الصلة بينكم وبينه.

(٦) النرغ: الأفساد.

(٧) النفخ: ينفخ الشيطان في عقول الناس وقلوبهم.

(٨) المسلحة: مكان تجمع الجنود المسلمين على الحدود لدفع العدو. يريد: اجعلوا التواضع سلاحكم في حد إبليس الذي يدعوكم إلى التكبر

فإن له من كل أمة جنودا وأعوانا ورجالا
وفرسانا، ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من
غير ما فضل جعله الله فيه سوى ما ألحقت
العصبية بنفسه من عداوة الحسد).
- الخطبة القاسعة - رقم النص: ١٩٠ -
* * *

ثم يضرب لهم الشواهد، ويصر لهم عبر التاريخ.
فهذا الواقع الاجتماعي المزري جر أئمما قبلهم إلى الانهيار، وجدير بهم أن
يعتبروا بمن قبلهم ممن غفلوا عن عدوهم الكامن في أعماقهم، وصرفوا - بإغرائه
وإيحائه - عدوا نهم إلى إخوانهم في الدين والانسانية:
(فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم
من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته (١)،
واعتصوا بمثاوي خدوذهم (٢) ومصارع جنوبهم
 واستعيذوا بالله من لواقع الكبیر (٣)، كما تستعيذوه
من طوارق الدهر (٤).

(١) المثلات: العقوبات الشديدة.

(٢) المثلوى: المنزل - مثاوي الخدود: موضع الخد على التراب بعد الموت. كناية عن أن المصير الأخير هو الموت، فلماذا الأحقاد والصراعات. وهذا المعنى هو المراد من الفقرة التالية (ومصارع جنوبهم).

(٣) لواقع: من اللقاء، ومعناه معروف. أي أن الكبير يلقي النفس بالشر فاستعيذوا بالله من ذلك.

(٤) طوارق الدهر: مصائب.

واحدروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات
بسوء الافعال، وذميم الأعمال، فتذكروا في
الخير والشر أحوالهم، واحدروا أن تكونوا
أمثالهم.

إذا تفكرت في تفاوت حالهم، فالزموا
كل أمر لزمن العزة به شأنهم، وزاحت الأعداء
له عنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت
النعمه له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم:
من الاجتناب للفرقه، واللزوم للألفة، والتحاض
عليها والتوصي بها. واجتبوا كل أمر كسر
فقرتهم (١)، وأوهن منتهم (٢): من تضاغن
القلوب، وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس،
وتخاذل الأيدي).

- الخطبة القاسعة - رقم النص: ١٩٠ -

ثم يضرب لهم الأمثال بحالبني إسرائيل كيف جمعتهم الدعوه الواحدة،
ولم شعثهم الهوى الجميع، فعظم أمرهم، ثم اختلفوا فذهب ريحهم ووهنوا وذلوا.
وضرب لهم الأمثال بحال العرب قبل الاسلام كيف كانوا، ثم كيف اتحدوا
بالاسلام فأصبحوا يطاعون في بلاد كانوا فيها أذلة ضعفاء.

(١) كسر فقرتهم: كسر ظهورهم، لأن الفقار في ظهر الانسان يقوم عليها كيانه فإذا كسرت
عجز عن الوقوف والعمل.

(٢) أوهن منتهم: أضعف قوتهم.

ثم ذكر أن أعظم ما أمنن الله به عليهم هو أنه جمعهم، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخوانا، قال:

(إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ أَمْتَنَ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ
فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُم مِّنْ حِبْلِ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الَّتِي يَتَنَقَّلُونَ
فِي ظَلَّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى كُنْفَهَا، بِنِعْمَةِ لَا يَعْرِفُ
أَحَدٌ مِّنَ الْمَخلُوقِينَ لَهَا قِيمَة، لَأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ
ثَمْنٍ وَأَجْلٍ مِّنْ كُلِّ خَطَرٍ).

- الخطبة القاسعة - رقم النص: ١٩٠ -

* * *

ورؤساء القبائل هم أصحاب المصلحة في استشراء العصبية القبلية والتفكير الاجتماعي، فلو وعى الناس الحياة الاجتماعية الصحيحة وراعوا المصلحة العامة وحدها، لما بقيت لهؤلاء الرؤساء قيمة، لأن وجودهم منوط بهذه العصبية. وقد عرف الإمام عليه السلام ذلك، فوجه إليهم صفة مدوية حين صرخ بالناس:

(أَلَا فَاللَّهُدُرُ الْحَدْرُ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ
الَّذِي تَكْبِرُوا عَنْ حُسْبَهُمْ، وَتَرْفَعُوا فَوْقَ نَسْبَهُمْ
وَأَلْقَوْا الْهَجِينَةَ (١) عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاهَدُوا اللَّهَ عَلَى
مَا صَنَعُ بَهُمْ، مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ وَمُغَالِبَةً لِآلَائِهِ (٢)،

(١) الْهَجِينَةُ: الْفَعْلَةُ الْقَبِيْحَةُ.

(٢) آلَاءُ اللَّهِ: نِعْمَةٌ وَإِحْسَانٌ.

فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتراء الجاهلية (١)، فاتقوا الله.. ولا تطعوا الأدعية (٢) الذين شربتم بصفوكم كدرهم وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسق وأحلال العقوق (٣) اتخاذهم إبليس مطايلاً ظلال وجنداً بهم يصلون على الناس، وترجمة ينطق على ألسنتهم، استرافقا لعقولكم، ودخولوا في عيونكم، ونفثا في أسماعكم فجعلكم مرمى نبله، وموطئ قدمه، ومائده يده).

- الخطبة القاصعة - رقم النص: ١٩٠ -

وعلى هذا النسق العالي من البيان الشامخ يمضي الإمام صلوات الله عليه في بيان أمراض المجتمع. ويكشف عن أسبابها النفسية، ويرهن بذلك علىوعي خارق للعمليات الاجتماعية وأسباب انحرافها، وطرق اصلاحها. وننصح بالرجوع إلى الخطبة القاصعة وقراءتها بامعان، فقد لا يعطي ما قدمناه فكرة تامة عن جميع الأفكار التي تحتويها.

(١) الاعتزاء: الانتساب، اعتراء الجاهلية: العادات الجاهلية في المفاخرة بالسلالة والنسب.

(٢) الداعي هو الذي يتنسب إلى غير أصله. يريد هنا أن رؤساء القبائل أدعية على أهل الخير وأهل الصلاح، وهم في الحقيقة أشرار.

(٣) الحلس كساء يكون على ظهر البعير ملازم له، واستعير للتعبير عن كل ملازم لشيء. فيقال حلس بالمكان: لزمه: وحلس بغلان: لم يفارقه. ويريد الإمام هنا أن هؤلاء الزعماء ملازمون للعقوق، عقوق الله وعقوق إمامهم.

الحاكم
صفاته - حقوقه - واجباته - طبيعة الحكم

(١٢١)

(هل الإمامة أمر محتم، فلا يجوز أن يمضي على المسلمين وقت دون إمام يسير بهم على كتاب الله وسنة الرسول؟ أم أنها أمر جائز وليس فرضا، فإذا شاء المسلمون أقاموا إماما، وإذا لم يريدوا فليس في الشريعة ما يلزمهم بذلك، بل الأمر في ذلك منوط بهم وموكل إليهم؟

(اختفت الفرق الإسلامية بين هذين المبدأين، فذهبت الكثرة العظمى من المسلمين إلى أن الإمامة أمر محتم، فهو مذهب أهل السنة جميعا، ومذهب الشيعة جميعا، ومذهب الكثرة الغالبة من المعتزلة والكثرة الغالبة من الخوارج. أما الجواز فقد ذهب إليه (الهشامية) من المعتزلة أصحاب هشام بن عمرو الفوطي، فهم يقولون: (يجوز عقدها في أيام الاتفاق والسلامة أما في أيام الفتنة فلا) وهو كذلك مذهب (المحكمة الأولى من الخوارج) فإنهم أجازوا ألا يكون في العالم إمام أصلا..

وكذلك (النجدات)... و (العجارة) من الخوارج أيضا) (١).
وإذن فالMuslimون جميعا مجتمعون على وجوب نصب الحاكم، ومن رأيت خلافه فهو شاذ لا يعني به، وتشهد للوجوب النصوص الكثيرة الصريحة فيه.
وبعد، فلو لم تكن ثمة نصوص تقضي بوجوبه لكتفى العقل في الالزام به،

(١) راجع كتابنا: نظام الحكم والإدارة في الإسلام ص ٧٠ - ٧١.

فالحكم من ضرورات الاجتماع، لأن النشاط الانساني - وقد تشابك بفعل الحياة الاجتماعية - لا بد له من هيئة تشرف عليه وتنظمه، وتشق له القنوات، وتوجهه الوجهة الصحيحة المستقيمة، وبدون هذه الهيئة يتسبب هذا النشاط فيطفى لون منه على لون، ويتجه اتجاهات غير محمودة تؤول به في النهاية إلى الضمور، ومن ثم تنتهي بالمجتمع إلى الانحلال.

والحكومة في الأصل مؤسسة اجتماعية، لأن طبيعة الاجتماع تقتضيها كما رأينا، ولكنها في الإسلام، تتحذز بالإضافة إلى صفتها الاجتماعية، طابعا دينيا أيضا وذلك لأن المجتمع الإسلامي مجتمع ديني في الدرجة الأولى، أي أن الذي يستلهم في التنظيم: الاقتصادي والسياسي والعسكري هو الدين وحده. وهذا هو الإمام عليه السلام يقرر هذه الحقيقة، رادا على الخوارج يوم نادوا (لا حكم إلا الله) قائلا:

(كلمة حق يراد بها باطل، نعم إنه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر، يعمل في أمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر ويستراح من فاجر) (١).

فقوله (انه لا بد للناس من إمام ..) تقرير لهذه الضرورة، التي يفرضها واقع الاجتماع الانساني، ولا مدعى عنها بحال من الأحوال، ولئن كانت إمرة

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٤٠.

الامام الفاجر - حين لا يوجد العادل - شرا -، فهي على ما فيها من شرٍّ خيرٍ من الفوضى التي تمزق أواصر المجتمع.

وغير خفي ان الامام لم يقصد في كلمته الآنفة إلى بيان طبيعة الحكم الاسلامي ، وإنما قصد فيها إلى بيان ضرورة الحكم في قبال دعوى الخوارج الفوضويين.

(١)

وإذا كانت الإمامة أمراً لازماً فهل يصح أن يتولاها كل من قدر على بلوغها دون نظر إلى صفاتـه الشخصية وكفاءاته أم أن من يصح له أن يلي منصب الإمامة يجب أن تتوفر فيه شروط خاصة يمتاز بها عن غيره من الناس؟ المسلمين على اتفاق فيما بينهم على أن منصب الإمامة لا يليه إلا من توفرت فيه شروط مميزة، وانختلفوا في أمور أخرى فذهب بعض إلى اشتراطـها وذهب آخرون إلى عدمـه.

ولسنا هنا في مقام استعراض شروطـ الإمامـ الحاكم عند مختلفـ الفرقـ الإسلاميةـ. وقد عالجـناـ هذاـ المـوضـوعـ عـلـاجـاـ وـافـيـاـ فـيـ كـتابـناـ (نـظـامـ الـحـكـمـ وـالـإـدـارـةـ فـيـ الـاسـلامـ).

فإذا رجـعناـ إـلـىـ نـهجـ الـبـلـاغـةـ لمـ نـجـدـ فـيـ تـفـصـيـلاـ دـقـيقـاـ لـهـذـهـ الشـرـوـطـ، فـلـيـسـ فـيـماـ بـيـنـ أـيـديـنـاـ مـنـ كـلـامـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عـلـيـهـ السـلـامـ قـسـمـ مـسـتـقـلـ تـعـرـضـ فـيـهـ لـبـيـانـهـاـ وـإـنـماـ ذـكـرـ مـنـهـاـ، فـيـ عـرـضـ كـلـامـهـ، طـائـفةـ وـأـهـمـ طـائـفةـ.

فـاشـتـرـطـ فـيـ الـإـامـ أـنـ يـكـونـ كـرـيمـ النـفـسـ لـثـلـاـ تـدـفـعـهـ الـطـمـاعـيـةـ وـشـدـةـ الـحرـصـ إـلـىـ الـعـدـوـانـ عـلـىـ أـمـوـالـ الـمـسـلـمـينـ.

وـاشـتـرـطـ فـيـهـ أـنـ يـكـونـ عـالـمـاـ لـأـنـهـ قـائـدـ الـمـسـلـمـينـ الـأـعـلـىـ فـيـجـبـ أـنـ يـهـدـيـهـمـ وـلـوـ كـانـ جـاهـلاـ لـأـضـلـهـمـ.

(١٢٦)

واشترط فيه أن يكون لين العريكة، رحب الصدر.
واشترط فيه أن يكون عادلا في إعطاء الأموال فيسوبي بين الناس في العطاء
ولا يفضل قوما على حساب آخرين استجابة لشهوات نفسه وميل قلبه.
واشترط فيه أن يكون نزيها في القضاء فلا يرتشي لأن ذلك مؤذن بذهاب
العدل في الأحكام.

واشترط فيه أن يكون عاملا بالسنة فيجري الحدود ولو على أقرب الناس
إليه، ويعطي الحق من نفسه كما يطلبه من غيره.

قال عليه السلام:

(). وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي
على الفروج، والدماء، والمعانم، والأحكام
وإمامية المسلمين البخل، فتكون في أموالهم
نهمته (١)، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي
فيقطعهم بجفائه، ولا الحائز للدول فيتخذ قوما
دون قوم (٢)، ولا المرتشي في الحكم فيذهب
بالحقوق ويقف بها دون المقاطع (٣)، ولا المعطل
للسنة فيهلك الأمة (٤).

(١) النهمة: الافراط في الشهوة.

(٢) الحائز للدول - الحائز: الظالم، والحيف: الظلم، والدول: المال لأنه يتداول أي
ينتقل من يد إلى يد. مراده: الإنسان الظالم في تقسيم الأموال فيفضل قوما على قوم بغير موجب
للتفضيل.

(٣) المقاطع: حدود الله.

(٤) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٩.

وقال عليه السلام:

(لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع (١) ولا يضارع (٢) ولا يتبع المطامع) (٣).

وقال متحدثاً عن الإمام.

(من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، ول يكن تأدبه بسيرته قبل تأدبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم) (٤).

وهذه الكلمات تقوم على فلسفة للحكم عند الإمام عليه السلام تتلخص في أن الحكم، وهو ضرورة اجتماعية، أقيم لصالح المجتمع، ولا يمكن أن يعمل الحكم لصالح المجتمع إلا إذا كان على رأسه إنسان كامل الصفات، واع لمهمته، أما حين يكون الحاكم إنساناً غير واع للمسؤولية وغير عامل على إصلاح المجتمع ورفع شأنه، فإن الحكم ينقلب إلى وسيلة للظلم، وستتضخم لنا الخطوط الكبرى لهذه الفلسفة فيما يأتي.

(١) يصانع: يداري، أي أن الذي يقيم أمر الله هو الذي لا يداري أحداً في إحقاق الحق.

(٢) يضارع: المضارعة المشابهة، أي لا يتشبه في عمله بالمبطلين.

(٣) نهج البلاغة، باب المختار من كلام أمير المؤمنين، رقم النص: ١١٠.

(٤) نهج البلاغة، نفس الباب، رقم النص: ٧٣.

(٢)

حقوق الرعية على الحاكم تستمد معناها من طبيعة الحكم الذي يمارسه الحاكم.
فهناك حكم يقوم لأجل عائلة من العائلات الكبيرة وحينئذ يعمل الحاكم
لأجل هذه العائلة، ويُسخر جميع مراقب الدولة لها ولمن يقوم عليه سلطانها.
وهناك حكم يقوم لصالح طبقة من الطبقات وحينئذ يعمل الحاكم لأجل
هذه الطبقة، ولا ينيل الرعية شيئاً إلا إذا كان فيه ما يعود بالخير على هاتيك
الطبقة التي يقوم من أجلها الحكم.
ومرة يقوم الحكم من أجل الرعية وحدها، وحينئذ يعمل الحاكم للرعية
وحدها.

وفي هذا اللون من الحكم توجد للرعية على الحاكم حقوق يصح أن نتحدث
عنها.

فأي لون من ألوان الحكم بشر به نهج البلاغة، ووضع قواعده الإمام؟
إذا رجعنا إلى نهج البلاغة وجدنا أن الحكم الذي كان يمارسه الإمام عليه السلام
والذي كان يحمل عماله على أن يمارسوه هو هذا الحكم الذي يقوم من أجل
الرعية وحدها.

(١٢٩)

وقد تقدم منا في حديثنا عن المجتمع والطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة أن عرضنا إلى طرف من ذلك، فرأينا كيف أن الإمام في عهده العظيم إلى مالك الأشتر قد وضع الأسس المتبعة لإنشاء جهاز حكم ي العمل للشعب وللشعب فقط، غير ملق بالا إلى منافع طبقة خاصة تسعد على حساب الشعب وتنعم بجهوده.

وسنعرض في حديثنا هذا طرفا من الشواهد التي تدل على أن الحكم الذي مارسه الإمام عليه السلام ودعا إلى ممارسته هو الحكم من أجل الشعب، وما تقدم في بحث الطبقات الاجتماعية، وما سيمرا هنا يؤلف هيكلًا يكاد أن يكون كاملا لفلسفة الحكم عند الإمام عليه السلام.

* * *

من ضرورات الحكم الصالحة المشاركة الوجданية بين الراعي والرعية، إذ بها يستطيع الحاكم أن يتعرف على آمال المحكومين وآلامهم ومطامحهم، وأن يعي حاجاتهم ومخاوفهم، فيعمل لخيرهم ويضع كل شئ مما يصلحهم موضعه. ويشعرهم بذلك برعايته لهم، وحياطته لأمورهم، وعمله لصالحهم، فيدعون حكمه بحبهم وإشارتهم له، ويؤازرونه في السراء والضراء على السواء.

ولا يحصل شئ من هذا إذا ما أغلق الحاكم دونهم قلبه وأغمض عنهم عينه. إنه حينذاك لا يعرف شيئا من أمورهم ليعمل على الاصلاح، وتكون عاقبة ذلك أن يفقد حبه في قلوبهم، ويشعرون بأنه شئ غريب عنهم مفروض عليهم، كالحشرة الطفيلية التي تعيش على دماء الحيوان الذي تلتتصق به.

قال عليه السلام:

(.). وأشار قلبك الرحمة للرعاية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا

تعتنم أكلهم. فإنهم صنفان: اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل (١)، وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطتهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه).

عهد الأشتر

ولكي تحصل هذه المشاركة الوجدانية ولكي تؤتي أكلها يجب على الوالي أن يخالط الرعية، وأن يمكنهم من مخالطته ومطالعته بما يريدون، لأن احتجابه عنهم سبب لجهله بأحوالهم، وسبب لانصراف قلوبهم عنه وتفاقم موجدهم عليه. قال عليه السلام:

(.). فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاية عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور. والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويшиб الحق بالباطل. وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليس على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب) (٢).

عهد الأشتر

(١) يفرط منهم الزلل: يفرط: يسق، الزلل: الخطأ.

(٢) سمات: جمع سمة، وهي العلامة، أي ليس للحق علامات ظاهرة يتميز بها الصدق من الكذب، وإنما يعرف ذلك بالامتحان والتجربة.

ولكي يبقى ما بين الوالي ورعيته من وشائع الود، ويبقى ما للوالى في قلوب الرعية من جميل الأثر وحسن الظن، يجب عليه أن يحدد من أذهانهم كل ما يتوهمون فيه الظلم والحيف، فيبين لهم خطته ويسرح لهم نهجه ليؤيدوا سياسته عن قناعة بها وإيمان بصلاحها وجدواها.

ويجب عليه ألا يمن على رعيته بما يفعل، فإن منصبه يفرض عليه أن يخدمهم، ولو من عليهم لذهب جميل أثره من قلوبهم. وعليه أن يتتجنب الكذب فيما يعطي من عهد، والتزييد فيما يصف من عمل، فإن الكذب داعية المقت، والتزييد أخوه الكذب.

قال عليه السلام:

(وإن ظنت الرعية بك حيفا (١) فأصرح (٢) لهم
بعذرك، واعدل (٣) عنك ظنونهم بإصلاحرك،
فإن في ذلك رياضة (٤) منك لنفسك، ورفقا
برعيتك، وإعذارا (٥) تبلغ به حاجتك من
تقويمهم على الحق).
عهد الأشترا

(١) الحيف: الظلم.

(٢) أصرح: أظهر، والاصحار: الاظهار. يعني إذا ظنت الرعية أنك كنت ظالما في تصرف من التصرفات فاكتشف عذرك لهم، وبين الأسباب الموجبة التي دعتك إلى اتخاذ ذلك الاجراء.

(٣) اعدل، هنا، معناها: حول. أي ان إعلانك لتفسير موقفك يجعلهم يحولون ظنونهم واتهاماتهم لك بالظلم، عنك.

(٤) رياضة: تعويضا لنفسك على أن تكون عادلا، وصريحا.

(٥) الاعذار: هو إعلان العذر والحججة.

وقال عليه السلام: (وإياك والمن على رعيتك بإحسانك، أو التزيد (١) فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلافك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت (٢) عند الله والناس، قال الله تعالى: (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (٣)).

عهد الأشتراط

والسبيل الأقوم الذي يؤدي إلى تأكيد حب الحكم في نفوس الرعية ويحملها على عضد والدفاع عنه هو ما أشار عليه السلام بقوله:

(واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم، وتحفيظه المؤونات عنهم، وترك استكراره إياهم على ما ليس له قبلهم (٤)، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن ويقطع نصبا (٥) طويلا، وأن أحق من

(١) التزيد - كالتنديد وإظهار الزيادة في الأعمال، وإظهارها بأكبر من حقيقتها في الواقع، فيكون من المفاجرة بالباطل والكذب.

(٢) المقت: البعض.

(٣) سورة الصاف، الآية: ٣، وقبلها (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون).

(٤) قبلهم: عندهم.

(٥) النصب: التعب.

حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن
أحق من ساء ظنك لمن ساء بلاؤك عنده) (١).

عهد الأشترا

ولم كل هذا؟

لان الحكم إنما أقيم لصالح الشعب، ولذلك فيجب أن يرعى مصالح الشعب،
ويجب أن يستلهم في أعماله حاجات هذا الشعب.

أما هذه الطبقة، طبقة الخاصة والبلاء، التي تحسب أن كل شيء مسخر لها
وما عليها إلا أن تدعو فتجاب وتأمر فتطاع، هذه الطبقة ليس لها في حكومة
الامام امتيازات، فهي وسائل الناس سواء، وعلى الحاكم، حين تتعدى حدودها
وتطلب ما ليس لها، أن يردها إلى قصد السبيل.

قال عليه السلام:

(أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن
خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك (٢)،
فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله
خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض
حجته (٣) وكان لله حربا حتى ينزع (٤) أو يتوب،

(١) البلاء، هنا، الصنع مطلقا، حسناً كان أو سيئا. أي ان من صنعت معه صنيعاً حسناً
يكون موضع لحسن ظنك به. ومن صنعت معه صنيعاً سيئاً يكون موضع لسوء ظنك به.

(٢) من لك فيه هوى: تميل إليه أكثر من غيره من الناس.

(٣) أدحض حجته: أبطل حجته.

(٤) ينزع: يكف عن ظلمه.

وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيز
نقمته من إقامة على ظلم (١) فإن الله سميع دعوة
المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد.
(وليكن أحب الأمور إليك أو سلطها في الحق،
وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن
سخط العامة يجحف (٢) برضاء الخاصة وإن سخط
ال الخاصة يغتفر مع رضا العامة. وليس أحد من
الرعية أثقل على الوالي مئونة في الرخاء وأقل
معونة له في البلاء، وأكره لالانصاف، وأسأل
بالالحادف (٣)، وأقل شكرًا عند الاعطاء وأبطأ
عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات
الدهر من أهل الخاصة. وإنما عماد الدين وجماع (٤)
المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن
صغروك (٥) لهم ومليك معهم).

عهد الأشتراط

وهكذا حكم الإمام عليه السلام بأن الحكم إنما أقيم من أجل الشعب فيجب
أن يبقى خالصاً للشعب وللشعب وحده.

(١) الإقامة على الظلم: الأصرار عليه، وعدم الرجوع عنه.

(٢) يجحف: يذهب. أي أن سخط عامة الشعب لا ينفع معه رضا طبقة المترفين
الارستوغرافية. أما إذا رضيت عامة الشعب وسخط المترفون فلا يضر سخطهم مع رضى
عامة الشعب.

(٣) الالحادف: الالحادف والشدة في السؤال.

(٤) أي جماعة الإسلام.

(٥) صغروك: ميلك، فليكن ميلك إلى عامة الشعب لا إلى الخاصة المترفين.

وإذا كان الحكم قد أقيمت من أجل الشعب، فههذه الأموال التي تجبي منه لم تجب لتنفق على إرواء شهوات طائفة من الناس يومها دهرها، وبغيتها لذتها، وهي تتمتع بحياة فارغة لا هية، إنما جبى هذا المال من الشعب ليرد عليه في صورة خدمات عامة، ومؤسسات عامة، هذا هو مصرف أموال الدولة.
وأمير المؤمنين عليه السلام صريح في هذا فقد تكرر منه أمره إلى عماله بصيانة مال الأمة، وصرفه في موارده وعدم التفريط به.

قال عليه السلام:

(.). فانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك (١) من ذوي العيال والمجاعة مصيبة به مواضع الفاقة (٢) والخلات (٣)، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا (٤).
* * *

راجع في باب الكتب: كتابه إلى أشعث بن قيس عامل أذربيجان / رقم النص ٥ / وكتابه إلى زياد بن أبيه / رقم النص ٢٠ /، ووصيته لمن كان يستعمله على الصدقات / رقم النص ٢٥ / والنص رقم ٢٦ / والنص رقم ٤١ /، وكتابه إلى مصقلة بن هبيرة / رقم النص ٤٣ / وكتابه إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة / رقم النص ٤٥ / وكتابه إلى عماله على الخراج / رقم النص ٥١ / وعهد الأشتر / رقم النص ٥٣ / وكتابه إلى قشم بن العباس عامله على مكة / رقم النص ٦٧ /.

(١) قبلك: عندك.

(٢) الفاقة: الفقر.

(٣) الخلات: الحاجات.

(٤) نهج البلاغة، باب الكتب، رقم النص ٦٧.

(٣)

وإذا كان الإمام عليه السلام قد وضع أساس هذا اللون من الحكم ومارسه، ودعا إلى ممارسته، فلل الحديث عن حقوق الرعية محل في هذا البحث كما أسلفنا. ولم يغفل الإمام الحديث عن هذه الحقوق بل عرض لها بالذكر في مواطن كثيرة

فما هي حقوق الرعية على الوالي؟

لقد تحدث مرّة عن هذه الحقوق فقال:

(ويجمع به الفيء (١)، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعف من القوي، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر) (٢).

وقال:

(. فأما حكمكم علي فالنصحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم فيما تعلموا) (٣).

(١) الفيء: الخراج وما يحويه بيت المال.

(٢) نهج البلاغة: رقم النص: ٤٠

(٣) نهج البلاغة: رقم النص: ٣٤

وقال:

(.. انه ليس على الامام إلا ما حمل من أمر ربه
الا بлаг في الموعظة، والاجتهد في النصيحة،
والاحياء للسنة، وإقامة الحدود على مستحقها،
وإصدار السهمان (١) على أهلها) (٢).

وفي هذه النصوص أحمل الامام حقوق الرعية على الراعي في توفير الامن في
الداخل والخارج، وتأمين الحياة الاقتصادية، والتعليم والتوجيه الاجتماعي،
وإقامة العدل.

ولا يضرنا اجمال هذه النصوص بعد أن عرفنا أن أطول وثيقة كتبها عليه
السلام وأجمعها لحقوق الرعية هي عهده إلى الأشتر، ففي صدر هذا العهد أحمل
هذه الحقوق اجمالا ثم فصلها بعد ذلك تفصيلا. أحملها فقال:
(هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن
الحارث الأشتر في عهده إليه حين وlah مصر:
جبایة خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح
أهلها، وعمارة بلادها).

عهد الأشتر

ثم فصلها بعد ذلك.

فأفض اولا في بيان وظيفة العسكريين وواجباتهم والسبيل الذي يحسن
بالحاكم أن يتبعه للاستفادة منهم.

(١) إصدار السهمان: السهمان - بالضم - جمع سهم، بمعنى الحظ والنصيب. وإصدار السهمان:
إعادتها إلى أهلها المستحقين لها بدون انقصاص شئ منها.

(٢) نهج البلاغة، رقم النص: ١٠٣.

ثم فصل الكلام في جهاز الحكم: الولاية والوزراء والقضاة، فوضع أساس الحكم العادل التقدمي الوعائي.

وتكلم بعد ذلك على الزراعة والتجارة والصناعة والفقراء، وبين حقوقهم على الحاكم من توفير المحالات لهم، وإعداد أحسن الفرص لنجاحهم في أعمالهم.

ثم تحدث عن حالة البلاد العمرانية فأفاض في الحديث وبين خطورة هذه الناحية في أمن الرعية ورفاهها واطراد تقدمها.

في هذا العهد نظر الإمام عليه السلام إلى المجتمع كله بما فيه من طوائف وطبقات، وبين فيه حقوق هذا المجتمع كلها، ولا نرى ما يدعونا إلى تفصيل الكلام في ذلك هنا بعد أن تبين من خلال حديثنا عن الطبقات الاجتماعية، لأنه حينما تحدث عن الطبقات لم يتناولها على نحو تجريدي، وإنما تناولها بالحديث باعتبار ما لها من حقوق، وقد قدمنا ملاحظة بين يدي ذلك الحديث قلنا فيها:

(.. لم يفرغ آراءه الاجتماعية كلها في قالب علمي مجرد، وإنما قدم بعضها مفرغا في التجربة العملية التي قام بها، ولا يسلبها قيمتها، كحقيقة موضوعية، أنها مفرغة في قالب تجريبي اجتماعي يسعغ عليها بدل جمود الحقيقة العلمية المجردة، حيوية وحركية تنشأ من حيوية الجماعات وحركتها).

(٤)

تحدث الإمام عليه السلام عن طبيعة الحق فلاحظ أنه لا يمكن أن يكون لأحد حق على غيره إلا ويكون عليه لغيره واجب، وهناك تقابل دائم بين الحق والواجب فحيثما يكون الحق يتبعه الواجب.

ولكن الناس - غالباً - يريدون استيفاء حقوقهم دون أن يؤدوا ما عليهم من واجبات غير عالمين انه حينما يتم رد الانسان على واجبه فلا يأتي به يسقط حقه الذي يدعوه.

قال عليه السلام:

.. فالحق أوسع الأشياء في التواصف (١)،
وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى
عليه ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان
لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكن ذلك
حالياً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده،

(١) يتسع القول في وصف الحق، حتى إذا حان وقت العمل والتنفيذ على الإنسان الذي يصف الحق يفر من أداء الحق ولم ينصف.

ولعله في كل ما جرت عليه صروف قضائه،
ولكنه جعل حقه على العباد أن يطعوه، وجعل
جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً
بما هو من المزید أهله) (١)،

وقال عليه السلام:

(. ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً لبعض
الناس على بعض، فجعلها تتكافأ (٢) في وجوهها
ويوجب افتراضها بعضها بعضاً، ولا يستوجب
بعضها إلا ببعض) (٣).

ونبه هنا إلى أن هذه الحقوق، حقوق الامام، ليست امتيازات على سائر
الناس يحصل عليها الامام بسبب الحكم، وذلك لأن الحكم، عند الامام، لا
يسبب للحاكم أي امتياز شخصي أبداً.

وها هو يخاطب الأشتر، عامله على مصر، بقوله:
(إياك والاستئثار (٤) بما الناس فيه أسوة (٥)،
والتعابي عما تعنى به مما قد وضح للعيون، فإنه
مأنوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك
أغطية الأمور، وينتصف منك للمظلوم).
عهد الأشتر

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٢١٤.

(٢) تتكافأ: تتساوی.

(٣) نهج البلاغة، نفس النص السابق.

(٤) الاستئثار: تحصيص النفس بزيادة في الحصة عن الآخرين.

(٥) أسوة: متساوون. والتعابي: التغافل.

وقال عليه السلام مخاطباً أصحابه في صفين (١):
 (٢) وإن من أسفخ (٢) حالات الولادة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كرهت أن يكون حال في ظنكم اني أحب الاطراء واستماع الثناء، ولست - بحمد الله - كذلك ولو كنت أحب أن يقال ذلك، لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبراء وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء (٣) فلا تثنوا علي بجميل بلاء لا خراجي نفسي إلى الله واليكم من التقية (٤) في حقوق لم أفرغ بعد من أدائها، وفرائض لابد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبارية ولا تحفظوا في بما يتحفظ به عند أهل البدارة (٥)، ولا تحالفوني بالمصانعة (٦) - (٧).
 عهد الأشتر.

(١) صفين كسجين - موقع عده الجغرافيون من بلاد الجزيرة (ما بين الفرات ودجلة) والمؤرخون العرب عدوه من أرض سوريا. وهو اليوم في محافظة حلب.

(٢) وإن من أسفخ... أصل السخف رقة العقل وغيره، والمراد: إن أدنى حالات الولادة أن يظن بهم الصالحون أنهم يحبون الفخر، وينون أمرهم على أساس الكبر.

(٣) البلاء: إجهاد النفس في اتقان العمل واحسانه.

(٤) التقية: الخوف، والمراد هنا بها العقاب، ومعنى الجملة: أي لا تستحق الثناء لأنني قمت بأداء حقوق واجبة علي خوفاً من عقاب الله إذا تركت أداءها.

(٥) أهل البدارة: سريعاً الغضب. ينهاهم أن يكلموه بالألقاب العظيمة التي اعتاد الناس أن يخاطبوا بها الجبارين، وينهاهم عن أن يقابلوه بالتحفظ والرهبة خشية غضبه.

(٦) ولا تحالفوني بالمصانعة: يعني لا تصانعوني فتتظاهرون بطاعتي دون أن تكونوا راغبين في ذلك.

(٧) نهج البلاغة: رقم النص: ٢١٤.

وإذا لم تكن حقوق الحاكم من هذا الباب فما هي طبيعتها إذن؟
حقوق الحاكم كما يحملها الإمام في نهج البلاغة هي أمور يعطها لأنها ضرورية
لاستمرار الحكم وصلاحه فهذه الحقوق هي:
. وأما حقي عليكم: فالوفاء بالبيعة،
والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين
أدعوكم، والطاعة حين آمركم (١).
وهي:

. ولهم عليكم حق الطاعة وألا تنكصوا عن
دعوة (٢)، ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا
الغمرات (٣) إلى الحق (٤).

وهي: (. فلا تكفووا عن مقالة بحق أو مشورة
بعدل) (٥).

وتکاد ترجع كل هذه الحقوق إلى الوفاء بالبيعة، فإن الإمام يباع على السمع
والطاعة. وإذا لم يسمع المحكومون حين يدعوهם ولم يطيعوا حين يأمرهم، ولم
ينصحوا له ولم يثبتوا على ولائه لم يستطع الإمام أن يسير أداة الحكم على نحو صالح.

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٣٤.

(٢) نكص: تأخر ورجوع: يعني لا تتأخروا عن إجابتني إذا دعوتكم.
(٣) الغمرات: الشدائد.

(٤) نهج البلاغة، باب الكتب، رقم النص: ٥٠.

(٥) نهج البلاغة، رقم النص: ٢١٤.

(٥)

ولا يمكن أن يصلح شئ من أمور الدولة إلا إذا وجد جو صالح للعمل، ويوجد هذا الجو بتحقق الرغبة المشتركة بين الحاكم والمحكومين في إصلاح ما يفتقر إلى الاصلاح وتقويم ما يحتاج إلى التقويم من شؤون الناس وشأنو البلاط. والذي يعبر عن هذه الرغبة المشتركة هو تعاون الوالي مع الرعية على القيام بذلك كله، ويتحقق التعاون بينهما بأن يقوم كل منهما بما عليه من واجبات بعد أن يتلقى كل منهما ما له من حقوق.

فعلى الرعية أن تعطي الوالي ما له عليها من حقوق، فتطيعه إذا أمر، وتجيهه إذا دعا، وتنصحه إذا كان في حاجة إلى ذلك.

وعلى الوالي إذا حصل على ذلك كله أن يستغلها في إصلاح شؤون رعيته. أما حين لا تبذل الرعية للوالي طاعتها ولا تمضي نصيتها، ولا تلبي دعوته إذا دعا، وأما حين تفعل ذلك كله ولكن الوالي يستغلها في رعاية مصالح نفسه، ويهمل مصالح رعيته فإن ذلك مؤذن بشيوع الظلم، وسيطرة الظلمة، وفساد الدولة.

(١٤٤)

قال عليه السلام:

(.). وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل، فجعلها نظاماً لإلتفتهم، وعزرا لدينهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاية، ولا تصلح الولاية إلا باستقامة الرعية، فإذا أدلت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل، وجرت على أدلالها السنن (١)، فصلاح - بذلك - الزمان، وطماع في بقاء الدولة، ويسرت مطامع الأعداء. وإذا غلت الرعية واليها أو أحلف الوالي برعيته (٢)، اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور وكثير الأدغال في الدين (٣) وتركت محاج السنن (٤)، فعمل بالهوى وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل (٥) ولعظيم باطل فعل، فهنالك

(١) ذل الطريق - بكسر الذال - وسطه. والسنن: جمع سنة، هي أوامر الله ونواهيه، وهي طريق المؤمن في حياته، معنى الجملة: إن أحكام الله حينئذ تطبق بدقة وأحكام.

(٢) أحلف الوالي، الأحلف: الظلم، يعني ظلم الوالي رعيته.

(٣) الأدغال في الشيء: ادخال ما يفسده فيه، والأدغال في الدين: إفساده.

(٤) محاج السنن: جمع محاجة، وجمع سنة: تركت طرق الله وأحكامه الواضحة وانحرف الناس عنها.

(٥) لا يستوحش الناس ولا يستغربون من تعطيل الحق لتعودهم على تعطيل الحقوق وأفعال الباطل.

تذل الأبرار وتعز الأشرار وتعظم تبعات الله عند العباد، فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه) (١).

وقال في التعاون بين الراعي والرعية: (٢). ولكن من واجب حقوق الله على العباد: النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس امرؤ - وان عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته - بفوق أن يعan (٣) على ما حمله الله من حقه. ولا امرؤ - وان صغرت النفوس واقتحمتها العيون (٤) - بدون أن يعين على ذلك أو يعan عليه) (٥).

(١) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٢١٤.

(٢) أي بأعلى من أن يحتاج إلى المساعدة والإعانة.

(٣) اقتحمتها العيون: احقرته (بدون أن يعيّن) أي بأعجز من أن يساعد غيره.

(٤) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٤.

المغيبات

(١٤٧)

في ناس هذا العصر من إذا وقعت أبصارهم على هذا العنوان طاف على ثغورهم شبح ابتسامة، ولاح في أعينهم بريق المهرء، واتسمت معالم وجههم بamarat الاستنكار. ولم كل هذا؟ لأننا في هذا العصر الآلي لا نستطيع - إذا أردنا أن نحترم أنفسنا وعقولنا - أن نؤمن بوجود إنسان يعلم الغيب، إنسان تنقشع من أمام عينيه حجب القرون وتنطوي المسافات فيقرأ المستقبل البعيد أو الخاطر المحجوب كما يقرأ في كتاب مفتوح، ويعي حوادثه كأنها بنت الساعة التي هو فيها. وكل إنسان يقول هذا فلابد أن يكون واحداً من اثنين: إما مجحونا، وإما جاهلاً بما قدر للعقل الإنساني أن يعيه من نظام الكون. وقد لا يقولون هذا بأسئتهم ولكنهم يقولونه بوجوههم وأيديهم.

(١٤٩)

(١)

في ناس هذا العصر من يقول هذا.

وطبيعة الثقافة المنحرفة التي يلقاها إنسان هذا العصر في كل مكان هي التي تدفع بهؤلاء إلى أن يقفوا لهذا الموقف ويتوجهوا هذا المتوجه في إنكار كل دعوى تذهب إلى أن في الإنسان شيئاً آخر وراء غده وخلاياه.

الثقافة الحديثة هي التي تفرض على الإنسان مثل هذا الموقف فهذه الثقافة تعتبر الإنسان - آلة - آلة دقيقة الصنع فقط، وهي تخضع في عملياتها لقانون الآلة وحده، فلا شيء وراء الغدد والأعصاب يمكن أن يعتبر موجهاً للنشاط الإنساني وباعثاً له.

هذه النظرية، نظرية الإنسان الآلة، وجدت أول تعبير لها على لسان ديكارت في فلسفته حينما اعتبر الإنسان آلة، وأنشأ ثنائية النفس والجسد، ثم وجدت تعبيراً أشد صراحة على لسان توماس هوبس في فلسفته الميكانيكية، والذي جرد الكائن الإنساني من كل قوة غير مدركة. وبينما كان ديكارت يعترف بنشاط داخلي سماه (الأفكار الباطنية) نرى هوبس قد تنكر لهذا وأرجع مضمون الفكرة إلى الخبرة الحسية وحدها.

وبين القرنين - الثامن عشر والتاسع عشر - ساهمت علوم أخرى غير الفلسفة في تأكيد هذه النظرية.

ومهما تكن حظوظ هذه العلوم من قوة التأثير وضعفها في صياغة هذه النظرية وإقرارها فلا مراء في أن علم النفس المعاصر من أعظم العلوم أثرا في تأكيدها.

فقد بدأ علم النفس عهده التجريبي في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٩)

على يد فللهلم فونت الذي أسس سيكولوجيا الاستيطان، والذي حاولت مدرسته إحلال كلمة (شعور) المرادفة للحس في العمليات النفسية محل كلمة (روح) التي هي إرث ديني وغير مدرك.

وبعدها تتابعت المدارس النفسية: السلوكية، التحليل النفسي، علم النفس التحليلي، علم النفس الفردي، الحشطلت، القصد. وكلها تنتكل للروح، ولأي قوة غيبية أخرى، وترد السلوك الانساني إلى إفرازات الغدد، وعمليات الجهازين الحشوي والعصبي، واللاوعي، والغرائز.

وقد بلغ التعصب لهذه العلوم ذروته في القرن التاسع عشر، ففيه استحوذ الغرور على العلماء المحدثين، وظنوا أنهم قد تمكنا من اكتشاف جميع القوانين الميكانيكية التي تسير الكون، وذهبوا إلى أن كل دعوى يراد منها إثبات أن ثمة قوى غير مدركة تهيمن علينا، وتحكم فيما هي دعوى خرافات ذهب ز منها - خرافة صنعها الإنسان يوم كان أفق تفكيره غائما وضبابيا إلى حد يشير إلى الاشتقاق. ولعل من الخير لنا أن نتبين الأساس الذي يقوم عليه إنكار الروح في الثقافة الحديثة.

* * * الميزة الكبرى للحضارة الحديثة التي هي معطى للثقافة الحديثة أنها حضارة

التجريب، فكل شئ يجب أن يخضع للتجربة المعملية ليصح أن يؤمن به، فإذا لم يخضع التجربة لم يصح أن يؤمن به كما لو خضع لها وكشفت زيفه.

وقد عاد هذا الاتجاه التجريبي على الحضارة بما لا يتصور مدى خصبه من النتائج، ولكن الخطأ وقع حين دخلت العلم العزة بنفسه فادعى أن بوسعه أن يدخل الإنسان إلى المعلم ويجعله موضوعاً للتجريب. وليس الإنسان موضوع التجريب هنا هو هذه الكتلة من اللحم والعضم المشدودة إلى بعضها بجهاز من العصب، وإنما هو النفس الإنسانية. فقد ادعى العلم الحديث أن بإمكانه أن يفحص صحة الدعوى الكبرى القائلة بوجود الروح والنفس ليثبت صحتها أو بطلاً عنها عن طريق التجربة المعملية.

وقد اضطُلَّ بهذه المهمة علمان تجريبيان، هما الفيزيولوجي والسيكولوجي، هذان العلمان أدخلان الإنسان إلى المعلم ليرياً أحق ما يقال من أن وراء هذه التشكيلة الدقيقة من الغدد والخلايا والأجهزة العصبية والحسوية شيئاً يسمى نفساً وروحاً، أو أن هذه خرافات من جملة الخرافات؟

ولقد كانت النتيجة بطبيعة الحال - وهذا شئ كان من الممكن أن نجزم به سلفاً - هي أن لا روح ولا نفس ولا شئ وراء جسم الإنسان.

وأذيعت هذه النتائج على أنها (حقائق) أثبتتها العلم التجريبي وآمن بها الناس، لأن العلم التجريبي والتطبيقي، الذي أخضع الأمراض لسلطانه، وكشف عللها ووضع أدويتها، والذي لا يزال يفجئنا كل يوم بجديد لا يمكن أن يستعصي عليه هذا الموضوع.

وعلى هذا النحو المسرحي حلَّ المشكلة - أعقد وأفضل مشكلة واجهت العقل الإنساني منذ القدم - واعتبر أمر الروح الإنسانية قد انقضى.

وهنا نقول كلامنا في المسألة.

نحن نؤمن بالعلم قوة في يد الإنسان وسبلا إلى إنماء الحياة الإنسانية وإغاثتها.

ونحن نؤمن بالتجربة منهجا للبحث أفضل من جميع المناهج الأخرى.

ولكننا نؤمن بالعلم إلى حد محدود، ونؤمن بالتجربة منهجا للبحث فيما هو قابل للتجربة.

إن الميدان الأصيل للعلم التجريبي هو الموضوع القابل لأن يقع تحت أدوات التجريب: يد الإنسان وعيته وحاسة الشم فيه وموازين الحرارة والضغط والمشارط وأنابيب الاختبار وما إليها. فكل موضوع خارجي يصلح أن يقع تحت أداة التجريب يصلح أن يكون ميدانا للعلم الذي يستخدم هذه الأداة، ويمكن أن يتوصل فيه بواسطتها إلى نتائج معتمدة نسبيا.

ونتسأّل:

هل الروح من هذا القبيل؟ وهل يمكن أن تقع موضوعا صالحًا لأداة التجربة المعملية؟ اللهم لا. فالباحثون عنها لا يجرؤون على القول بأنها شيء ذو كيان يمكن أن يصل إليه الحس أو ما يصطنه الإنسان من أدوات.

ونتسأّل كرّة أخرى:

إذا كانت الروح شيئا لا يمكن أن يقع موضوعا لأداة التجربة فكيف يصح أن تتحذ هذه الأداة سبلا إلى البت في أمرها؟

نعم، إن (أساطين) السيكولوجيا - وخاصة السلوكيون - والفيزيولوجيا يقولون لنا إن باستطاعتهم أن (يختبروا) وجود الروح عن طريق مراقبة

الانفعالات التي تطرأ على مختلف أجهزة الإنسان بفعل السوائل الكيماوية المختلفة.

ونتسأل ثالثة:

هل عواطف الإنسان ومطامحه وأفكاره تتجمع كلها في بضعة من عصب، تنفعل بالسوائل الكيماوية التي تراق عليها لنحكم بأن لا روح ولا شيء سوى هذه

البضعة الخاضعة للفعل الكيماوي؟ وهل يمكن أن يعتمد على نتيجة هذه مقدماتها في تقرير موقفنا من الحياة والكون، وفي تحديد مصيرنا الذي نريد؟ إن العلم التجريبي نفسه يأبى علينا الاخذ بنتيجة هذه مقدماتها، فنتيجة كهذه لا يمكن أن تسمى نتيجة علمية بحال.

وإذن، فلا دليل يمكن أن ينهض على أن الروح الإنسانية لا واقع لها، وأكثر من دليل يدل على أن الروح الإنسانية، أعظم واقعية من بعض الأشياء التي نحسبها واقعية.

ما هو الواقعي؟

أهو الشئ الذي تدركه حواسنا؟ لا، لقد أصبح هذا التفسير الساذج (للواقعي) شيئاً بعيداً عن المفهوم العلمي الحديث، ولو شئنا أن نفسر الواقعي بهذا التفسير لوجب علينا أن نكفر بأشياع الحقائق في حياتنا الحاضرة وأعني بها الكهرباء. (فالكهرباء - كما يقول يعقوب فام في البراجماتزم - لا صورة ذهنية لها عندنا ولا شكل نستطيع أن نراه بعين العقل أو نتخيله، ومع ذلك فمدلوه له وجود ذاتي مستقل في هذا النظام الموضوعي للكون. وبعبارة أخرى: الكهرباء

وجود حقيقي وإن كان الذهن لا يستطيع أن يتخيلها لأننا نشاهد آثارها وعملها في الحياة اليومية).

وأذن، فليس الواقع هو ما نحسه، وإنما الواقع هو ما يعمل على صياغة حياتنا بآثاره وإن لم يبلغ علمنا مدى كنهه. وإذا كان هذا هو الواقع فما الذي يمكن أن تكون الروح حقيقة من الحقائق الجمدة التي تصنع حياتنا بآثارها؟ إن جهلنا بحقيقة لا يبرر نكران وجودها. وقد عرفت أن الذين ينكرونها يبنون نكراً لهم على ما لا يصلح أن يكون أساساً للموقف العقلي الذي الترموده تجاه الروح فالآداة التي اصطنعوها لمعارف الروح قاصرة عن أن تنيلهم ما أرادوا.

لقد حدس القدماء فلم يهدهم حدسهم إلى شيء، ولقد جرب المحدثون فلم تهدهم تجربتهم إلى شيء، ويقف الإنسان مكتوف اليدين أمام غياب السرار، ويردد حكم القرآن في اعتراف بالعجز: (ويسئلونك عن الروح، قل الروح من أمر ربِّي، وما أُوتِيتُم من العلم إِلَّا قَلِيلًا) (١).

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن منكري (المغيبات) ليسوا سوى طائفة من الناس تنظر إلى الإنسان من أحد جوانبه وتبني أحکامها على ما ترى غير حاسبة أن ثمة غير هذا الجانب، وأن حكمها على الإنسان قبل الإحاطة به من أقطاره - في الحدود التي تبلغها المعرفة - ضرب من الخبط العشوائي الذي لا يليق بمن يدعى العلم ويستهديه فيما يفعل أو يقول، وهؤلاء أشبه بمن يحكم بأن لون الهرم أحمر لمجرد أنه رأى ضلعا واحدا من أضلاعه بهذا اللون قبل أن يرى بقية الأضلاع.

٨٦ آية الاسراء: سورة (١)

وحيث قد عرفا أن في الإنسان قوى وراء جهازه العصبي والمحشوبي ووراء خدده وخلاليه لا ندركها بما لدينا من وسائل المعرفة، فلا مبرر لانكار (إمكان) أن يكون لدى إنسان من الناس، بسبب ما يتمتع به من سمو روحي ونقاء داخلي - وهذه صفات قابلة للتفاوت - قدرة على معرفة ما يخبئه الغد وتضططم عليه أحشاء المستقبل .
وإذا كان (يمكن) أن يوجد إنسان كهذا فلنقم بنقلة ثبت أن إنسانا كهذا موجود بالفعل).

(٢)

منذ القدم لاحظ الناس في بعض الأفراد شيئاً خارقاً للعادة، وكان ذلك الشيء هو الإطلاع على حادث وقع في مكان يبعد عن مكان الرائي بمئات الأميال، أو قراءة أفكار الآخرين الخفية، أو التنبؤ بما سيقع لبعض الناس في الغد القريب أو البعيد.

وقد اعتبر القدماء هذه الظواهر شيئاً صادقاً ولكن لا سيل إلى تعليله، وانتهت المسألة عند هذا الحد.

وغيّرت القرون والناس يؤمنون بهذا حتى نجمت طلائع الثقافة الحديثة، فجرفت فيما جرفته من مخلفات القرون هذه الفكرة، استناداً إلى أن الروح لا واقع لها، فلا شيء من هذا يمكن أن يكون موضع إيمان وإذعان.

ولكن ظاهرة كهذه لا يمكن أن تذهب وتنسى بمثل هذه السهولة، فليس أمراً عادياً أن يتمتع إنسان من الناس بقوى خارقة تتجاوز كل قانون علمي معروف.

وهكذا عادت هذه الظاهرة ففرضت نفسها على العلماء من جديد، وغدت موضوعاً للبحث العلمي عند علماء مشهورين مشهود لهم بدقة النظر، أمثال:

سيير أوليفر لودج، ووليم كروكس، وألفرد رسل ولاس، وهؤلاء الثلاثة من أعضاء الجمعية العلمية الملكية. ووليم جيمس، وشارل ريشيه، وهنري سدجوك، وهانز دريش، وهنري برجسون، والدكتور ميرس، ورتشارد هودسون، وتشارلس اليوث نورثون أستاذ بجامعة هارفارد، ووليم ر. ليوبولد أستاذ علم النفس والفلسفة في جامعة بنسلفانيا، والفلكي الفرنسي المشهور كاميل فلامريون، وتوماس هكسلي.. وغيرهم، وهذا العدد في تعاظم يوماً بعد يوم. وكانت أول خطوة جدية في سبيل التثبت من صدق هذه الظاهرة هي تأليف جمعية المباحث النفسية في بريطانيا سنة ١٨٨٢، وقد اشترك فيها عدد جم من العلماء وال فلاسفه، فأصدرت مجلة تطلق بلسانها. وكان أول رئيس انتخب لها هو البروفيسور هنري سدجوك.

وقد انتهت هذه الجمعية في بحثها طريقة جمع الوثائق وفحصها، فإذا سمع الباحثون بشخص ما يمتلك موهبة خارقة أرسلوا إليه ملاحظين معتمدين يقومون بدراسة ما يقوم به ذلك الشخص ويضعونه تحت المراقبة الدقيقة، ثم يقدمون عنه تقريراً بما شاهدوه.

وقد كان لنجاح هذه الجمعية صدأه في أنحاء العالم، فأسست لها فروع في أقطار أخرى كفرنسا وأمريكا وهولندا والدانمارك والنرويج وغيرها. وقد اكتشف الباحثون الذين اشتغلوا عليهم هذه الجمعيات وغيرهم أن في الإنسان ملكات نفسية خارقة أهمها ثلاثة: تناقل الأفكار، ورؤيا الأشياء من وراء حاجز أو عن بعد، والت卜ؤ.

وقد تعزى إصابة الإنسان في التنبؤ إلى الصدفة، ولكن جمعيات المباحث النفسية أثبتت كذب هذه الدعوى بصورة قاطعة، فقد أثبتت السير أوليفر لودج عضو جمعية المباحث النفسية البريطانية والعالم الطبيعي المشهور، أن قدرة الإنسان على التنبؤ أعلى جداً من مستوى الصدفة حسب قانون الاحتمالات.

وعلى أثر اطلاع البروفيسور راين على حلم عجيب ذي تفاصيل عجيبة دقيقة تحقق في الخارج بحذافيره، أسس في سنة ١٩٣٠ فرعا في جامعة ديو克 في ولاية كارولينا الشمالية في أمريكا لدراسة القوى النفسية دراسة مختبرية.

وقد أيده وساعدته في عمله وليم مكدو جل الباحث النفسي المشهور.

وقد اتخد راين في بحثه طريقة غير طريق جمعيات المباحث النفسية، وبينما كانت تلك الجمعيات تهتم بذوي المواهب الخارقة وحدهم اهتم هو بفحص الفرد العادي لمعرفة مقدار ما لديه من قوى خارقة. وقد أثبتت التجارب المتعددة التي أجراها راين وغيره، أن الإنسان يملك في الغالب قدرة على الحدس بمعدل يفوق معدل الصدفة قليلا أو كثيرا.

وذلك هو ما أثبتته اختبار جامعة (كولورادو) الذي أجري على ثلاثة شخص.

وقد أثارت تجارب راين ضجة كبيرة في الأوساط العلمية، حتى لقد حاول بعض الباحثين أن يحرر تجاربه سرا مخافة أن ينفضح أمره بين زملائه فيكون موضوع السخرية منهم.

ويروي راين أن أحد الباحثين في أمريكا توصل في تجاربه إلى نتائج هامة، ولكنه امتنع عن نشرها وقال: إن عائلتي تريد طعاما. أي أنه يخشى نشر أبحاثه فتعزله الجامعة التي يعمل فيها وتبقى عائلته بغير طعام.

وقد كان من آثار هذه الضجة أن اجتمع مؤتمر الاحصاء الرياضي في أمريكا وناقش الناحية الاحصائية من أبحاث راين، ثم أذاع البلاط التالي: (إن أبحاث راين لها ناحيتان: تجريبية وإحصائية. والرياضيون لا يستطيعون أن يقولوا شيئا عن الجانب التجريبي منها. أما الناحية الاحصائية، فقد أظهرت

الأبحاث الرياضية الحديثة أن التحليل الاحصائي فيها صحيح. وإذا كان من الممكن أن تهاجم أبحاث راين فإنها ينبغي أن تهاجم من ناحية أخرى غير الناحية الرياضية).

ويظهر أن الرأي العلمي أخذ يتجه حديثاً إلى الاعتراف بحقيقة هذه القوى الخارقة، وقد أدلى البروفيسور ثولس أستاذ علم النفس بجامعة كمبردج ببيان في هذا الصدد قال فيه:

(إن هذه الظاهرة يجب أن تعتبر حقيقة ثابتة كآية حقيقة أخرى توصل إليها البحث العلمي، فلنترك إذن أمر البرهنة على وجودها في سبيل إقناع المرتابين، ولنتوجه عوض ذلك نحو الاستمرار على دراستها بقدر الامكان، فإنا باطلاعنا على طبيعتها اطلاقاً أو في نجد الصعوبات التي تكتنف التصديق بوجودها قد قلت إلى حد بعيد) (١).

(١) هذا البحث مقتبس من الدكتور علي الوردي: خوارق اللاشعور، ص ١٦٥ - ١٧٦ .
ولأجل التوسيع في الموضوع يحسن بالراغب مراجعة: على أطلال المذهب المادي بأجزاءه الأربع للباحث محمد فريد وجدي، فقد أفضى إفاضة طيبة في الناحية الوصفية للمسألة.

(٣)

وإذ قد اعتبرت هذه الظاهرة شيئاً واقعاً لا سبيل إلى نكرانه فقد اتجه العلماء إلى تبيان القانون العلمي الذي يمكن إدراجها فيه، وإلى معرفة ماهية هذه القوى ومصادرها في الإنسان.

وقد وضعت لأجل هذا فرضيات كثيرة تعتمد كل واحدة منها وجهة نظر معينة في المسائل الطبيعية، ولكن لفرضية سينل من بين هذه الفرضيات مؤيدین كثیرین، ويبدو أن عدداً كبيراً من العلماء الطبيعیین یمیلون إليها، وذلك لما فيها من بساطة وملائمة للنظريات الفیزیائیة الحديثة.

فالرأي السائد بين الفیزیائیین يتوجه إلى اعتبار الكون كله مؤلفاً من أمواج كهربائية، وما المادة إلا أمواج كهربائية قد كورت في حيز ضيق.

وعلى هذا الأساس يبني سينل فرضيته، فهو يرى أن كل مادة في الكون تتبع ذبذبات وأمواجاً أثيرية خاصة لا تدركها الحواس الخمس (وهذه حقيقة قررها البروفیسور دنكان أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة نيويورك سابقاً).

ويؤيد فرضية سينل هذه أن الأبحاث الحديثة اكتشفت أنواعاً معينة من الأمواج الكهربائية تنطلق من دماغ كل إنسان. ويذهب الدكتور دايفس إلى القول بأن كل فرد يطلق من رأسه أمواجاً دماغية خاصة به دون غيره.

(١٦١)

وإذن، فسبب هذا الاحساس الخارق هو أن منطقة معينة من جسم الانسان تتلقى أمواجا كهربائية يتاثر بها الانسان من حيث لا يشعر.

وقد اعترض على هذا التفسير، أولاً: بأن الأمواج الكهربائية تضعف ببعد المسافة، وقد اكتشف الباحثون أن الاحساس الخارق لا يتاثر بالمسافة. وثانياً: بأن التنبؤ يدخل في حملة الظواهر الخارقة عند الانسان كما عرفت، وهذا ينافي فرضية الأمواج إذ لا يتصور صدور أمواج من شئ لم يوجد بعد.

وقد أجيب عن الاعتراض الأول بأن سرعة الأمواج الكهربائية تختلف باختلافها طولاً وقصراً، فالموجة القصيرة لا يؤثر عليها البعد والقرب، وقد تكون الأمواج التي يطلقها الدماغ ويتلقاها من أقصر الأمواج الكهربائية.

وأما التنبؤ فيمكن أن يبني على نظرية البرت اينشتاين في الزمان.

يختلف تصورنا التقليدي للفضاء عن تصور اينشتاين له. فالفضاء - كما نتصوره - فراغ ذو ثلاثة أبعاد: الطول والعرض والارتفاع، بينما يذهب اينشتاين إلى إن للفضاء أربعة أبعاد: الطول والعرض والارتفاع والزمان.

وإذن، فللزمان، في النظام الموضوعي للكون، كيان حقيقي وليس عبارة عن اختراع أقررناه لنقيس أعمالنا. وهو، لذلك، بعد للفضاء لا يفترق عن الابعاد الثلاثة الأخرى، غير أنها لا نوعيه لأن أدوات الادراك عندنا قاصرة عن إدراكه.

ومعنى هذا أن التنبؤ عن حوادث المستقبل لا يختلف في جوهره عن الاحساس بأشياء موجودة في الوقت الحاضر، فالنفس البشرية التي تستطيع أن تخترق حاجز المسافة المكانية بما تملك من قوى خارقة تستطيع أيضاً أن تخترق حاجز المسافة الزمانية بهذه القوى. إنها قد تبصر بها شيئاً مغيباً عنها في ثنایا

المستقبل، بنفس السهولة التي تبصر بها شيئاً مغيباً عنها في أحد الأبعاد الثلاثة الأخرى من الفضاء.

والأمواج الكهربائية على مختلف أنواعها تتحرك في فضاء ذي أربعة أبعاد، أي الأبعاد الثلاثة مسافاً إليها بعد الزمان، والقرائن التي تدل على هذا هي: أولاً: كشفت الأبحاث الفيزيائية الحديثة أن شعاع الضوء يظهر على شكل موجات تارة وعلى شكل دفقات متتالية تارة أخرى. وقد حار العلماء في تفسير هذا الازدواج العجيب في شخصية الشعاع الضوئي. ومن المحتمل أننا حين نرى الضوء على شكل دفقات متتالية، إنما نستبين منه قمم الموجات فقط أما البقية المختفية من الموجات فتذهب في الزمان أي في البعد الرابع، لأن أمواج الضوء تتحرك في فضاء ذي أربعة أبعاد.

ثانياً: كشفت الأبحاث الذرية عن أن الإلكترون يقفز داخل الذرة من مدار إلى آخر ولا يلتزم مداراً ثابتاً. وهو حين يقفز من مدار إلى آخر لا يمر بالمسافة التي تفصل بين المدارين، إنه يختفي من مدار ليظهر في المدار الآخر، فأين يذهب أثناء القفز؟ إنه في الظاهر يذهب في الزمان الذي هو بعد رابع، لأنه يسبح في فضاء ذي أربعة أبعاد.

ثالثاً: لا يخضع الإلكترون في سيره لقانون، وإنما هو يسير سيراً عشوائياً في الظاهر. وهناك طائفة كبيرة من العلماء يفسرون هذه الحركة العشوائية في سير الإلكترون بأنها ناتجة عن قصورنا عن مراقبة حركته على نحو صحيح، وذلك أننا، في نظر هؤلاء العلماء، نراقب ظل الإلكترون فقط ولا نستطيع أن نراقبه نفسه لأنه يتحرك في فضاء ذي أربعة أبعاد، ونحن نراقبه من خلال أبعادنا الثلاثة، فهذه الفرضيّة التي نراها في سير الإلكترون إنما ترجع إلى أننا لا

نراه نفسه وإنما نرى ظله، لأن ما يتحكم في سيره كامن في الزمان الذي هو بعد يخضع له الإلكترونيون في سيره.

فهذه الفرضية، فرضية سير الأمواج الكهربائية في فضاء ذي أربعة أبعاد، لا نجد صعوبة في قبولها بناء على ما جاء به أينشتاين من مفهوم جديد للزمان والمكان. وعلى هذا، فالتنبؤ بحوادث المستقبل ليس مستحيلاً، لأن الأمواج الخفية التي تساعدنا على الاحساس الخارق لا يصعب عليها أن تتصل بالمستقبل وتكشف ما يحدث فيه، فهي تتحرك في كون ليس فيه مستقبل ولا ماض (١). *

وإذن فهذه الظاهرة التي تشمل الرؤية عن بعد، وانتفال الأفكار، والتنبؤ، أمر واقع لا سبيل إلى نكرانه، كما اعترف بذلك جمهرة من العلماء الاشتات مرت عليك أسماء بعضهم.

وقد عرفت أيضاً أن العلم الحديث يتوجه إلى البحث عن ماهية هذه الظاهرة وحقيقةها.

وقد رأيت الفرضية التي يفسرون بها هذه الظاهرة، وهي، إذا صحت، لا تبين لنا حقيقتها وما هي، فالعلم لا يعرف عن ماهية هذه الأمواج النفسية شيئاً وإنما توضح آليات عملها و مجالاته.

وإذا كان العلم الحديث يقبلها كحقيقة موضوعية لا مراء فيها. وإذا كان العلماء المحدثون يسعون إلى الكشف عن حقيقتها والتعرف على

(١) هذا البحث مقتبس من الدكتور علي الوردي: خوارق اللاشعور، ص: ١٧٩ - ١٩٦.

آلياتها فهل يبقى بعد ذلك مجال لنكرانها لأننا لا نعرف ماهيتها؟ اللهم لا، لأننا سنكون حينئذ كذلك الأعمى الذي ينكر وجود النور لأنه لا يراه. وإذا كانت هذه الظاهرة حقيقة واقعة، وإذا كانت القوانين العلمية الحديثة لا تأباهما، فلا حرج علينا إذن في أن ندرسها عند أمير المؤمنين عليه السلام، كما تبدو لنا في نهج البلاغة وغيره.

(١٦٥)

(٤)

قد دلت الأبحاث الحديثة كما عرفت على أن كل إنسان يملك مقداراً من هذه القوة الخارقة التي تكشف له عما اضطمت عليه أحشاء المستقبل، ولكن الناس إذا تساووا في نوع هذه القوة فإنهم يختلفون في مقدارها.

فقد ثبت أن هذه الحاسة توجد عند بعض الناس بقوة تثير الدهشة، بينما توجد في بعض آخر على حال من الضعف والوهن لا تكاد تبين معه، فما السبب في هذا التفاوت؟

لقد تبين للباحثين أن قوة هذه الحاسة تتناسب تناصباً طردياً مع درجة الصفاء الروحي والنقاء الداخلي التي يتمتع بها الشخص، فكلما كان الإنسان صافي النفس، نقى الضمير، منعقتاً من أسر التقاليد الاجتماعية الضارة، متغلباً على قيد الضرورة وما إليها، خالي النفس من العقد والاحقاد والمطامع، كانت هذه الحاسة فية قوية بالغة القوة، وكلما كان الإنسان مشوش النفس موزع الضمير مستغرقاً في حواسه، أسيراً لضرورات جسده وشهواته، غارقاً في مجتمعه، كانت هذه الحاسة فيه ضامرة لا تكاد تبين (١).

(١) الدكتور علي الوردي: خوارق اللاشعور.

فهذه الحاسة لا تنشط إلا في ساعات الصفاء العقلي والروحي والوجوداني، فعند ذلك تبلغ أقصى قوتها.

إذا شئنا أن نبحث عن هذه الظاهرة في حياة الإمام عليه السلام طالعتنا فيه على أتم وأكمل ما تكون، فلقد بلغ من الصفاء الروحي حدا لم يدارنه فيه إنسان على الإطلاق ولم يزد عليه فيه إلا النبي صلى الله عليه وآله.

وتاريخ حياته عليه السلام سلسلة ذهبية من هذه الظواهر الرائعة الفاتنة.

وإذا صح أن تجردا وصفاء وقتين يقوم بهما إنسان عادي يتihan له إطلاق قواه الخارقة، فما قولك فيما كانت حياته كلها تجردا روحيا وصفاء لا يعدله في بني الإنسان صفاء؟.

إن هذه الظاهرة التي تبدو لأعيننا في تاريخ حياته لتدل على أنه كان يدخل في وسعه أن يطلق قواه الخارقة متى أراد، وأن يعي ما غاب عنه في أحشاء الزمان وطوابيا المكان متى شاء.

ويصدق قولنا هذا ما أثبته المؤرخون وتسالموا عليه من إخباراته بالمعيقات وصدق ما أخبر به ووقوعه بعده بأzman.

* * *

لم يعن الشريف رحمة الله، حين آلى على نفسه أن يجمع كلامه عليه السلام، بهذه الناحية عنابة تستحق الذكر، مما في نهج البلاغة من اخباراته بالمعيقات لا يبلغ عشر ما نسب إليه وصح عنه.

وهذه الطائفة التي ذكرها الشريف من إخباراته تجئ على أقسام:

- ١ - غرق البصرة.
 - ٢ - تسلط الظالمين على الكوفة.
 - ٣ - تغلب معاوية على الخلافة.
 - ٤ - مصير الخوارج ونهاية أمرهم.
 - ٥ - مروان وخلافته.
 - ٦ - حرب الزنج.
 - ٧ - ولادة الحجاج.
 - ٨ - الأتراك.
 - ٩ - بنو أمية: ظلمهم ونهايتيهم.
 - ١٠ - خروج المهدي عجل الله فرجه.
 - ١١ - فتن تشمل الدنيا وتهلك الحمر والنسل.
- في هذه العناوين ينحصر ما ذكره الشريف في نهج البلاغة من الاخبار بالغميّات، وستتكلّم في كل واحد من أولئك على حدة. ذاكرين بعد ذلك ما أهمله الشريف ولم يعن به.
- * * *

لقد تحدث الإمام عليه السلام عن علمه بالغميّات في مناسبات كثيرة منها قوله:

(.). فاسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شئ فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فتنة تهدي مائة وتضلل مائة إلا أنباتكم بناعقها (١)، وقادتها ، وسائقها ، ومناخ (٢)

(١) ناعقها: الداعي إليها مأنحوذ من (نقع بغميّه) إذا صاح بها لتجتمع.

(٢) مناخ.. في الأصل: محل بروك الإبل، استعمل هنا للتعبير عن مصير الفئة الضالة أو الهدادية ونهايتها.

ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا
ومن يموت منهم موتا، ولو قد فقدتموني، ونزلت
بكم كرائه الأمور (١) وحوازب الخطوب (٢)،
لأطرق كثير من السائلين وفشل كثير من
المسؤولين (٣).

وقد ذكر عليه السلام أنه استقى علمه هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
فقد أتى في كلام له بعد أن هزم أصحاب الجمل في البصرة، على ذكر بعض
ما يلم بالبصرة من الخطوب، فذكر فتنة الزنج وذكر التتر، فقال له بعض
 أصحابه لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب، فضحك الإمام وقال للرجل:
(ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم،
وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدد الله سبحانه
بقوله: (إن الله عنده علم الساعة). الآية.

فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله، وما
سوى ذلك فعلم علمه الله لنبيه فعلامنيه، ودعا لي
بأن يعيه صدرى وتضطم (٤) عليه جوانحى (٥).

وقال مخاطبا أصحابه في موقف آخر:
(والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجك

(١) كرائه الأمور: جمع كريهة، المصائب الكبرى.

(٢) الحاذب: الخطب الشديد، يقال (حزبه الامر) إذا اشتد عليه.

(٣) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٩١.

(٤) تضطم: افتعال، من الضم، أي وتنظم عليه جوانحى، والجوانح: الأضلاع تحت
الترائب مما يلي الصدر، وانضمماها عليه: اشتمالها على قلب يعيها.

(٥) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ١٤٦.

ومولحه (١) وجميع شأنه لفعت، ولكن أخاف
أن تكروا في برسول الله صلى الله عليه وآلـه، ألا وإنـي
مفضـيه (٢) إلى الخاصة ممن يؤمنـ ذلك منه.

والذـي بعـثـه بالـحقـ واصـطـفـاه عـلـى الـخـلـقـ ماـ أـنـطقـ
إـلاـ صـادـقاـ، وـقـدـ عـهـدـ إـلـيـ بـذـلـكـ كـلـهـ، وـبـمـهـلـكـ
مـنـ يـهـلـكـ وـمـنـجـيـ مـنـ يـنـجـوـ، وـمـآلـ هـذـاـ الـأـمـرـ،
وـمـاـ أـبـقـىـ شـيـئـاـ يـمـرـ عـلـىـ رـأـسـيـ إـلاـ أـفـرـغـهـ فـيـ أـذـنـيـ
وـأـفـضـيـ بـهـ إـلـيـ (٣).

وقـالـ:

(أـيـهـاـ النـاسـ لـاـ يـجـرـ مـنـكـمـ شـقـاقـيـ (٤)، وـلـاـ
يـسـتـهـوـيـنـكـمـ (٥) عـصـيـانـيـ، وـلـاـ تـرـامـواـ بـالـبـصـارـ (٦)
عـنـدـمـاـ تـسـمـعـونـهـ مـنـيـ، فـوـالـذـيـ فـلـقـ الـحـبـةـ وـبـرـأـ
الـنـسـمـةـ (٧)، إـنـ الـذـيـ أـنـبـأـكـمـ بـهـ عـنـ النـبـيـ الـأـمـيـ
صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ، مـاـ كـذـبـ الـمـبـلـغـ وـلـاـ جـهـلـ السـامـعـ (٨).

(١) المخرج: محل الخروج، والمولج: محل الولوج، الدخول، أي: أخبره من أين يخرج، وأين يدخل.

(٢) مفضـيهـ: أصلـهـ مـنـ (أـفـضـيـ إـلـيـ) إـذـاـ خـلـاـ بـهـ. وـالـمـرـادـ أـنـهـ مـوـصـلـهـ إـلـىـ أـهـلـ الـيـقـيـنـ مـنـ لـاـ
تـخـشـىـ عـلـيـهـمـ الـفـتـنـةـ.

(٣) نهج البلاغة: رقم الخطبة: ١٧٣.

(٤) لـاـ يـجـرـ مـنـكـمـ لـاـ يـحـمـلـكـمـ وـيـكـسـبـنـكـمـ، (شـقـاقـيـ) عـصـيـانـيـ. أـيـ لـاـ يـكـسـبـنـكـمـ عـصـيـانـيـ
الـخـسـرـانـ وـالـضـيـاعـ.

(٥) لـاـ تـقـعـوـاـ فـيـ هـوـىـ الـعـصـيـانـ.

(٦) تـرـامـواـ بـالـبـصـارـ. يـنـظـرـ بـعـضـكـمـ إـلـىـ بـعـضـ تـعـجـباـ وـاستـكـارـاـ.

(٧) أـنـبـتـ الـحـبـةـ، وـخـلـقـ الـرـوـحـ.

(٨) نهجـ الـبـلـاغـةـ، رقمـ الـخـطـبـةـ: ٩٩ـ، وـلـاحـظـ فـيـ النـصـ رـقـمـ: ١٦ـ قـوـلـهـ: (ولـقـدـ نـبـئـتـ
بـهـذـاـ الـمـقـامـ وـهـذـاـ الـيـوـمـ).

في هذه النصوص يصرح الإمام عليه السلام بأن علمه بالمغيبات جاءه عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله.

والذي يستوقفنا في هذا هو أننا لا نستطيع أن نتصور أن النبي قد أفضى إلى الإمام بكل حادثة من الحوادث المقبلة على نحو التفصيل، لأن الظرف الزمانى الذي جمع بين النبي والامام لا يسع شيئاً مثل هذا حتى لو فرضنا أن الإمام قد احتضن بأوقات فراغ النبي كلها، فهو عليه السلام يقول:

(فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شئ فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها). (١).

ويقول:

(سلوني قبل أن تفقدوني، فلانا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض). (٢).

ويقول:

(. والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت.. وقد عهد إلي بذلك كله وبمهلك من يهلك ومنحي من ينجو، وما مآل هذا الامر، وما أبقى شيئاً يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني وأفضى به إلي) (٣).

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٩١.

(٢) نهج البلاغة، رقم النص: ١٨٧.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص: ١٧٣.

فهذا علم واسع بالغ السعة مترابط الآفاق، ومهما يكن الظرف الزمانى الذى قضاه الامام مع النبي طويلاً، ومهما تكون الأوقات الخاصة التي يفرغ فيها النبي للامام وحده طويلة وكثيرة، فإن ذلك كله لا يسع الافضاء ببعض هذا العلم إلى الامام على نحو التفصيل، بحيث يتناول التعليم الجزئيات الدقيقة، والتفصيلات الكثيرة، فضلاً عن أن يسع الافضاء إليه بكل هذا العلم على هذا النحو من الافضاء.

وإذ كانت الحال على هذا فلا نستطيع أن نتصور أن النبي قد أفضى إلى الإمام بكل حادثة من الحوادث المقبلة إلى قيام الساعة على نحو التفصيل، ولكن الإمام عليه السلام يصرح بما لا يدع مجالاً للشك بأنه قد استقى علمه هذا من النبي صلى الله عليه وآله، فكيف السبيل إلى ملائمة هذا الذي يقوله الإمام مع ما تبين لنا من عدم استيعاب الظرف الزمانى للافضاء بكل هذه العلوم؟
الذى أراه هو أن النبي صلى الله عليه وآله لم يفض إلى الإمام بالمغيبات على نحو التفصيل

الذى يلم بجميع الجزئيات، فقد رأينا أن العقل يحيل ذلك لأن الزمان مهما يطل لا يتسع له. وإنما أفضى إليه بهذه المغيبات على نحو الاجمال لا التفصيل.
فقد رأينا ان نشاط هذه القوى الخفية المودعة في الانسان والتي تصله بالمحظوظ المحجوب في أحشاء الزمان أو ثنيا المكان، يتوقف على الحالة العقلية والروحية والوجدانية التي يكون عليها الانسان، فكلما كان الانسان على حال رفيعة من الصفاء العقلي والطهارة الروحية والنقاء الوجداني كانت هذه القوى أنشط وأبلغ في النفوذ إلى المغيب المحجوب، والذي نراه بالنسبة إلى الإمام عليه السلام

هو ان النبي قد أخبره بالمغيبات على نحو الاجمال ثم هداه إلى أقوم السبل التي تؤدي به إلى أرفع درجات هذه الحالة الروحية التي تتيح لقواه الخفية ان تعمل عملها الخارق فيعي بسببها تفصيل ما أجمله له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبهذا التفسير وحده نستطيع ان نلائم بين علم الإمام الواسع بالمعيقات الذي يسنه إلى الرسول وبين الظرف الزماني الضيق نسبياً الذي جمع بينه وبين الرسول، وليس هذا التفسير اعتباطياً فلدينا عليه شاهد مقبول.

وهذا الشاهد الذي يعني هو أن النبي صلى الله عليه وآله خلى بالأمام فأدخله في ثوبه ونماه في اللحظات القليلة الأخيرة التي قبض بعدها، فلما فرغ من نجواه خرج الإمام من عنده فسأل الناس عما أفضى به إليه فقال: (علمني ألف باب ينفتح لي من كل باب ألف باب).

فمهما كانت اللحظات التي خلا بها النبي مع الإمام كثيرة لا نستطيع أن نتصور كيف أفضى إليها فيها بآلف باب من العلم على نحو التفصيل، لأنها مهما طال مدتها لا تتسع للافضاء ببعض هذا العدد الكبير، فلابد من القول بأنه أفضى إليه بهذه الألف باب على نحو الاجمال وذلك بإعطاء الظوابط الكبرى التي تشمل كثيراً من الأبواب.

ولعل قوله: (ينفتح لي من كل باب ألف باب) أبلغ دلالة على ما نقول من أنه علمه على نحو الاجمال لا على نحو التفصيل، وأنه اتكل في معرفة الجزئيات والتفاصيل إلى ما يتمتع به الإمام من مواهب تسعفه في معرفة ما غاب وتهديه إلى شريعة الصواب.

قلنا إن إخباراته التي ذكرها الشريف تجئ على أقسام، منها إخباره بما يلم بالبصرة من الخطوب.

فأخبر بعد فراغه من أصحاب الجمل، عن غرق البصرة كلها بقوله:

(.. وأيم الله لتغرقن بلدتكم حتى كأني أنظر
إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة (١) أو نعامة
جائمة (٢) - (٣).

وقد صدقت الحوادث هذه النبوة، فقد ذكر ابن أبي الحديد أن البصرة غرقت مرتين: مرة في أيام القادر بالله (٤)، ومرة في أيام القائم بأمر الله (٥)، غرقت بـأجمعها ولم يق منها إلا مسجدها الجامع بارزاً كجؤجؤ الطائر حسب ما أخبر به أمير المؤمنين. وخربت دورها وغرق كل ما في ضمنها وهلك كثير من أهلها. وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة يتناقله خلفهم عن سلفهم (٦).

وأخبر عن هلاك البصرة بالزنجر، فقال مخاطباً الأحنف بن قيس بعد حرب الجمل:

(يا أحنف كأني به وقد سار بالجيش الذي لا يكون له غبار ولا لجب (٧) ولا قعقة لجم (٨)

(١) الجؤجؤ: الصدر. هنا: صدر السفينة.

(٢) جسم الطائر: تلبد بالأرض، وهيئة النعامة الجائمة على الأرض كهيءة السفينة من مقدمها.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص: ١٣.

(٤) القادر بالله، أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر. بويع بالخلافة في يوم ١٢ رمضان سنة ٣٨١ هـ (٣ أكتوبر (تشرين الأول) ٩٩١ م) واستمر خليفة إلى أن توفي في نهاية ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ (١٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٠٣١ م).

(٥) القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد الله بن القادر. بويع بالخلافة في ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ

(١٠٣١ م) واستمر خليفة إلى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ هـ (٣ أبريل (نيسان) سنة ١٠٧٥ م).

(٦) ابن أبي الحديد، شرح النهج: ١ - ٨٤.

(٧) اللجب: الصياح.

(٨) اللجم، جمع لجام. وقعقة اللجم ما يسمع من صوت اضطرابها بين أسنان الخيل

ولا حمامة خيل (١)، يثرون الأرض بأقدامهم
كأنها أقدام النعام. ويل لسـكـكم العـامـرة (٢) والدور المـزـخرـفة التي لها أجـنـحة

الـسـورـ (٣) وـخـراـطـيمـ كـخـراـطـيمـ الفـيـلـةـ (٤)، منـ
أـولـئـكـ الـذـينـ لاـ يـنـدـبـ قـتـيلـهـمـ وـلـاـ يـفـتـقـدـ غـائـبـهـمـ (٥)
أـنـاـ كـأـبـ الدـنـيـاـ لـوـجـهـهـاـ،ـ وـقـادـرـهـاـ بـقـدـرـهـاـ،ـ
وـنـاظـرـهـاـ بـعـيـنـهـاـ) (٦).

هذه النبوءة صدقتها الحوادث، ففي سنة خمس وخمسين وما تسعين ظهر المدعى
عليا بن محمد بن عبد الرحيم وجمع الزنوج وخرج بهم على المهتمي العباسي (٧)،
واستشرى أمره، وكاد يبيد البصرة ويقتل أهلها، واستمرت الحرب بينه وبين
السلطة المركزية خمسة عشر عاماً، فقد قتل في سنة سبعين وما تسعين، وقد كتب
ابن أبي الحديد فصلاً كبيراً عن هذه النبوءة (٨).

(١) الحمامة: صوت البرذون عند الشعير.

(٢) السـكـكـ: جـمـعـ سـكـةـ،ـ وـهـيـ الطـرـيقـ المـسـتـوـيـ المـمـهـدـ.ـ وـهـوـ إـخـبـارـ عـمـاـ يـصـيبـ تـلـكـ
الـطـرـقـ وـمـاـ حـوـلـهـاـ مـنـ الـمـنـازـلـ مـنـ الـخـرـابـ وـالـتـهـدـيـمـ.

(٣) أجـنـحةـ الدـورـ: رـوـاشـنـهاـ (ـجـمـعـ روـشـنـ،ـ بـمـعـنـىـ شـرـفـةـ (ـبـرـنـدـةـ))ـ وـذـلـكـ عـلـىـ التـشـيـيـهـ
بـأـجـنـحةـ الطـيـرـ.

(٤) خـراـطـيمـ الدـورـ: هـيـ الـمـيـازـيـبـ تـظـلـىـ بـالـقـارـ.

(٥) أـصـحـابـ الزـنـجـيـ،ـ وـإـنـماـ لـاـ يـنـدـبـ قـتـيلـهـمـ،ـ لـاـنـ لـيـسـ لـهـمـ زـوـجـاتـ وـأـهـلـ يـكـونـ عـلـيـهـمـ لـأـنـهـمـ
كـانـواـ عـبـيدـاـ لـيـسـتـ لـهـمـ أـسـرـ.

(٦) نـهـجـ الـبـلـاغـةـ،ـ رـقـمـ النـصـ:ـ ١٢٦ـ.

(٧) المـهـتمـيـ بـالـلـهـ،ـ مـحـمـدـ بـنـ هـارـونـ الـوـاثـقـ،ـ اـبـنـ الـمـعـتـصـمـ بـنـ الرـشـيدـ بـوـيـعـ لـهـ بـالـخـلـافـةـ يـوـمـ ٢٧ـ
رـجـبـ سـنـةـ ٢٥٥ـ (ـ١١ـ يـوـليـوـ ٨٦٩ـ مـ)،ـ وـخـلـعـ فـيـ ١٤ـ رـجـبـ سـنـةـ ٢٥٦ـ (ـ١٧ـ يـوـنيـوـ ٨٧٠ـ مـ).ـ (ـ٨ـ) اـبـنـ أـبـيـ الـحـدـيدـ:ـ شـرـحـ النـهـجـ ٢ـ -ـ ٣١٠ـ -ـ ٣٦١ـ.

ولا يفوتنا التنبيه على تنبؤه عليه السلام، في النص الآنف، بما ستكون عليه حال البصرة من الناحية العمرانية.

وأخبر عن هلاك البصرة بالتنر فقال:

(.). كأنني أراهم قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة (١)، يلبسون السرق (٢) والديباج، ويتعقبون الخيل العتاق (٣)، ويكون هناك

استحرار (٤) قتل حتى يمشي المجروح على المقتول، ويكون المفلت أقل من المأسور) (٥).

هذه النبوءة تحققت بظهور التتار واتساحهم للممالك حتى وصلوا إلى العراق فلقيت البصرة منهم أعظم البلاء وأشنعه، فقد تكدست الجثث في الشوارع والأزقة وحل بالناس منهم خوف عظيم. وقد وقعت هذه الاحاديث في زمن ابن أبي الحديد فكتب عنها فصلاً كبيراً (٦).

* * *

وقد تنبأ عليه السلام بما سيحل بالكوفة من الظالمين فقال:

(١) المجان، جمع مجن - بكسر الميم - وهو الترس، وسمى مجنًا لأنَّه يستتر به عن العدو، والجنة - بالضم - السترة، والمطرقة، هي التي الزق بها الطرق - كتاب - وهو جلد يفصل على مقدار الترس ثم يلزق به.

(٢) السرق: شقق الحرير الأبيض.

(٣) يتعقبون الخيل. أي يحتبسون كرائم الخيل لأنفسهم ويعذبون غيرهم منها.

(٤) استحرار قتل. اشتداد قتل.

(٥) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٦.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٢ / ٣٦١ - ٣٧١.

(كأني بك يا كوفة تمدين مد الأديم العكاطي (١)،
تعركين بالنوازل (٢)، وتركين بالزلزال (٣)،
وإني لاعلم انه ما أراد بك جبار سوءا إلا ابتلاه
الله بشاغل، ورماه بقاتل) (٤).

وقد صدق الحوادث نبوته، فقد تعاقب على الكوفة سلسلة من ولادة الجور،
وأعواان الظلمة، أذاقوها الصاب وساموها العذاب، فزياد ابن أبيه، وعبد الله
ابن زياد، والحجاج، ويوسف بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وخالد بن عبد الله
القسري وأضرابهم.. كلهم أقاموا الحكم في الكوفة على ركام من الجماجم
 وأنهار من الدماء (٥).

وقد تنبأ عليه السلام بتغلب معاوية على الخلافة وسيطرته على الكوفة وأنه سيأمر
أهل الكوفة من الشيعة بسب الإمام والبراءة منه، فقال:
(أما انه سيظهر (٦) عليكم بعدي رجل رحب

(١) الأديم: الجلد المدبوغ، والعكاطي نسبة إلى عكااظ - كغراب - وهو سوق كانت
تقيمه العرب في صحراء بين نخلة والطائف، يجتمعون إليه من بداية شهر ذي القعدة ليتعلّمُوا
أي يتناخروا، وأكثر ما كان يباع الأديم بتلك السوق فتنسب إليها. قوله: (تمدين مد الأديم
العكاطي) استعارة لما ينالها من العسف والشدائد، لأن ما ينزل بها من الظلم يشبه ما ينزل بالجلد
حين يردد أن يدبغ من الخبط والدق.

(٢) تعركين مأخذ من (عركتهم الحرب) إذا مارستهم حتى أتعبتهما، والنوازل: الشدائـد.

(٣) الزلزال: المزعجات من الخطوب.

(٤) نهج البلاغة، رقم النص : ٤٧ .

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١ / ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٦) سيظهر: سيغلب.

البلعوم (١)، مندحق البطن (٢)، يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه. ألا وإنه سيأمركم بسببي والبراءة مني، أما السب فسبوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تتبرؤوا مني (٣)، فإني ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة (٤).

هذه النبوة تحققت بتمامها، فقد غلب معاوية بعد صلح الحسن وأمر الناس بسب الإمام صلوات الله وسلامه عليه، والبراءة منه، وقتل طائفة من عظماء أصحابه (ع) لأنهم ثبتو على ولائه فلم يتبرؤوا منه، منهم حجر بن عدي الكندي وجماعته. وقال قوم إن المعنى بهذا الكلام زياد بن أبيه، وقال قوم إنه المغيرة بن شعبة، وكل ولی الكوفة، وأمر بالسب والبراءة (٥). *

وَتَبَأَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا سَيَصِيرُ إِلَيْهِ أَمْرُ الْخُوارِجِ مِنْ بَعْدِهِ فَقَالَ:
(. أَمَّا إِنْكُمْ سَتَلِقُونَ مِنْ بَعْدِي ذَلِكَ شَامِلاً
وَسِيفَا قَاطِعاً وَأَثْرَةً (٦) يَتَحْذَذُهَا الظَّالِمُونَ فِيهِمْ
سَنَةً) (٧).

(١) الربح: الواسع.

(٢) مندحق البطن: عظيم البطن يارزه، كأنه لعظمته مندلق من يده يكاد يمس عنقه.

(٣) قد يكون السبب نتيجة للاكراه من الظالم مع إبطان الحب والولاء، وأما البراءة من إنسان فهو الانسلاخ من مذهبه.

^{٥٧}) نهج البلاغة، رقم النص : ٤)

(٥) ابن أم الحديد: شهادة النهاج ١ - ٣٥٥

(٦) الآية: الاستداد بفهائد الملوك، و حمان الآخرين منه.

(٧) نفع السلاعة، رقم النص : ٥٨

وهكذا كان، فإن الخوارج، بعد العدل الذي لاقوه من حكومته والحرية التي تتمتعوا بها، لم يعاملوا في جميع العهود التالية إلا بالاضطهاد وال الحرب والمطاردة.

* * *

وقال لما قتل الخوارج وقيل له: هلك القوم بأجمعهم:
(كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال
وقرارات النساء^(١)، كلما نجم منهم قرن
قطع^(٢) حتى يكون آخرهم لصوصا سلايين)^(٣).
وقد صحت نبوءته، فلم يمض زمن طويل حتى نجم أمرهم مرة أخرى واستمرت بينهم وبين السلطات المركزية المتعاقبة حروب طاحنة، وكانت نهايthem أن صاروا قطاع طرق ولصوصا سلايين.

* * *

وقد تبأً بعدد من يقتل من أصحابه وبقدر من يبقى من الخوارج قبل أن يشتبك معهم في النهروان، فقال:
(مصارعهم دون النطفة^(٤)، والله لا يفلت منهم عشرة، ولا يهلك منكم عشرة)^(٥).

(١) قرارات النساء: كناية عن الأرحام.

(٢) كلما نجم منهم قرن قطع: كلما ظهر منهم رئيس قتل.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص: ٥٩.

(٤) يعني بالنطفة ماء النهر، وقد جرت المعركة معهم عند النهروان.

(٥) نهج البلاغة، رقم النص: ٥٩.

فِلَمْ يُقْتَلَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ إِلَّا ثَمَانِيَّةُ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْ الْخُوارِجِ إِلَّا تِسْعَةُ (١). *

وَقَدْ كَثُرَ كَلَامُهُ عَمَّا سِيَحْلُ بِالنَّاسِ مِنْ بَنِي أُمَّيَّةِ وَظَلَمَهُمْ، وَكَأَنَّهُ يَعْدُ بِذَلِكَ أَنفُسَ النَّاسِ لِتَلْقَيَ فَادِحَ الظُّلْمِ.

وَقَدْ تَبَأَّ بِخَلَافَةِ مُرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَبِمَا سِيَحْلُ بِالْأُمَّةِ مِنْهُ وَمِنْ أَوْلَادِهِ، وَتَبَأَّ عَنْ نِهايَةِ بَنِي أُمَّيَّةِ مَتَى تَحْيَنِ.

قَالَ مَتَبَأً بِمَصْبِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَى مُرْوَانِ:

(أَمَّا أَنَّ لَهُ إِمْرَةً كَعْلَقَةَ الْكَلْبِ أَنْفَهُ (٢) وَهُوَ أَبُو الْأَكْبَشِ الْأَرْبَعَةِ (٣) وَسَتَلَقِي الْأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلْدِهِ يَوْمًا أَحْمَرَ (٤)).

وَقَدْ تَمَّ كُلُّ مَا قَالَ، فَقَدْ كَانَتْ إِمْرَةُ مُرْوَانَ قَصِيرَةً جَدًا إِذَا لَمْ تَزُدْ عَلَى تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، وَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَبْنَاءِ أَرْبَعَةٌ هُمْ: عَبْدُ الْمَلِكِ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ وَبَشَرُّ، وَمُحَمَّدُ. وَلِيَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْخِلَافَةُ، وَلِيَ مُحَمَّدُ الْجَزِيرَةُ، وَلِيَ عَبْدُ الْعَزِيزِ مَصْرُ، وَلِيَ بَشَرُ الْعَرَاقُ. وَقَدْ حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ ظُلْمٌ عَظِيمٌ (٥). *

(١) ابن أبي الحديـد: شـرح نـهج البـلـاغـة ١ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٤٢٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦.

(٢) تصویر بالحرکة لقصر ملك مروان بن الحكم.

(٣) كنـايـة عن أولـادـهـ.

(٤) نـهج البـلـاغـة، رقم النـص: ٧١.

(٥) ابن أبي الحـديـد: شـرح نـهج البـلـاغـة ٢ - ٥٣ - ٦٠.

وقال في ظلم بنى أمية:
(. والله لا يزالون حتى لا يدعوا الله محرما إلا
استحلوه (١)، ولا عقدا إلا حلوه، وحتى لا يقى
بيت مدر ولا وبر (٢) إلا دخله ظلمهم، ونبا
به سوء رعيتهم (٣)، وحتى يقوم الباكيان
ببكيان: باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه.
وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدhem كنصرة
العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب
اغتابه) (٤).

ولا يجهل أحد مبلغ ما نزل بالناس من ظلم بنى أمية وانتهاكهم للحرمات،
واستهتارهم بالفضيلة حتى صار خلفاؤهم مثلا في الظلم والفسق والتهاك (٥).
* * *

وقد تحدث عليه السلام كثيرا عن نهاية بنى أمية وأن الامر سيصير إلى أعدائهم
بعدهم في الوقت الذي يحسب الناس فيه أنهم مخلدون.

(١) استحلال المحرم: استباحته.

(٢) بيوت المدر: المبنية من حجر، وبيوت الوبر: الخيام، أي أن ظلم بنى أمية يشمل
جميع الناس حيث كانوا.

(٣) أصله من (نبا به المنزل) إذا لم يوافقه، فارتاح عنه. أي أن ظلم بنى أمية وسوء
سياستهم في الناس، يجعل المجتمع مضطربا غير مستقر ولا آمن.

(٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٩٦.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢ - ٤٦٦ - ٤٦٧ وراجع ٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ٤٠٨ - ٤٠٩ في شأن عبد الملك بن مروان والفتنة في عهده.

قال عليه السلام: (حتى يظن الظان أن الدنيا معقوله علىبني أمية (١)، تمنحهم درها (٢) وتوردهم صفوها، ولا يرفع عن هذه الأمة سوطها ولا سيفها، وكذب الظان لذلك. بل هي مجة (٣) من لذيد العيش يتطعمنها برهة ثم يلفظونها جملة (٤)).

وقال:

(فأقسم بالله يابني أمية عما قليل لتعرفنها في أيدي غيركم وفي دار عدوكم) (٥).

هذه النبوءات بزوال ملكبني أمية على يد العباسين، وما يصنعه العباسيون من القتل والتشريد قد تحققت بحدافيرها (٦).

وقد تنبأ بولاية الحجاج وبما سيحل بالعراق من بلوائه فقال: (أما والله ليسلطنه عليكم غلام ثقيف الذيال

(١) معقوله علىبني أمية: مقصورة عليهم، مسخرة لهم، كأنهم شدوها بعقل الناقة.

(٢) درها: لبنتها

(٣) مجة: مصدر من (مج الشراب من فيه) إذا رمى به.

(٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٨٥ آخر النص.

(٥) نهج البلاغة، رقم النص: ١٠٣ ولاحظ النص رقم: ١٦٧.

(٦) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٧٨ - ٢٠٠ - ٢٠٢ و ٤٦٦ - ٤٦٧.

الميال (١)، يأكل حضرتكم ويذيب شحمتكم،
إيه أبا وذحة) (٢) - (٣).

وقال فيما رواه ابن أبي الحديد من تتمة خطبة أخرى تنبأ فيها بولادة الحجاج
ابن يوسف الثقفي ويوسف بن عمرو الثقفي:
(). وستليكم من بعدي ولاة يذبونكم بالسياط
والحديد. وسيأتيكم غلاما ثقيف: أخفش
وجعبوب، يقتلان ويظلمان وقليل ما
يمكثان).

قال ابن أبي الحديد:

(). الأخفش الضعيف البصر حلقة، والجubbوب القصير الدميم، وهما الحجاج
ويوسف بن عمرو وفي كتاب عبد الملك إلى الحجاج: قاتلك الله أخيفش العينين
أصلك الجاعرتين. ومن كلام الحسن البصري (ره) يذكر فيه الحجاج: أثانا

(١) الديال: الطويل القد، الطويل الذيل، المتبحر في مشيته، والميال: الجائز المائل عن طريق الحق والعدل.

(٢) الوذحة: قال الشريف الرضي رحمه الله بعد أن أورد هذا النص: الوذحة الخنفساء.
وهذا القول يومني به إلى الحجاج، وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضع ذكره.
وقد أورد ابن أبي الحديد عند شرح هذه الفقرة عدة روایات عن الحجاج الثقفي في شأن
الوذحة.

راجع الجزء ٧ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ من شرح نهج البلاغة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،
نشر دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٠ م.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص: ١١٤.

أخيفش أعييش يمد بيد قصيرة البناء ما عرق فيها عنان في سبيل الله. وكان المثل يضرب بقصر يوسف بن عمرو كان يغضب إذا قيل له قصير) (١). *

راجع النصوص التالية: رقم ١٣ و ١٤ و ٤٦ و ٥٦ و ٥٧ و ٧٠ و ٨٤ (آخر النص) و ٩٠ و ٩٥ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٢ و ١٠٥ و ١١٣ و ١٢٥ و ١٣٦ و ١٤٥ و ١٤٩ و ١٥٦ و ١٦٤ و ١٧٣ و ١٨٥ و ١٨٧.

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ - ١٣٢ - ١٣٣ و ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٥)

قلنا أن الشرييف رحمة الله لم يذكر في نهج البلاغة كل ما صح عن أمير المؤمنين من أخباره بالغميبيات، ولكن ابن أبي الحديد قد سد هذا النقص حين أضاف في ذكر ما صح عنه عليه السلام في هذا الباب.

ومما يحسن ذكره هنا أن ابن أبي الحديد لم ينقل كلما وقع إليه من أخبار الإمام بالغميبيات، بل حرق فيما وقع إليه من ذلك فطرح المشتبه أمره، وذكر ما صح عنه عليه السلام.

قال ابن أبي الحديد:

(.). وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم (١) فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه، ووجدت في كثير منها اختلالاً ظاهراً. وهذه المواقع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة بل من كلام وجدته متفرقاً في كتب مختلفة (٢).

وعمل ابن أبي الحديد هذه الظاهرة الفذة في الإمام بقوله:

(١) الملاحم: جمع ملحمة، وهي الواقعة العظيمة.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح النهج ٢ - ٥٠٨.

(واعلم أنه غير مستحيل أن تكون بعض الأنفس مختصة بخاصية تدرك بها المغيبات، وقد تقدم من الكلام في ذلك ما فيه الكفاية (١)، ولكن لا يمكن أن تكون نفس تدرك كل المغيبات، لأن القوة المتناهية لا تحيط بأمور غير متناهية، وكل قوة في نفس حادثة فهي متناهية. فوجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام لا على أن يريد به عموم العالمية، بل يعلم أموراً محدودة من المغيبات، مما اقتضت حكمة الباري سبحانه أن يؤهله لعلمه). (٢).

* * *

ولابن أبي الحديد هذا نص طويل ذكر فيه طائفة كبيرة من إخبارات الإمام بالمغيبات، نذكره لطراحته، ولما له من الصلة ببحثنا هذا، على أن تتبعه بذكر ما أهمل ابن الحديد ذكره في هذا النص وذكره في مناسبات أخرى. قال: (.) وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادعاء الربوبية ولا ادعاء النبوة، ولكنه كان يقول إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك، ولقد امتحنا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة.

(كأنه عن الضربة التي يضرب في رأسه فنخضب لحيته).

(وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهم السلام، وما قاله في كربلاء حيث مر بها).

(وإخباره بملك معاوية الامر من بعده).

(وإخباره عن الحجاج وعن يوسف بن عمرو).

(١) تقدم منه كلام في هذا في ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٢) المصدر السابق ٢ - ٥٠٨.

(وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهر وان.

(وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب.

(وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والممارقين.

(وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شخص عليه السلام إلى البصرة

لحرب أهلها.

(وإخباره عن عبد الله بن الزبير قوله فيه: (خب ضب، يروم أمرا ولا

يدركه، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا، وهو بعد مصلوب قريش).

(وإخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة أخرى بالزنج..

(وكإخباره عن ظهور الرایات السود من خراسان، وتنصيصه على قوم من

أهلها يعرفون ببني رزيق - بتقدیم المهملة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن

الحسين وولده وإسحق بن إبراهيم، و كانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية.

(وإخباره عن الأئمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر والداعي

وغيرهما في قوله عليه السلام:

(وإن لآل محمد بالطالقان لكنزا سيظهره الله

إذا شاء، دعاؤه حق، حتى يقوم بإذن الله

فيدعو إلى دين الله).

(وكإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة وقوله إنه يقتل عند

أحجار الزيت.

(وك قوله عن أخيه إبراهيم المقتول ببا حمرا:

(يقتل بعد أن يظهر ويقهر بعد أن يقهر).

وقوله فيه أيضاً: (يأتيه سهم غرب تكون فيه منيته، فيا بؤسا للرامي شلت يده ووهن عضده).

(وَكَإِخْبَارُهُ عَنْ قُتْلَى وَجَ وَقُولُهُ فِيهِمْ: هُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ.

(وَكَإِخْبَارُهُ عَنِ الْمُمْلَكَةِ الْعُلُوِّيَّةِ بِالْمَغْرِبِ، وَتَصْرِيْحُهُ بِذِكْرِ كِتَامَةِ، وَهُمُ الَّذِينَ نَصَرُوا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الدَّاعِيَ الْمُعْلَمَ. وَكَقُولُهُ، وَهُوَ يُشَيرُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ، وَهُوَ أَوْلَاهُمْ: (ثُمَّ يَظْهُرُ صَاحِبُ الْقِيَوَانَ الْغَضِّ النَّضِّ ذُو النَّسْبِ الْمُحْضِ الْمُنْتَخَبِ مِنْ سَلَالَةِ ذِي الْبَدَاءِ الْمَسْجِيِّ بِالرَّدَاءِ). وَكَانَ عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ أَبِيسْ مُتَرْفَا مُشَرِّبَا بِحَمْرَةِ، رَخْصَ الْبَدَنِ، تَارِ الْأَطْرَافِ، وَذُو الْبَدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَهُوَ الْمَسْجِيُّ بِالرَّدَاءِ لَآنَ أَبَاهُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرَ أَسْجَاهُ بِرَدَائِهِ لَمَّا مَاتَ وَأَدْخَلَ إِلَيْهِ وَجْهَ الشِّيعَةِ يُشَاهِدُونَهُ لِيَعْلَمُوا مَوْتَهُ وَتَزَوَّلُ عَنْهُمُ الشَّبَهَةُ فِي أَمْرِهِ.

(وَكَإِخْبَارُهُ عَنْ بْنِي بُوْيِهِ وَقُولُهُ فِيهِمْ: (وَيَخْرُجُ مِنْ دِيلَمَانَ بْنَو الصَّيَادِ) إِشَارَةً إِلَيْهِمْ، وَكَانَ أَبُوهُمْ صَيَادُ السَّمْكِ، يَصِيدُ مِنْهُ بِيَدِهِ مَا يَتَقوَّتُ هُوَ وَعِيَالُهُ بِشَمْنَهُ، فَأَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَلَدِهِ لِصَلَبِهِ مَلُوكًا ثَلَاثَةَ، وَنَشَرَ ذَرِيْتَهُمْ حَتَّى ضَرَبَ الْأَمْثَالَ بِمَلَكَتِهِمْ. وَكَقُولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ: (ثُمَّ يَسْتَشْرِي أَمْرُهُمْ حَتَّى يَمْلِكُوا الزُّورَاءَ وَيَخْلُعُوا الْخَلْفَاءِ)، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَكَمْ مَدْتَهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيْنَ؟ فَقَالَ: (مِائَةٌ أَوْ تَزِيدُ قَلِيلًا). وَكَقُولُهُ فِيهِمْ: وَالْمُتَرْفُ بْنُ الْأَجْذَمِ يَقْتَلُهُ ابْنُ عَمِّهِ عَلَى دَجْلَةِ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى عَزِّ الدُّولَةِ بِخَتِيَارِ بْنِ مَعْزِ الدُّولَةِ أَبِي الْحَسِينِ، وَكَانَ مَعْزُ الدُّولَةِ أَقْطَعَ الْيَدَ، قَطَعَتْ يَدَهُ فِي الْحَرْبِ، وَكَانَ ابْنَهُ عَزِّ الدُّولَةِ بِخَتِيَارِ مُتَرْفَا صَاحِبُ لَهُ وَطَرْبَ، وَقُتِلَهُ عَضْدُ الدُّولَةِ فَنَاخْسَرُوا ابْنَ عَمِّهِ بِقَصْرِ الْجَصِّ عَلَى دَجْلَةِ فِي الْحَرْبِ وَسَلَبَهُ مَلْكَهُ. فَأَمَّا خَلْعُهُ لِلْخَلْفَاءِ، فَانْ مَعْزُ الدُّولَةِ خَلَعَ الْمُسْتَكْفِي

ورتب عوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خلع الطائع ورتب عوضه القادر. وكانت مدة ملکهم كما أخبر به عليه السلام.

(وَكَإِخْبَارِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَعِبْدُ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ انتِقالِ الْأَمْرِ إِلَى أَوْلَادِهِ، فَانْعَلَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ لِمَا وَلَدَ أَخْرَجَهُ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى عَلَيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَنْحَذَهُ وَتَفَلَّ فِيهِ وَحْنَكَهُ بِتَمْرَةٍ قَدْ لَا كَهَا، وَدَفَعَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ: حَذْ إِلَيْكَ أَبَا الْأَمْلَاكِ).

(وَكَمْ لَهُ مِنِ الْأَخْبَارِ عَنِ الْغَيْوَبِ الْجَارِيَّةِ هَذَا الْمَجْرِيُّ مِمَّا لَوْ أَرْدَنَا إِسْتِقْصَاءَ لِكَسْرَنَا كَرَارِيسَ كَثِيرَةً، وَكَتَبَ السِّيرَ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا مَشْرُوْحَةً) (١).

وقال: (.) والمراد بقوله: فلانا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، ما اختص به من العلم بمستقبل الأمور ولا سيما في الملاحم والدول، وقد صدق هذا القول عنه ما تواتر عنه من الاخبار بالغيوب المتكررة لا مرة ولا مائة مرة حتى زال الشك والريب في أنه إخبار عن علم وليس عن طريق الصدفة والاتفاق) (٢). *

ونأخذ الآن في ذكر ما أهمل ابن أبي الحديد ذكره في النص السابق وأتى على ذكره في مناسبات أخرى.

١ - لما شجرهم (٣) - الخوارج - علي عليه السلام بالرماح قال: (اطلبوا ذا الثدية) فطلبوه طلبا شديدا حتى وجدوه في وهدة من الأرض تحت ناس من

(١) المصدر السابق ٢: ١٧٥ - ١٧٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) شجرهم: حاربهم أو رماهم.

القتلى فأتي به وإذا رجل على ثديه مثل سبلات السنور، فكبير على عليه السلام وكبر الناس معه (١). *

٢ - قال عليه السلام لمن قال له: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة الشعر، بعد كلام: وإن في بيتك سخلا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله. قال ابن أبي الحميد: وكان ابنه، قاتل الحسين عليه السلام طفلا يحبه، وهو سنان ابن أنس النخعي (٢). *

٣ - وخطب ذات يوم فقام رجل من تحت منبره فقال: يا أمير المؤمنين، إني مررت بوادي القرى فوجدت خالد بن عرفطة قد مات فاستغفر له، فقال عليه السلام: والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ظلاله صاحب لوائه حبيب بن حمار، فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال: يا أمير المؤمنين أنا حبيب بن حمار وإنني لك شيعة ومحب، فقال: أنت حبيب بن حمار؟ قال: نعم، فقال له ثانية: والله إنك لحبيب بن حمار، فقال: أي والله، قال: أما والله إنك لحامليها ولتحملنها ولتدخلن بها من هذا الباب، وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة. قال ثابت - وهو راوي الحديث - : فوالله ما مات حتى رأيت ابن زياد وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي عليه السلام، وجعل خالد بن عرفطة على مقدمته وحبيب بن حمار صاحب رايته، فدخل بها من باب الفيل (٣). *

(١) المصدر السابق ١ - ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق ١ - ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

٤ - كان جالسا في مسجد الكوفة وبين يديه قوم منهم عمرو بن حرث إذ أقبلت امرأة مختمرة لا تعرف فوقفت فقالت لعلي عليه السلام: يا من قتل الرجال وسفك الدماء وأيتم الصبيان وأرمل النساء، فقال علي عليه السلام: وانها لهي هذه السلقلقة الجلعة الجمعة، وانها لهي هذه الشبيهة الرجال والنساء التي ما رأت دما قط، قال يزيد الأحمسي - وهو راوي الحديث - فولت هاربة منكسة رأسها، فتبعها عمرو ابن حرث، فلما صارت بالرحبة قال لها: والله لقد سرت بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل فادخلني متزلي حتى أهب لك وأكسوك، فلما دخلت منزله أمر الجواري بتفتيشها وكشفها ونزع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها، فبكّت وسألته أن لا يكشفها وقالت: أنا والله كما قال، لي ركب النساء وأنثىان كأنثىي الرجال، وما رأيت دما قط، فتركها وأخرجها، ورجع إلى محلسه مع الإمام عليه السلام فحدث بذلك (١). *

٥ - قام أعشى باهلة وهو يومئذ غلام حدث إلى علي عليه السلام، وهو يخطب ويدرك الملاحم، فقال: يا أمير المؤمنين: ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافه. فقال علي عليه السلام: إن كنت آثما فيما قلت يا غلام فرماك الله بغلام ثقيف، ثم سكت. فقام رجال فقالوا: ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال غلام يملك بلدكم هذه لا يترك حرمة إلا انتهكها يضرب عنق هذا الغلام بسيفه.

(١) المصدر السابق ١: ٢٠٨ - ٢٠٩.

قالوا: كم يملك يا أمير المؤمنين؟

قال: عشرين إن بلغها.

قالوا: فيقتل قتلاً أم نموت موتاً؟

قال: بل يموت حتفه بداء البطن، يثقب سريره لكثره ما يخرج من جوفه.

قال إسماعيل بن رجاء - وهو الراوي - فوالله لقد رأيت بعيني أعشى باهلة وقد أحضر في جملة الاسرى الذين أسرروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدي الحجاج فقرعه وونجه (؟) واستنشده بشعره الذي يحرض فيه عبد الرحمن على الحرب ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس (١).
* * *

٦ - قال عليه السلام لعمرو بن الحمق الخزاعي في حديث:
يا عمرو انك لمقتول بعدي، وإن رأسك لمنقول، وهو أول رأس نقل في الاسلام، والويل لقاتلك، أما انك لا تنزل بقوم إلا أسلموك برمتك، إلا هذا الحي منبني عمرو بن عامر من الأزد فإنهم لن يسلموك ولن يخذلوك.
قال شمير بن سدير الأزدي - وهو الراوي - فوالله ما مضت الأيام حتى تنقل عمرو بن الحمق في خلافة معاوية في بعض احياء العرب خائفاً مذعوراً حتى نزل في قومه منبني خزاعة فأسلمواه، فقتل، وحمل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام وهو أول رأس حمل في الاسلام من بلد إلى بلد (٢).

(١) و (٢) المصدر السابق ١ - ٢٠٩

٧ - دخل جويرية بن مسهر العبدى على علي عليه السلام يوما وهو مضطجع وعنه قوم من أصحابه، فناداه جويرية:

أيها النائم استيقظ فلتضرن على رأسك ضربة تخضب بها لحيتك.
قال حية العربي - وهو الرواى - فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام وقال:
وأحدثك يا جويرية بأمرك، أما الذي نفسى بيده لتتلن إلى العتل الزنيم،
فليقطعن يدك ورجلك ولصلبك تحت جذع كافر.

قال حية العربي: فوالله ما مضت الأيام على ذلك، حتى أخذ زiad جويرية
فقطع يده ورجله وصلبه إلى جانب ابن مكعب وكان جذعا طويلا فصلبه على
جذع قصير إلى جانبه (١).
* * *

٨ - قال الإمام لميثم التمار يوما بمحضر من خلق كثير من أصحابه وفيهم الشاك والمخلص:

يا ميتم إنك تؤخذ بعدى وتصلب، فإذا كان اليوم الثاني ابتدر منحراك
وفمك دما حتى يخضب لحيتك، فإذا كان اليوم الثالث طعن بحربة تقضى
عليك فانتظر ذلك، والموضع الذي تصلب فيه على باب دار عمرو بن حرث،
إنك لعاشر عشرة أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهرة، يعني الأرض، ولأرينك
النخلة التي تصلب على جذعها، ثم أراه إليها بعد ذلك بيومين.
وقد تحققت هذه النبوءة بحدائفها كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد في حديث
طوبل يضيق به المقام (٢).
* * *

(١) المصدر السابق ١ - ٢٠٩ - ١١٠ .

(٢) المصدر السابق ١ - ٢١٠ - ٢١١ .

٩ - روی إبراهیم بن العباس النهیدی فی سند ینتھی إلی زیاد بن النضر الحارثی
أنه قال:

كنت عند زیاد وقد أتی برشید الھجیری و كان من خواص أصحاب علی علیه
السلام، فقال له زیاد: ما قال لك خلیلک أنا فاعلون بك؟ قال: تقطعون
یدی ورجلی وتصلبوني، فقال زیاد: أما والله لا کذبن حدیثه، خلو سبیله،
فلما أراد أن یخرج، قال: ردوه، لا نجد شيئاً أصلح مما قال لك صاحبك،
إنك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقیت، اقطعوا يدیه ورجلیه، فقطعوا يدیه
ورجلیه وهو يتکلم. فقال: اصلبوا خنقاً في عنقه، فقال رشید: قد بقی لكم
عندی شئ ما أراكم فعلتموه، فقال زیاد: اقطعوا لسانه، فلما أخرجوه لسانه
ليقطع قال: نفوسنا عنی أتكلم كلمة واحدة، فنفسوا عنه فقال: هذا والله
تصدیق خبر أمیر المؤمنین أخبرني بقطع لسانی، فقطعوا لسانه وصلبوا (۱).
* * *

١٠ - حدث سعد بن وهب، فقال في حديث:
فأئته - يعني عليا عليه السلام - في كربلاء، فوجده يشير بيده ويقول: هنا
ههنا فقال له رجل: وما ذاك يا أمیر المؤمنین؟ فقال: ثقل لآل محمد صلى الله عليه وآل
ينزل ههنا، فويل لهم منكم وويل لكم منهم، فقال له الرجل: ما معنی هذا
الکلام يا أمیر المؤمنین؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم وويل لكم منهم
يدخلکم الله بقتلهم النار (۲).
* * *

(۱) المصدر السابق ۱ - ۳۰۰ - ۲۱۱.

(۲) المصدر السابق ۱ - ۲۷۸.

١١ - ذكر ابن أبي الحديد تتمة خطبته في الملاحم تنبأ فيها الإمام بأن السلاح سيحمل على الظهر بقوله: (... و حتى يكون موضع سلاحكم على ظهوركم). وكأنه يشير بذلك إلى البندقية وما إليها من الأسلحة الحديثة، وتنبأ فيها بولاية الحجاج ويوسف بن عمر (١).
* * *

١٢ - قال ابن الحديد: (... ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قوله في الخطبة التي يذكر فيها الملاحم وهو يشير إلى القرامطة: (ينتحلون لنا الحب والهوى ويضمرون لنابغض والقليل)، وآية ذلك قتلهم وراثنا وهجرهم أحداشنا. قال ابن أبي الحديد: وصح ما أخبر به، لأن القرامطة قتلت من آل أبي طالب خلقاً كثيراً وأسماؤهم مذكورة في كتاب مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني. وفي هذه الخطبة قال، وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة: كأني بالحجر الأسود منصوباً هنا، ويحthem ان فضيلته ليست في نفسه بل في موضعه وأسه، يمكنث هنا برها، ثم ههنا برها، وأشار إلى البحرين، ثم يعود إلى مأواه وأم مثواه. ووقع الامر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به (٢).

(١) المصدر السابق ٢ - ١٣٣.

(٢) المصدر السابق ٢ - ٥٠٨، وذكر ابن أبي الحديد في ٢ - ٤٩ - ٥٠ عن المدائني في كتاب صفين خطبة للإمام في الملاحم خطبها بعد النهروان.

الوعظ

(١٩٧)

يحسب بعض المثقفين من ناشئة هذا الجيل أن الاسلام يدعو إلى التنكر للدنيا والتزهيد فيها واعتبارها أذى كبيرا لا يحمل بالمرء أن يصيب منه قليلا ولا كثيرا.

والكتب الموضوعة للتبيشير بالحضارة الغربية، عدوة كل دعوة روحية، تساعد على تركيز هذه الفكرة عن الاسلام في نفوس هؤلاء. وتسهم إسهاما كبيرا في تركيزها أيضا البرامج التعليمية المدخلة التي تهمل دور الاسلام العظيم في إنقاذ العالم وتقديمه، وإن عرضته فإنما تعرض إسلاما مشوها خاليا من الحياة. كل هذا جعل هذه الناشئة تنظر إلى الاسلام نظر ذعر وتخوف مبعثهما الجهل لا العلم، والعمى لا البصر.

وتوجه هذه النظرة أيضا إلى التراث الاسلامي في ميادين الفلسفة والأخلاق والأدب.

ونهج البلاغة من جملة هذا التراث الذي ينظر إليه على هذا النحو. فهذا الكتاب، عند ناشئة الجيل، يحتوي على طائفة من الخطب قيلت في التزهيد بالدنيا والتنفير منها، والنعي على المتمسكين بها، والأخذين بنصيب من مباحثها وأفراحها، وهو لذلك كتاب لا يلائم روح عصرنا هذا، لأنه يشل في الانسان رغبته في العمل ويعطل حس الحياة فيه، ويدفعه إلى القناعة بحياة ذليلة واهنة مظلمة شوهاء.

ولم لا؟ ألم تصدر هذه الخطب والأقوال من رجل ركّل الدنيا بقدمه، وخرج عنها، ودعا الناس إلى أن يركّلوها بأقدامهم ويخرجوا عنها؟ هذه نظرة طائفة كبيرة من شباب الجيل إلى نهج البلاغة.

والأسلوب الوعظي الذي يتناول فيه كثير من الوعاظ في المساجد والمحافل مهمتهم يدعم نظرة ناشئة الجيل إلى نهج البلاغة ويعزّزها، فهم يتناولون مهمتهم على نحو خاطئ، لأنّهم يعتمدون في وعظهم اعتماداً مطلقاً على التنفير من الدنيا وعلى ذمّها والتزهيد فيها واعتبارها أذى كبيراً يحول بين الإنسان وبين أن يصبح إنساناً حقاً، ويجدون في نهج البلاغة على الخصوص معيناً لا ينضب من الشواهد على ما يقولون.

* * *

إننا إذ نرجع إلى مبادئ الإسلام لنتعرف على وجهة نظره إلى الدنيا نجد هذه المبادئ تشجع الاقبال على الدنيا، وتحترم العمل، وتمجد العامل، وتعنى بنشاط الإنسان الدنيوي كما تعنى بنشاطه الآخروي، يدل على ذلك ما شرعه الإسلام من قوانين تتناول جميع ألوان نشاطه الدنيوي.

والإمام عليه السلام هو أعظم أصحاب النبي (ص) فهما للإسلام ووعياً لأسراره فلا يعقل أن يقول شيئاً يخالف روح الإسلام العامة ونظرته الشاملة إلى الإنسان. ولكننا نرجع إلى نهج البلاغة فنجد مكتظاً بالتنفير من الدنيا، وردع الناس عنها.

فكيف نلائم بين ما نراه في نهج البلاغة، وبين ما نعرفه عن الإمام عليه السلام. الذي أراه هو أن الوعاظ والناشئة جمِيعاً راحوا ضحية خطأً كبيراً سبب لهم سوء الفهم وسوء التأويل لما جاء في نهج البلاغة من ذم الدنيا.

فعندما نريد أن نفهم نصا من النصوص يتضمن رأيا في الإنسان وفي مصيره يجب علينا أولاً أن نفهم الثقافة التي صدر عنها هذا النص، ثم يجب علينا ثانياً أن نفهم الواقع التاريخي الذي صدر فيه النص، فإذا تم لنا من ذلك ما أردنا وضمنا النص في إطاره التاريخي الخاص وأحاطنا بظروفه النفسية المعينة، ففسرناه من وجهة نظر الثقافة التي ألمته قائله، فحينئذ يتهيأ لنا أن نفهم النص فيما صحيحاً.

أما حين نجرب النص من إطاره التاريخي، ثم ننظر إليه بغير الروح التي صدر عنها، فإن أملنا بالفهم الصحيح يكون عقيما لأننا حينئذ لن نحصل على الفهم الصحيح أبداً.

وهنا يكمن الخطأ الكبير الذي انزلق إليه من حسب نهج البلاغة كتابا يدعو إلى رفض الحياة الدنيا والتنفير عنها.

إن هؤلاء حينما ذهب بهم الوهم هذا المذهب كانوا على جهل بالمثل الأعلى للحياة في الإسلام من جهة أولى، وكانوا على جهل بنظرة الإسلام الواقعية إلى الحياة والموت والمال من جهة ثانية، وكانوا على جهل بالواقع التاريخي الذي صدر فيه القسم الوعظي من نهج البلاغة من جهة ثالثة.

فعلينا لكي نفهم القسم الوعظي من نهج البلاغة فيما صحيحاً أن نعني بفهم هذه الأمور الثلاثة، وسيكون هذا سببا في دراسة الواقع الاجتماعي في زمان الإمام دراسة(؟) موسعة.

(١)

ونبدأ بالمثل الاعلى للحياة في الاسلام.
لقد عرفنا أن المثل الاعلى للحياة في الاسلام هو التقوى.
وقد فهمنا أن التقوى هي الفضيلة في أرفع معاناتها، وعرفنا أن الانسان المتقي هو الانسان الذي وعي وجود الله وأمره ونهيه في كل ما يلم به من فعل أو قول، وجعل من نفسه خلية إنسانية حية تعمل بحرارة وإخلاص على رفع مستوى الكيان الاجتماعي الذي تضطرب فيه، وصدر في ذلك كله عن إرادة الله المتجلية فيما شرع من أحكام.
هذا هو المثل الاعلى للحياة في الاسلام، فما الذي يحول بين الانسان وبين بلوغه؟.

الذي يحول بين الانسان وبين بلوغ هذا المثل الاعلى هو أن تفتر حياته من الشعور بالله كطاقة نفسية فاعلة، ويتبعد ذلك بصورة حتمية أن يفقد الدين ما له من أثر توجيهي في حياة الانسان، وإذا فقد الانسان هذين (الشعور بالله، والدين) لم تعد الجماعة التي يعيش فيها تعني بالنسبة إلى شيئاً، ولا يعود يستلهم في سلوكه سوى ذاته هو، والتنتجة الطبيعية لهذا هي أن يصبح إنساناً فردياً أنانياً.

(٢٠٢)

إذا استوى وجود الإنسان على هذا النحو كان بعيداً عن التقوى، وكان واقعه حائلاً بينه وبين التقوى.

وقد قلنا إن وجه الفائدة في جعل التقوى مثلاً أعلى للحياة هو أن يكون مفهوم الطبقة الذي يستتبع حكماً تقويمياً لطائفة من الناس منبثقاً من التقوى، بدلاً من أن ينبع هذا المفهوم من الاقتصاد أو الحرب، وبذلك تكون الطبقات ظاهرة اجتماعية تعود على المجتمع بالخير، بدلاً من أن تكون تعبراً حاداً عن التفسخ الاجتماعي.

فإذا عدنا لنرى واقع المجتمع الإسلامي في الوقت الذي ولـي فيه الإمام الحكم أفيناه مجتمعـاً مريضاً منحرفاً فقد الدين قوته الدافعة عندهم، واستشرت الروح القبلية فيهم، وعاد المثل الأعلى للحياة عندهم المال والقوة.

ويقتضيناً فهم هذا الواقع أن نلم بالأسباب التي أدت إليه.

* * *

ولـي عثمان بن عفان الخلافة بعد عمر بن الخطاب فـكانت خلافـته إـيدـاناً بأـفـول سيـاسـة وـبـزـوـغ عـهـد سـيـاسـيـ جـديـدـ.

فلـقـد اـتـيـعـ عـثـمـانـ مـنـذـ ولـيـ الحـكـمـ سـيـاسـةـ خـطـرـةـ فـيـ المـالـ وـالـوـلـاـيـاتـ. فـقـد طـفـقـ يـهـبـ خـواـصـهـ وـذـوـيـ رـحـمـهـ وـمـنـ يـمـتـ إـلـيـهـ بـنـسـبـ أـوـ سـبـبـ الـأـمـوـالـ العـظـيـمـةـ وـيـخـصـهـمـ بـالـمـنـحـ الـجـلـيلـةـ، وـيـحـمـلـهـمـ عـلـىـ رـقـابـ النـاسـ.

وـولـيـ عـلـىـ الـبـلـدـاـنـ الـإـسـلـامـيـةـ شـبـانـاـ مـنـ بـنـيـ أـمـيـةـ، لـاـ يـحـسـنـونـ الـحـكـمـ وـلـاـ السـيـاسـةـ، ذـوـيـ رـوـحـ تـسـلـطـيـةـ عـاتـيـةـ، لـمـ يـنـلـ مـنـهـاـ الـإـسـلـامـ شـيـئـاـ مـذـ كـورـاـ.

وـهـكـذـاـ كـوـنـتـ هـذـهـ طـبـقـةـ أـرـيـسـتوـقـراـطـيـةـ مـنـ الـأـغـنـيـاءـ الـمـتـرـفـينـ الـذـينـ لـاـ تـزالـ تـعـمـلـ فـيـ صـدـورـهـمـ الـقـيـمـ الـبـدـوـيـةـ الـجـاهـلـيـةـ.

وقد امتد نفوذ هذه الطبقة في خلافة عثمان امتدادا هائلا، فسيطرت على الحكم سيطرة مطلقة، وحازت الأموال العظيمة التي أفاءها الله على المسلمين، والتي كان المفروض فيها أن تذهب إلى المعذمين والفقراء، وانتشرت هذه الطبقة في طول البلاد الإسلامية وعرضها حين فتح لها عثمان باب الهجرة والتنقل في البلاد الإسلامية.

والى جانب هؤلاء كانت ثمة طبقة أخرى تتألف من الاعراب وأهل البادية وكانت القوى المسلحة في الدولة الإسلامية مكونة منهم، ينضم إليهم من دخلوا في الاسلام من الأمم غير العرب، هؤلاء كانوا يلقون في زمن عثمان حيفا كبيرة من طبقة الارистو قراطين الناشئة، الطامحة إلى مزيد من القوة والاستعلاء بسبب ما يعتمل في نفوس أفرادها من قيم البداءة.

وكانت عاقبة ذلك أن تضخمت الفروق بين الطبقات تضخما كبيرا من الناحية المادية والمعنوية.

وانقلبت الأثرية إلى طغيان، وانقلب الحقد إلى زئير، وتراتكם الطغيان حتى وجد رد فعل طاغ في ثورة المظلومين، الذين أثقلتهم الظلم الفادح، على حكومة عثمان وعلى ولاته.

وكانت عاقبة ذلك كله قتل عثمان.

وجاء الناس إلى الإمام يطلبون منه أن يلي الحكم، ولكنه أبى عليهم ذلك، لا لأنه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته، فقد كان عليه السلام على تمام الأبهة لولاية الحكم، كان قد خبر المجتمع الإسلامي من أقطاره، وخالف كل طبقاته، ورافق حياتها عن كثب، ونفذ إلى أعماقها، وتعرف على الوجودان الطبيعي الذي يشدّها ويجمعها.

وقد مكنته من ذلك كله المركز الفريد الذي كان يتمتع به من النبي صلى الله عليه وآله،

فهو وزيره ونجيبيه، وأمين سره، وقائد جيوشة، ومنفذ خططه، ومعلن بلاغاته.. هذه المنزلة الفريدة التي لم يكن أحد من الصحابة يتمتع بها أعدته إعداداً تاماً لمهمة الحكم.

وقد كان النبي يتغى من وراء إنطة هذه المهام كلها به إعداده للمنصب الإسلامي، ليصل إليه وهو على أتم ما يكون أهلية واستعداداً.

ولقد غدا من نافلة القول أن يقال أنه عليه السلام هو الخليفة الذي كان يجب أن يلي حكومة النبي في المجتمع الإسلامي.

وإذا لم يقدر له أن يصل إلى الحكم بعد النبي فإنه لم ينقطع عن الحياة العامة، بل ساهم فيها مساهمة خصبة، فقد كان أبو بكر ثم عمر ومن بعدهما عثمان لا يسعهم الاستغناء عن آرائه في السياسة والقضاء وال الحرب، وخاصة في خلافة عثمان فقد كان فيها على أتم الصلة بالتيارات التي تمخر المجتمع الإسلامي، لكن عثمان لم ينتفع كثيراً بالتوجيه الذي كان الإمام يقدمه إليه لأن بطانة متغيرة كانت تحيط بهذا الخليفة.

فأنت ترى أنه لم يأب الحكم لأنه لم يأنس من نفسه القوة عليه، وإنما أباه لأمر آخر:

لقد كان يرى المجتمع الإسلامي وقد ترد في هوة من الفوارق الاجتماعية التي ازدادت اتساعاً بسبب السياسة التي اتبعها ولاة عثمان مدة خلافته.

ولقد كان يرى التوجيهات الدينية العظيمة التي عمل النبي طيلة حياته على إرساء أصولها في المجتمع العربي قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس. وكان عليه السلام يعرف السبيل الذي يرد الأشياء إلى نصابها، فإنما صار الناس إلى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم. فقدوا الثقة بهذه القوة كناصر للمظلوم وخصم للظالم، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم

وصيانتها بأنفسهم. وهكذا، رويداً رويداً انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب أن تقود حياتهم.

والسبيل إلى تلافي هذا الفساد كله هو إشعار الناس أن حكماً صحيحاً يهيمن عليهم، لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم.

ولكن شيئاً كهذا لم يكن سهلاً قريب المنال، فهناك طبقات ناشئة لا تسurg مثل هذا، ولذلك فهي حرية أن تقف في وجه كل برنامج إصلاحي وكل محاولة تطهيرية، ولذلك أبى عليهم قبول الحكم، لأنه قدر - وقد أصاب - انه سيلقي معارضة عنيفة من كل طبقة تجد صلاحها في أن يبقى الفساد على حاله.

لأجل هذا قال للجماهير يوم هرعت إليه تسأله أن يلي الحكم:

(دعوني والتمسوا غيري، فإنما مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول (١)، وإن الآفاق قد أغامت (٢) والممحجة قد تنكرت (٣)، واعلموا اني إن أجتكم ركبتم بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتمهو أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً (٤).

(١) لا تصبر له، ولا تطبق احتماله.

(٢) أغامت: غطت بالغيم.

(٣) الممحجة: الطريق المستقيمة. تنكرت: تغيرت معالمها فصارت مجهلة.

(٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٩٠.

ولكن القوم أبوا عليه إلا أن يلي الحكم، وربما رأى عليه السلام انه إذا لم يستجب لهم فربما توثب على حكم المسلمين من لا يصلح له، فيزيد الفساد فسادا، ورجا أن يخرج بالناس من واقعهم الاجتماعي التعس الذي أحلتهم فيه اثنتا عشرة سنة مضت عليهم في خلافة عثمان، إلى واقع أبل وأحفل بمعانٍ للإسلام، وهكذا استجاب لهم، فبُويع خليفة للمسلمين.

ولقد دأب، بعد أن يُوَبِّعَ على بيان الهدف الذي ابتغى من وراء ولاية الحكم، وذلك بأن يكون في مركز يمكنه من أن يصلح ما يفتقر إلى الإصلاح من شؤون الناس، وأن يرفع عن المظلومين فادح ما رزحوا تحته من ظلم، فتراء يقول:

(.). أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة (١)،
لولا حضور الحاضر (٢) وقيام الحجة بوجود
الناصر (٣)، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا
على كظة (٤) ظالم ولا سغب (٥) مظلوم،
لألقيت حبلها على غاربها (٦)، ولستيت آخرها

(١) برأ: خلق. والنسمة: الروح.

(٢) من حضر لبيعته من الناس.

(٣) أي أنه مع وجود المقاتلين الناصريين للحق لا يجوز القعود عن التصدي للقيام بمهامات الحكم والاصلاح. فوجود الأنصار على الحق حجة على القائد لأبد معها من الحركة والقيام بالأمر.

(٤) الكظة: ما يعتري الأكل من الضيق عند امتلاء البطن بالطعام. والمراد هنا تعدي الظالم على حقوق الناس.

(٥) السغب: شدة الجوع. والمراد هنا هضم حقوق الضعيف.

(٦) الغارب: الكاهل، الناقة حين يتركها قائدها فلا يقودها يرخي لها الخطام، فالكلام تصوير للترك وإرسال الأمر.

بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي
من عفطة (١) عنز (٢).

وقال:

(اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة
في سلطان، ولا التماس شئ من فضول الحطام (٣)،
ولكن لنرد المعالم (٤) من دينك، ونظهر الاصلاح
في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام
المعطلة من حدودك) (٥).

وقال:

(ولكني آسي (٦) أن يلي (٧) أمر هذه الأمة
سفهاؤها وفحارها، فيتخدوا مال الله دولا (٨)،
وعباده خولا (٩)، والصالحين حربا (١٠)،

(١) عفطة العنز ما تنشره من فمها.

(٢) نهج البلاغة، رقم النص: ٣١ (جزء من الخطبة الشقشيقية).

(٣) الحطام: ما يحطم ويتفتت من عيدان الزرع إذا بيس. والمراد هنا: متاع الحياة الدنيا.

(٤) المعالم جمع معلم - بفتح، فسكون، - وهو الأثر الذي يستدل به على الطريق.

(٥) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٩.

(٦) آسي: فعل مضارع من (أسيت عليه) أي حزنت، والمراد انه (ع) يحزن أن يتولى
أمر الأمة السفهاء والفحار.

(٧) يلي: يحكم الأمة.

(٨) دولا: أي شيئاً يتداولونه بينهم، كأن الحكم لعبه أو كرة يتقاتلونها.

(٩) خولا: أي عبيدا.

(١٠) حربا.. أي يحاربون الصالحين، وينصرؤن الفاسقين، ويتحذرونهم حربا لهم.

والفاسقين حزبا، فان منهم الذي قد شرب فيكم الحرام (١)، وجلد حدا في الاسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له (٢) على الاسلام الرضائخ. (٣).

لأجل هذا كله قبل عليه السلام أن يتولى الحكم.

وما أن بويع حتى عالن الناس بسياسته التي عزم على اتباعها من أجل تحقيق الأهداف التي قبل الحكم لأجلها.

وقد عرفت أن هذه السياسة لم تكن شيئاً مرتاحاً اصطنه لنفسه يوم ولد الخليفة، وإنما كانت خططاً مدروسة ومنتزعة من الواقع الذي كان يعيشه المجتمع الاسلامي آنذاك، ومعدة لأن تبلغ بهذا المجتمع خطوات إلى أمام، ومهيبة لتبليء هذا المجتمع المطامح التي كان يحلم بها ويصبو إليها.

* * *

وقد كانت إصلاحاته السياسة تتناول ثلاثة ميادين: الإدارية، والحقوق، والمال.
أ - الإدارة:

ففيما يرجع إلى سياسة الإدارة عزل ولاة عثمان عن الأمصار، هؤلاء الولاة الذين كانوا السبب المباشر في الثورة لظلمهم وبغيهم وعدم درايتهم بالسياسة وأصول الحكم، وولى من قبله رجالاً ذوي دين وعقل وبعد نظر وحسن تدبير.

(١) الحرام: الخمر.

(٢) الرضائخ: العطایا، ورضخت له: أعطيت له. وقالوا أن عمرو بن العاص لم يسلم حتى طلب عطاء من النبي (ص) فلما أعطاه أسلم.

(٣) نهج البلاغة (باب الكتب) من كتابه إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاد إمارتها، رقم النص: ٦٢.

ب - الحقوق:

وفيما يرجع إلى الحقوق نادى بأن المسلمين جمِيعاً سواء في الحقوق والواجبات في الإسلام، وقد كانت هناك فروق حقوقية جاهلية نصفها الإسلام ولكن عهد عثمان أعادها، فقرىش ذات الماضي العريق في السيادة على القبائل العربية عادت في زمن عثمان فأتعلَّتْ جيدها وأعادت تلك الفروق، فغداً أناس ليس لهم ماضٌ مشرف بالنسبة إلى الإسلام ونبيه يتعالون على أعظم المسلمين جهاداً وسابقةً وبلاءً، لمجرد أنهم قرشيون.. هذه الفروق المعنوية الجاهلية حطمتها الإمام، فقال:

(الدليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوى
عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه) (١).

ج - المال:

وفيما يرجع إلى سياسية المال وقف موقفاً صارماً، فصادر جميع ما أقطعه عثمان من القطاعات وما وبه من الأموال العظيمة لطبقة الارستوغراتيين، وقد صرَّح بذلك في أول خطبة خطبها بعد خلافته، فقال:

(أيها الناس! إني رجل منكم، لي ما لكم وعلى
ما عليكم، وإنني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ
فيكم ما أمر به، ألا وان كل قطيعة أقطعها عثمان،
وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في
بيت المال فإن الحق لا يبطله شيء، ولو وجدت
قد تزوج به النساء، وملك الإماء، وفرق في

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٣٧.

البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق) (١).

وكان سنة رسول الله صلى الله عليه وآلـهـ في توزيع الأموال هي التسوية بين الفاضل والمفضول، لأنـ النـظرـ فيـ هـذـاـ الـأـمـرـ إـلـىـ الـحـاجـةـ لـإـلـىـ الـفـضـلـ،ـ وـلـانـ الـفـضـلـ،ـ لـيـسـ عـرـضاـ يـشـرـىـ وـيـبـاعـ،ـ وـلـانـ الـفـاضـلـ يـجـدـ عـنـ الدـلـهـ وـعـنـ النـاسـ ثـوـابـ فـضـلـهـ،ـ وـلـكـنـ أـبـاـ بـكـرـ وـعـمـرـ فـضـلـ بـعـضـ النـاسـ عـلـىـ بـعـضـ،ـ وـإـذـ كـانـاـ قـدـ فـضـلـاـ فـإـنـهـماـ قـدـ فـعـلاـ ذـلـكـ بـحـكـمـةـ أـمـاـ عـثـمـانـ فـقـدـ فـضـلـ دـوـنـ مـقـيـاسـ لـتـفـضـيلـ،ـ وـبـذـلـكـ زـادـ التـفـاوـتـ بـيـنـ الطـبـقـاتـ فـحـشـاـ وـبـعـدـاـ،ـ فـلـمـ جـاءـ الـإـمـامـ عـلـيـهـ السـلـامـ عـدـلـ عـنـ هـذـهـ السـيـاسـةـ وـسـوـىـ بـيـنـ النـاسـ فـيـ الـعـطـاءـ.

وبقدر ما كانت هذه السياسة مصدر جذل وفرح للطبقة المستضعفة الفقيرة الرازحة تحت أثقال من الظلم كانت أيضا صفة مدوية لقریش ولغوروها وخجالتها واستعلائهما على الناس.

فمن أين لها بعد اليوم أن تحوز الأموال العظيمة دون أن تنفرج شفتان تقولان لها: من أين لك هذا.

وكيف لها بعد اليوم أن تستعلي، وتستبد، وتفرض على الناس في ظل الاسلام سلطانها عليهم في الجاهلية؟.

وكانـتـ هـذـهـ السـيـاسـةـ صـفـعـةـ مـدـوـيـةـ لـزـعـمـاءـ الـقبـائـلـ الـعـرـبـيـةـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـقـبـضـونـ لـيـسـكـنـوـاـ.

وـكـانـتـ هـذـهـ السـيـاسـةـ صـفـعـةـ مـدـوـيـةـ لـمـنـ مـالـاـ وـلـاتـ عـثـمـانـ عـلـىـ سـيـاسـتـهـمـ مـنـ أـهـلـ المـدـيـنـةـ وـغـيـرـهـ.

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ١٥ ولم يذكر الشريف الرضي هذا النص بتمامه، وإنما ذكره ابن أبي الحديد، وغيره من شراح نهج البلاغة.

و كانت صفة مدوية لولاة عثمان المعزولين، المجردين من السلطان، الذين يتتظرهم مصير لا يحسدون عليه عند الحاكم الجديد، بما ظلموا، وأساءوا السيرة، وجاروا على الرعية.

كل هؤلاء أورثهم كربلا شديدا مصير الحكم إلى علي بن أبي طالب، ولعلهم قد فكروا أن يساووه على بذل طاعتهم له، على أن يغضي عما سلف منهم، ويأخذهم باللين والهداة فيها يستقبلون، فأرسلوا إليه بعض زعماءبني أمية يقول له:

(يا أبي الحسن. إنك قد وترتنا جميعا.. ونحن نبايعك على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان..). (١).

ولكنه أبي عليهم ذلك وأصر على أن يحملهم على الخطة التي يريد، والتي يرى الصلاح في اتباعها.

وقد حدث رد الفعل عند هؤلاء في حرب الجمل، التي كانت تدبّرا دبره من لم يماش الحكم الجديد أهواههم منبني أمية وغيرهم من ولادة عثمان إلا أن الحركة في صميمها كانت أممية خالصة.

وقد كان القائمون بهذه الحركة يريدون أن يعطفوا أزمة الحكم إلى جانبهم بعد أن صفت أيديهم من مساعدة الإمام لهم على ما يتغون. ولكن الإمام عليه السلام قضى على الحركة في مهدتها، ففر من أخطأه السيف، ومن تولى كبرها، إلى الشام.

(١) شرح النهج، ٢ - ١٧٢.

وانتقل الامام، بعد أن فرغ من أمر الحمل، بحكمته من الحجائز إلى العراق، واتخذ الكوفة قاعدة لحكمه. والكوفة يومئذ مركز الثقل في المجتمع الإسلامي الناشئ.

وفي العراق استمر الإمام على سياساته المالية والإدارية التي استنها لنفسه، وأذاعها في الناس، فالمساواة في الأعطيية أمر مفروغ منه، ومؤاخذة العمال على الصغيرة والكبيرة، ومراقبتهم وإذكاء العيون عليهم أمر لازم لا معدى عنه.

وكانت العناصر المسلمة غير العربية كثيرة في الكوفة، فكانت تضم عدداً كبيراً من الفرس وغيرهم ممن دخلوا في الإسلام، وكان هؤلاء يحتلون طبقة اجتماعية منحطة في نظر العرب ذوي النزعة القبلية، وكان من العسير على العربي أن يتصور أنه مساوٍ في القيمة لهؤلاء، ولذلك كان يطمح إلى أن يتميز عليهم، ولكن الإمام عليه السلام لم يلق بالاً إلى كل هذا، فالمساواة مبدأ شامل يسري على كل فرد عربياً كان أو أعمجياً.

لقد كان حرياً بهذه السياسة الوعائية لآلام الشعب وآماله، الطامحة إلى إسعاده، أن تنجح لو لم تعاكسها سياسة أخرى.

وفي الوقت الذي قامت فيه حكومة الإمام في الكوفة، قامت حكومة أخرى في الشام برئاسة معاوية بن أبي سفيان.

وبينما كانت حكومة الإمام تسير على نهج إسلامي حاصل، أي أنها كانت تتحقق للرعاية أقصى قدر مستطاع - في ظروفها الاقتصادية والسياسية والعسكرية - من الرفاهية والأمن والعدالة، كانت حكومة معاوية تسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، وتفضيل طائفة على حساب حرمان طائفة أخرى، وتعطيل السبيل، وتعكير الأمن.

ولم يكن معاوية يبالي في أن ينزل بداعي الضرائب من الزراع والتجار

أفحض الظلم، في سبيل أن يحصل منهم على مزيد من المال يغذي به أطماء حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلفون جهازه العسكري المتأهب دائماً لقمع أي حركة تحررية تقوم بها جماعة من الناس.

وقد آتت هذه السياسة أكلها جيداً في العراق.

فقد كان رؤساء القبائل في العراق يرون سياسة معاوية فيعجبون بها، فهي تلبي ما يطمحون إليه من غنى ووجاهة وارتفاع قدر، بينما هم لا يجدون شيئاً من هذا في حكومة الإمام.

وقد كان المجتمع العراقي قبلياً، فلكل قبيلة رئيسها وأشرافها وتقاليدها وأمجادها.

والرجل ذو الروح القبلية - كما يثبت علم الاجتماع - عالمه قبيلته، فهو ينفعل بانفعالاتها، ويطمح إلى ما تطمح إليه، ويعادي من تعادي، وينظر إلى الأمور من الزاوية التي تنظر منها هذه القبيلة، وذلك لأنه يخضع للقيم القبلية التي تدين بها هذه القبيلة.

وتتركز مشاعر القبيلة كلها في رئيسها، فالرئيس في المجتمع القبلي هو المهيمن، والمرجع، والوجه الأوحد للقبيلة كلها. فيكفي أن يقول الرئيس كلمة لتصبح قانون القبيلة كلها، ويكتفي أن يتخد موقفاً ليكون موقف القبيلة كلها، ولا أحسب أن من يتعالون على هذا الأسر يتتجاوزون أصحاب اليدين كثيراً. هذه هي طبيعة المجتمع القبلي.

وقد أثر الإسلام على هذه الطبيعة بلا شك، ولكن التأثير لم يكن حاسماً، فقد وقعت في الحقب السياسية التي خلفت النبي أخطاء سببت عودة الروح القبلية على أشدتها.

وإذا عرفنا هذا وسعنا أن نفهم الأثر البعيد الذي كانت تتركه سياسة معاوية في المجتمع العراقي أبان ذلك العهد.

فهذا المجتمع قبلني يدين لرؤسائه بالطاعة المطلقة.
وهو لاء الرؤساء يطمحون إلى مزيد من القوة والسلطان والغنى والمنزلة
الاجتماعية ولا يجدون شيئاً منها عند الامام بينما هم يجدونها عند معاوية كما
يشهون.

ويقول هؤلاء الرؤساء إن حكومة معاوية خير من حكومة علي وهي خير
لهم بلا إشكال، وتسمع القبائل كلها مقالة زعيمها فتدين بها، غير واعية أن
حكومة معاوية إن كانت خيراً للرؤسائين فحكومة علي خير لها، وذلك لأن هذه
تسن المساواة سياسة لهما بينما تسن تلك سياسة الأثرة، وهم لا يعون هذا،
لأنهم ينظرون إلى الأمور بالمنظار الذي ينظر به الرؤساء.

على هذا النحو كانت سياسة معاوية تؤثر في العراق، وقد وعى ذلك جماعة
من المخلصين للامام فقالوا له:

(يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب
وقريش على الموالي والعجم واستعمل من تخلف خلافه من الناس) (١).
ناظرين إلى ما يصنع معاوية، ولم يكن رؤساء القبائل العربية في العراق
يطمعون بأكثر من هذا، ولكن الامام أحبهم قائلاً: (أتأمروني أن أطلب النصر بالجور
فيمن وليت

عليه؟ والله ما أطور به ما سمر سمير) (٢)، وما
أم نجم في السماء نجماً (٣)، لو كان المال لي لسويفت

(١) شرح النهج، ١ - ١٨٢.

(٢) ما أطور: من (طار يطور حول الشيء) إذا حام حوله، أي: ما أمر به، ولا
أقارب (ما سمر سمير) أي مدى الدهر، وهو مثل. قالوا: السمير هو الدهر.

(٣) أم: قصد: أي ما قصد نجم نجماً.

بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله (١).

وقد صارت الشام ملاداً لمن يغضب عليه الإمام لخيانة خانها في عمله، أو حريرة جرها على نفسه. ومطمحها لمن يريد الغنى والمنزلة، فيجد عند معاوية الأكرام، والرفة، والعطاء، والمنزلة الاجتماعية.

وقد كتب علي عليه السلام مرة إلى عامله سهل بن حنيف في شأن قوم من أهلها لحقوا بمعاوية:

(وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون إليها (٢)، وقد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوا ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا أسوة، فهرروا إلى الأثرة (٣) فبعدا لهم وسحقا) (٤).

وقد وصف عليه السلام سياسة معاوية بقوله: (طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمها (٥)، يضع ذلك حيث الحاجة إليه: من

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٤.

(٢) مهطع: مسرع.

(٣) الأثرة - بالتحريك - اختصاص النفس بالنفع، وتفضيلها على غيرها. والسحق - بضم السين - البعد.

(٤) نهج البلاغة - باب الكتب - رقم النص: ٧٠.

(٥) مواسمها، جمع ميسّم - بكسر الميم - وهو المكواة.

قلوب عمي، وآذان صم، وألسنة بكم، متبع
بدوائمه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة.) (١).

وهكذا فعلت سياسة معاوية فعلها في مجتمع الإمام، فتمالاً رؤساء أصحابه
على الخيانة، وتخاذلوا عن نصره فلا يحييونه حين يدعوه، ولا ينصرونه حين
يستنصرهم، وما أكثر خطبه وكلماته التي أعلن فيها شكواه منهم، وبرمه بهم،
من ذلك قوله عليه السلام:

(يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال،
وعقول ربات الحجال (٢). لوددت أنني لم
أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندما،
وأعقبت سدما (٣). قاتلکم الله! لقد ملأتم
قلبي قيحا، وشحتم صدری غيظا، وجرعتموني
نgeb التهمام أنفاسا (٤)، وأفسدتم علي رأيي
بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إن ابن
أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له
بالحرب..) (٥).

وقد ظهر أثر هذه السياسة على أشدّه بعد صفين، فحين انتهت مهزلة التحكيم

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ١٠٦.

(٢) حجال: جمع حجلة، وهي القبة تكون فيها المرأة، وموضع يزن بالثياب للعروس.
وربات الحجال: النساء.

(٣) السدم: الهم مع أسف أو غيظ.

(٤) النgeb: بمعنى جرع، وعلى وزنها، وهي جمع نgeb كجرعة، وبمعناها. والتهمام - بالفتح -
الهم. وقوله (أنفاسا) أي جرعة بعد جرعة.

(٥) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٢٧.

- كما شاء دهاء عمرو بن العاص وغباء أبي موسى الأشعري أو سوء نيته - دأب معاوية على إرسال جيوش صغيرة سريعة فتضرب، وتقتل، وتنهب، وتروع الآمنين دون أن يعترضها معترض. فإذا ما دعا الإمام رؤساء أصحابه إلى اللحاق بها تقاعسوا عنه وصمموا أسماعهم دونه.

وأظهر مصاديق هذه الخيانة تجلت يوم سير معاوية جيشه إلى مصر، فقد دعا الإمام رؤساء أصحابه إلى إنجاد محمد بن أبي بكر قبل أن تفوت الفرصة وتملك عليهم مصر، فلم يجده منهم مجيب حتى انتهى الأمر بسقوط مصر في يد معاوية ومقتل محمد بن أبي بكر رحمه الله.

وقد كان عليه السلام يعرف كيف يجعلهم إلى صفة لو أراد، فيفضلهم، ويعطى لهم الأموال، ويحملهم على رقاب الناس، ويرضى غرورهم القبلي، ولكن ذلك كان ينقلب به إلى جبار يدعم ملكه بالسيف، بدل أن يكون أبا للرعية تدعم سلطانه القلوب. لقد قال لهم مرة:

(.. وإنني لعارف بما يصلحكم ويقيم أودكم (١)،
ولكنني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي) (٢).

هذا هو الواقع الاجتماعي والسياسي الذي كان عليه مجتمع الإمام. ومن الجلي أن مجتمعا يمارس حياته الاجتماعية والسياسية على هذا النحو مجتمع بعيد عن التقوى بعدها شاسعا، فالتفوى والقبيلية شيئاً متضادان، والتقوى

(١) أودكم: إعوجاجكم.

(٢) نهج البلاغة، رقم النص: ٦٧.

ونصرة الباطل شيئاً متضاداً، والتقوى وحب الأثرة والتكبر شيئاً متضاداً.

هذا الواقع كيف كان يسع الإمام أن يعدله، هل كان عليه أن يجاري أهواء أصحابه فيبذل لهم ما تطمح إليه أنفسهم؟. لقد قال: (أتأمروني أن أطلب النصر بالجور).

هل يقتلهم؟ إن ذلك كفيل بإخراج مركزه وإثارة الناس عليه. هل ينفيهم؟ إن ذلك يدفعهم إلى المحاجرة بولائهم لمعاوية وبذلك يحررون وراءهم قبائلهم.

لقد كان آمن المواقف معهم ابقاءهم تحت سمعه وبصره، إن قعدوا عن نصرته لا يستطيعون نصرة عدوه. ثم حاول أن يبدل نظرية الناس إليهم ويبدل نظرتهم إلى هذه المطامح التي يطمحون إليها بوسيلتين:

الأولى: - وقد كان يتوجه بها إلى الرجل العادي - هي محاربة النزعة القبلية. فقد كان عليه السلام يعلم أن قوة هؤلاء الرؤساء مستمدّة من إيمان قبائلهم بهم، فإذا تزعزع هذا الإيمان لم يعد لهم من قيمة.

الثانية: هي الموعظة، وهو بين فيها للرؤساء أن ما يطمحون إليه وهم من الوهم، وأن حاضرهم خير لهم من دنيا يصيّبونها عن طريق الخيانة والغدر ونصرة الباطل.

و سنرى أن الألوان الوعظية في نهج البلاغة تدور حول هذا القطب. وقد كان يتوجه بهذه الموعظ أيضاً إلى الأفراد العاديين الذين يخشى من أن يفتنهم رؤساؤهم بتحبيب دنيا معاوية إلى أنفسهم.

ولعل هذا يفسّر كثرة تكرار الإمام لمواعظه. فقلما ترى خطبة من خطبه

خالية عن الموعظة. إنه كان يقصد من وراء هذا التكرار أن يثبت توجيهاته في ضمائرهم، لتكسب هذه التوجيهات قوة الطاقة الشعورية فیامن زيغهم وانحرافهم.

هذا عن الحالة السياسية والاجتماعية التي كانت تسود عصره عليه السلام وعن صيتها بالقسم الوعظي من النهج.

* * *

راجع في تعليل طلبه للحكم وسياسته النصوص التالية: ٣ (الشقصية) و ١٥ و ٣٧ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٤ و ٣٩ و ٦٧ و ٦٩ و ٩٥ و ١٠٤ و ١٦٠ و ١١٧ و ١٢٣ و ١٦٤ و ١٧٨ و ١٨٠ و ١٩٠ (القاصعة) و كتابه إلى عبد الله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر - باب الكتب - رقم النص: ٣٥ و كتابه إلى سهل بن حنيف عامله على المدينة في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية - باب الكتب - رقم النص: ٧٠ و رقم: ٢٦١ في المختار من حكم أمير المؤمنين.

(٢)

في الخلق (١) العربي الأصيل ظاهرة جديرة بالتنويه، حقيقة بالشرح، لأنها مفتاح كثير من الأخلاق العربية الكريمة. هذه الظاهرة التي عنيت هي (الواقعية) كما يفهمها العربي ويسير على ضوئها في الحرب، ومنع الجار، ونصر الضعيف، وبذل المال. وطلب اللذة.

إن الموت حتم على كل إنسان ومصير لكل حي. موعد الموت مجھول غامض فلا يدری متى يحل ويأذف، وكما يدخل في الظن أن يكون بعيداً يدخل في الظن كذلك أن يكون قریباً. وماذا بعد الموت؟ إنه القبر والوحدة والوحشة. والمصير إلى القبر لازم فلا مفر منه ولا معدى عنه.

والدنيا؟.. أليس التقلب طبعاً أصيلاً فيها؟ أليس التلون ملازماً لها؟ فقد ينقلب الحال بالعزيز إلى الذل، وبالغني إلى الفقر، بالصحيح إلى المرض، وبالسعيد إلى الشقاء.

(١) فكرة هذا الفصل مقتبسة من الأستاذ عبد اللطيف شراره في كتابه: روح العروبة، من فصل قيم أدار فيه الحديث حول ظاهرة الكرم العربي وقد نقلنا عنه الشواهد الشعرية الأربع الأولى، ونقلنا بقية الشواهد عن كتاب البخلاء للجاحظ.

(٢٢١)

وإذا كان هذا كله حقا فلماذا أصد النفس عن اللذة حين تشتهي اللذة؟ ولماذا الفرار من الحرب حين تستعر الحرب؟ ولماذا إمساك اليد عن بذل المال حين يفدي صاحب الحاجة الفقير، وصاحب الغرم الثقيل؟.

ان أيامنا على الأرض معدودة، ونهايتها بعد الحياة الموت، وبعد الموت القبر، وبعد ذلك في حسبان الجاهليين - النسيان والفراغ، فلماذا لا نمتع أنفسنا بلذاتها؟ ولماذا نمسك أيدينا عن صنع وجود كريم لنا يبقى بعد ذهابنا في قلوب الناس وعلى مستتهم بما نصنع من خير، وبما نسدي من معروف؟ ان العجز كل العجز، والخرق كل الخرق أن يتمرد انسان على واقعه فيظن الخلود لنفسه، ويدفعه ذلك إلى إمساك يده عن البذل، وإمساك نفسه عن الحرب، والظن عليها بلذتها.

هذه النظرة الواقعية ليست شيئا مرتجلأ، وإنما هي نتاج تفكير يفلسف الحياة والموت، وتقلب الأنساب بينهما، وهي أكثر ما تكون شيوعا في الشعر العربي.

يسمع طرفة بن العبد كيف يقول في تعليق إسرافه في إنفاقه، وإسرافه في ملاذه، وعدم إمساك يده عن البذل، وعدم إمساك نفسه عن اللذة:
أرى قبر نحام (١) بخيل بماله * كقبر غوي في البطالة مفسد
ألا أيها ذا اللائمي أحضر الوغى * وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي * فدعني أبادرها بما ملكت يدي

(١) النحيم: الزحير والتنحنح، وذلك لأن البخيل إذا طلب إليه حاجة كثيرة عماله ليداري ارتباكه.

ويقول يزيد بن الحكم الثقفي وهو ينصح ابنه:
ما بخل من هو للمنون * وريها غرض رجيم؟
ويرى القرون أمامه * همدوا كما همد الدهشيم (١)
* * *

وحاتم الطائي يقول لزوجته:
أماوي ما يعني الشراء عن الفتى * إذا حشر جت يوما وضاق بها الصدر؟
أماوي إن يصبح صدایي (٢) بقفرة * من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرني * وأن يدي مما بخلت به صفر (٣)
* * *

وأياس بن القائيف يقول:
يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم * وترمي النوى (٤) بالمقترين (٥) المراميا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتا معا * كفى بالممات فرقة وتنايا
* * *

(١) الدهشيم: اليابس من النبت.

(٢) صدای: الصدی، ذكر البوم. والصدی: الذي يحييك بمثل صوتك في الجبال وغيرها.
والصدی: العطش. والصدی هنا: ما يبقى من الميت في قبره، يكنى الشاعر بذلك عن
الوحدة والوحشة.

(٣) الصفر - بالكسر - : الخالي، (بيت صفر) حال من المتع. ورجل صفر اليدين:
ليس فيها شيء.

(٤) النوى: البعد. يقولون: (بعدت نواهم) إذا بعدوا بعدا شديدا.

(٥) المقترين جمع مقتر: الفقير المقل.

وقال النمر بن تولب:

وَحَتَّىٰ جَمْعُ وَمِنْعَ، وَنَفْسَهَا * لَهَا فِي صَرْوَفِ الْدَّهْرِ (١) حَقْ كَذُوبٍ
وَكَائِنٌ رَأَيْنَا مِنْ كَرِيمٍ مَرْزَأً (٢) * أَخِي ثَقَةٍ، طَلَقَ الْيَدِينَ وَهُوبٍ
شَهَدَتْ، وَفَاتُونِي وَكَنْتُ حَسْبِتُنِي * فَقِيرًا إِلَىٰ أَنْ يَشْهُدُوا وَتَغْبَيْ
أَعْدَلٌ إِنْ يَصْبِحَ صَدَايِ بَقْفَرَةٍ * بَعِيدًا نَانِي صَاحِبِي وَقَرِيبِي
تَرِي أَنْ مَا أَبْقَيْتَ لِمَ أَكَ رَبِّهِ * وَأَنَّ الَّذِي أَمْضَيْتَ كَانَ نَصِيبِي
وَذِي إِبْلٍ يَسْعَىٰ وَيَحْسِبُهَا لَهُ * أَخِي نَصْبٍ (٣) فِي رَعِيَّهَا وَدَؤُوبٍ
غَدَتْ وَغَدَ رَبُّ سَوَاهِ يَسْوَقُهَا * وَبَدَلَ أَحْجَارًا وَجَالَ قَلِيبَ (٤)
* * *

وقال أيضاً:

قَامَتْ تِبَاكِي أَنْ سَبَأَتْ (٥) لَفْتِيَةٍ * زَقَ (٦) وَخَابِيَةٍ بَعْدَ مَقْطَعٍ (٧)
وَقَرِيتَ فِي مَقْرِي (٨) قَلَائِصَ أَرْبَعاً * وَقَرِيتَ بَعْدَ قَرِي قَلَائِصَ (٩) أَرْبَعَ

(١) صَرْوَفُ الدَّهْرِ: تَقْلِبَاتُهُ وَمَصَابِيهِ.

(٢) رَجُلٌ مَرْزَأً: أَيْ كَرِيمٌ، يَصِيبُ النَّاسَ خَيْرًا.

(٣) النَّصْبُ: التَّعْبُ وَالْجَهْدُ.

(٤) القَلِيبُ: الْبَئْرُ. وَالْجَالُ: جَدَارُ الْبَئْرِ.

(٥) سَبَأُ الْخَمْرِ: إِذَا اشْتَرَاهَا لِيُشْرِبُهَا. وَلَا يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْخَمْرِ خَاصَّةً.

(٦) الزَّقُ - بِالْكَسْرِ -: السَّقَاءُ، أَوْ جَلْدٌ يَحْزَ شَعْرَهُ أَوْ صَوْفَهُ وَلَا يَنْتَفُ، يَتَحَذَّلُ لِلشَّرَابِ
وَغَيْرِهِ.

(٧) الْعُودُ: الْجَمْلُ الْمَسْنُ. وَالْمَقْطَعُ - بِفَتْحِ الطَّاءِ - فَحْلُ الْإِبْلِ الَّذِي انْقَطَعَ عَنِ الضَّرَابِ.
يَرِيدُ الشَّاعِرُ أَنْ صَاحِبَتِهِ تِبَاكِتْ أَسْفًا عَلَىٰ أَنْ اشْتَرَىٰ لِأَصْدَقَائِهِ خَمْرًا بِعِيرٍ مَسْنُ انْقَطَعَ عَنِ الضَّرَابِ
لَا خَيْرٌ فِي لَحْمِهِ وَلَا يَنْسَلُ.

(٨) الْمَقْرِيُ - بِكَسْرِ الْمِيمِ -، وَسَكُونِ الْقَافِ، وَفَتْحِ الرَّاءِ - إِنَاءٌ يَقْرُى فِيهِ الضَّيْفُ وَقَرِيتُ
الضَّيْفُ: أَحْسَنَ إِلَيْهِ.

(٩) قَلَائِصُ: جَمْعُ قَلَوْصٍ: وَالْقَلَوْصُ مِنَ النُّوْقِ الشَّابِةِ، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْجَارِيَةِ مِنَ النِّسَاءِ.

أتبكيا من كل شئ هين؟ * سفه بكاء العين ما لم تدمع
إذا أتاني إخوتي فدعهم * يتعللو بالعيش أو يلهموا معي
لا تطرديهم عن فراشي إنه * لابد يوماً أن سيخلوا مضجعى
هلا سألت بعادية (١) وبيته * والخل والخمر التي لم تمنع؟
* * *

وقال الحارث بن حلزة:
بینا الفتی یسعی ویسعی له * تاح (٢) له من أمره خالج (٣)
یترك ما رقع (٤) من عیشه * یعیث فیه همچ هامچ (٥)
لا تکسح الشول باغبارها (٦) * إنك لا تدری من الناتج (٧)
* * *

(١) عادیاء. مراده: السموأل بن عادیاء. قوله: (هلا سألت بعادیاء). الباء هنا بمعنى (عن) مراده (هلا سألت عن عادیاء). على نحو قوله تعالى: (سأل سائل بعذاب واقع) أي عن عذاب، فالباء هنا بمعنى عن. يريد الشاعر أن يقول لصاحبته التي تلومه على بذله وكرمه أن عليها أن تسأل عن ابن عادیاء الکريم الباذل لتعرف أن صاحبها مثله.

(٢) تاح له الشیء، وأتیح له: قدر له.

(٣) الخالج: الشاغل، يقال: خلجنی کذا، أي شغلني، ويقال: خلجته أمور الدنيا.

(٤) رقع ماله: أصلحه.

(٥) الهمج: ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها. قوله: هامج توکید. يريد أن الإنسان إذا أصلاح عیشه واطمأن يعرض له ما يفسد حاله وینغض عليه عیشه.

(٦) الكسح: أن تضرب دبر الإنسان بيده أو بصدر قدمك. الشول - بسکون الواو -

النوق التي خف لبنيها. والاغبار جمع غبر - بضم فسکون - بقية اللبن في الضرع. وكسحت الناقة بغيرها أي ضربت ضرعها بالماء البارد ليتراد اللبن في ظهرها.

(٧) الناتج: الذي ستتتج له هذه النوق، فربما تكون أنت، وربما يكون غيرك.

وقال الهذلي :

إِنَّ الْكَرَامَ مُنَاهِبُوكَ * الْمَجْدَ كُلَّهُمْ فَنَاهِبٌ
أَخْلَفَ وَأَتَلَفَ، كُلُّ شَيْءٍ * ذَرَ عَنْهُ الرِّيحَ ذَاهِبٌ
* * *

وقالت امرأة :

أَنْتَ وَهَبْتَ الْفَتِيَّةَ السَّلَاهِبَ (١) * وَإِبْلًا يَحْارُ فِيهَا الْحَالَبُ
وَغَنِمًا مِثْلَ الْجَرَادِ الْهَارِبِ * مَتَاعُ أَيَّامٍ وَكُلُّ ذَاهِبٍ
* * *

وقال تميم بن مقبل :

فَأَخْلَفَ وَأَتَلَفَ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةً * وَكُلَّهُ مَعَ الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكِلٌ
* * *

هذه الواقعية هي في العربي خلق أصيل كما رأيت.

وقد جاء الاسلام فأكدها، وهذبها، وسمى بها، ووجهها وجهة اجتماعية.

فإذا كان الموت شيئاً لازماً لنا، وكنا نعتقد بأن وراء دنيانا هذه دنيا

أخرى أعظم وأحفل وأنبل، أو دنيا أخرى أنكد وأجفى وأبلغ في الإيذاء

فلماذا لا نعد العدة لرحيلنا، ولماذا لا يلهينا حاضرنا الحقير عن مستقبلنا المرقب؟

(١) السلهب من الخيال: الفرس الطويل على وجه الأرض.

ولماذا التكالب والوحشية؟ ولماذا نصر على أخذ الدنيا عن طريق الختل والغدر؟ ولماذا نصر على ظلم إخواننا من الناس في سبيل أن نزيد ذهبنا المكدس درهماً جديداً؟ ولماذا نبغض إخواننا في الدين والانسانية والوطن في سبيل عرض حقير؟ فنفسد حياتنا على أنفسنا، ونفسد حياة إخواننا، ونعيش غرباء، لا تجمعنا عاطفة، ولا تصل بين قلوبنا رحمة، ولا يتائق في أعيننا لإخواننا حب. إلا يكفيانا أن الموت سيفرق بيننا؟ لا. لا. أكرم أخاك الدهر ما دمتما معا.

هذه الواقعية الوادعة المحببة، وهذا الشعور الانساني الفياض الدافق، كانا غريبين عن نفوس الناس وقلوبهم في مجتمع العراق أيام الإمام عليه السلام، وقد كان الإمام يعمل على إعادة الشعور بها إلى النفوس، وسنجده في بعض الألوان التي احتواها القسم الوعظي من كلامه ينعي على الناس تركها، ويحضهم على الرجوع إليها، والصدور في سلوكهم عنها.

* * *

واثمة لون آخر من كلامه عليه السلام ربما لا يسمى وعظاً، ولكنه يندد فيه بالناس على تركهم لهذا اللون من النظر إلى الحياة والموت، ويدعوهם إلى الرجوع إليه. قال:

(.). وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً، والشر إلا إقبالاً، ولا الشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً.. اضر بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً (١)، أو متمراً كان بأذنه عن

(١) الوفر: المال الكثير.

سمع الموعظ وقرأ (١) (٢).
وقال:

(٤). فمن آتاه الله مala فليصل به القرابة،
وليحسن منه الضيافة، وليفك به الأسير
والعاني، وليعط منه الفقير والغارم (٣)، ولি�صبر
نفسه (٤) على الحقوق والنواب، فإن فوزا بهذه
الحصول شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل
الآخرة (٥).
* * *

راجع النصوص التالية: رقم ٢٣ و ١٠٨ و ١١٥ و ١٢٧ و ١٤٠ و ١٦٤ و ١٦٥.

-
- (١) الورق: ثقل الاذن وقلة سمعها.
 - (٢) نهج البلاغة، رقم النص: ١٢٧.
 - (٣) الغارم: من عليه دين.
 - (٤) صبر نفسه: حبسها.
 - (٥) نهج البلاغة، رقم النص: ١٤٠.

(٣)

لا يريد منا الإمام عليه السلام أن نقطع أنفسنا عن دنيانا وأن نحرمنها لذات هذه الدنيا، وأن نغل غرائزنا وشهواتنا عن الانطلاق. إن التحرر عن طريق الحرمان شيء عظيم ونبيل، ولكن أكثر الناس لا يستطيعونه، ولا يقرون على احتماله.

فها هو عليه السلام يقرر في إحدى كلماته المضيئة الهدافية عقم كل محاولة ترمي إلى اقتطاع الإنسان من واقعه: واقع جسمه وغرائزه ورغباته كإنسان، وواقع حياته ذات المطالب وال حاجات، وواقع كينونته الاجتماعية.

يقرر عليه السلام عقم كل محاولة ترمي إلى اقتطاعه من هذا الواقع بالتنكر لغرائزه ورغباته وحاجاته حياته ولكن لماذا؟ لأن أسر هذه الغرائز والرغبات مodus في طبيعة الإنسان، ولا يسعه التفلت من أسرها إلا بالاستحالة إلى ذات أخرى.

قال عليه السلام: (الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه) (١).

(١) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣٠٣.

كُنَى بذلك عن أن دوافع الإنسان إلى إجابة حاجات نفسه وشهواتها مودعة فيه، وإذا كانت مودعة فيه فهي جزء من كيانه، وهي تسهم في حبك جزء من نسيج وجوده الإنساني، ولذلك فهو يحبها ويقبل عليها، ويأخذ بحظ منها، ولكن لا لوم عليه في ذلك، فهو حينما يقبل عليها إنما يلبي بآجاله هاتفاً ملحاً قبل له بكتم صوته مهما أُوتى من عزيمة ومضاء.

وهنا تأتي قصة عاصم بن زياد شاهد صدق على ما نقول: دخل عليه السلام على العلاء بن زياد الحارثي يعوده فلما رأى سعة داره قال: (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج؟ وبلى ان شئت بلغت بها الآخرة، تقرى فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها (١)، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة).

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكوك إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: ليس العبادة وتخلي عن الدنيا. قال: علي به، فلما جاء قال: (يا عدي (٢) نفسه لقد استهان بك الخبيث (٣)، أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك).

(١) أطلع الحق مطلعه: أظهره حيث يجب أن يظهر. ومطالع الحقوق مصارفها الشرعية.

(٢) عدي: مصغر عدو.

(٣) الخبيث: الشيطان. استهان بك: تعلق بك.

فقال عاصم: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وخشوبة مطعمك؟ . قال:

(ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا (١) أنفسهم بضعفه الناس كيلا يتبع (٢) بالفقير فقره) (٣).

ففي هذه القصة نرى الإمام عليه السلام يلوم العلاء على سعة داره، ويتحذذ لومه سبيلا إلى بيان وجوه الانتفاع بها، فيشير إلى أنه لا حرج على المرء في أن يجمع بين الدنيا والآخرة، فيمتع نفسه في الدنيا بمباحثها، ويلغ في الآخرة عليها الدرجات.

ثم يؤنب عاصما على فعله حين هجر الدنيا ولبس العباءة، فيبين له أنه بفعله هذا أناني يعمل لنفسه، إذ أن جدوى عمله لو استطاعه ووالاه لا ترجع إلا إليه، وأما غيره من الناس فلا يصيب منه نفعا وخاصة أهله وولده وهم الصدق الناس به، وبين أن من الخير له أن يجمع بين العمل لنفسه والعمل لغيره، وأن يجمع بين الدنيا والآخرة. والطبيات؟ هل حرمتها الله؟ كلا ان الانسان مدعو لأن يصيب منها شريطة ألا يستغرق فيها على نحو يلهيه عن الغاية الرفيعة لوجوده.

* * *

وقال عليه السلام:
(للمؤمن ثلات ساعات: فساعة ينادي فيها ربه

(١) يقدروا أنفسهم: يساوا أنفسهم بضعفاء الناس، فيكونوا قدوة للأغنياء.

(٢) يتبع: يهيج بالفقير ألم الفقر فيهلكه.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص: ٢٠٧.

و ساعة يرم معاشه (١)، و ساعة يخللي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويحمل. وليس للعاقل أن يكون شاخصا إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم) (٢). وقال عليه السلام: (خذ من الدنيا ما أتاك، وتول عما تول عنك، فإن أنت لم تفعل فأحمل في الطلب) (٣) - (٤).

* * *

هذا موقفه من الدنيا: لا حرج على الإنسان أن يطلب الدنيا ويسعى إليها ويصيّب من لذاتها، ولكن عليه أن يطلب الدنيا من طريق الحلال، ويصيّب من لذتها ما يحل ويحمل، ثم لا يتھالك على الدنيا ولذاتها على نحو غير إنساني، بحيث ينقلب من انسان ذي مشاعر نبيلة، وإمكانات رفيعة عالية إلى مجرد آلة. آلة لجمع النقود وتكديسها، لتنفق في وجوه غير إنسانية. إن هذا ليس جديرا بالانسان أن يفعله، أجمل في الطلب لتعطي لنفسك حقها ولربك حقه.

* * *

(١) يرم معاشه: يصلح معاشه.

(٢) نهج البلاغة، باب المختار من الحكم، رقم النص: ٣٩.

(٣) أي فإن لم تترك ما تولى عنك وأردت أن تطلبه، فليكن طلبك جميلا، واقفا بك عند الحق.

(٤) نهج البلاغة، باب المختار من الحكم رقم النص: ٢٩٣.

والفقر؟! ما موقف الامام منه؟.

إن الامام ليكره الفقر، ويستعيذ بالله منه، ويأمر الناس بالاستعاذه بالله منه، وينعنه بأقبح النعوت. قال عليه السلام:

(الغنى في الغربة وطن، والفقير في الوطن غربة) (١).

(الفقر يخرب الفطن عن حجته) (٢).

(الفقر الموت الأكبر) (٣).

(ألا وإن من البلاء الفاقة، وأشد من الفاقة مرض البدن، وأشد من مرض البدن مرض القلب.

ألا وإن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب) (٤).

وقال لابنه محمد بن الحنفية:

(يابني إني أخاف عليك الفقر فاستعد بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للموت) (٥).

(١) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٥٦.

(٢) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣.

(٣) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ١٦٣.

(٤) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣٨٨.

(٥) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣١٩.

وإن إنسانا ينعت الفقر بهذه النعوت لا يمكن أن يقال عنه إنه يحبذ الفقر ويكره الغنى، ولقد كان عليه السلام يستعيد بالله من الفقر، ويسأله أن يغنيه، فمن دعاء له عليه السلام:

(اللهم صن وجهي باليسار (١)، ولا تبذل جاهي بالاقترار (٢)، فأسترزق طالبي رزقك، واستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني، وافتتن بدم من منعني، وأنت من وراء ذلك كلهولي الاعطاء والمنع، إنك على كل شيء قادر) (٣).

ومن دعاء له عليه السلام:

(اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك، أو أضل في هداك، أو أضام في سلطانك، أو اضطهدوا لأمر لك) (٤).

وهكذا ترى أنه عليه السلام يحارب الفقر حربا لا هوادة فيها، ويحذر منه، ويستعيد بالله أن يبتليه به.

(١) صيانة الوجه: حفظه من ذل السؤال، واليسار الغنى. يسأل الله تعالى أن يغنيه لئلا يضطر إلى السؤال.

(٢) بذل الجاه: إسقاط المنزلة. والافتقار الفقر. يسأل الله تعالى ألا يفقره فتسقط منزلته.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص: ٢٢٣.

(٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٢١٣.

ان الدنيا عنده جديرة بالاقبال عليها، والعمل فيها، والاخذ بحظ من متعها ولذاتها، وإن الفقر عنده أمر مذموم خطير، على الانسان أن يتخلص منه ويستعيد بالله من بلوائه.

* * *

راجع النصوص التالية: ٢٠٧ و ٢١٣ و ٢٢٣، وفي باب المختار من حكم أمير المؤمنين راجع النصوص التالية: رقم ٣ و ٥٦ و ١٦٣ و ٣١٩ و ٣٨٨ و ٣٩٠ و ٣٩٣ و ٤١٦.

(٢٣٥)

(٤)

وإذ قد تم لنا أن نلم بالمثل الأعلى للحياة في الإسلام، والواقع الاجتماعي الذي كان يعانيه الإمام، والواقعية العربية التي احتضنها الدين، ورأي الإمام عليه السلام في الدنيا والآخرة، والغنى والفقر، فلناخذ سبيلاً إلى دراسة القسم الوعظي من نهج البلاغة.

والقسم الوعظي على ضروب وألوان، ففيه مواعظ بالتحذير من اتباع الهوى وطول الامل، وأخرى بالحث على العمل قبل فوات الفرصة، وثالثة بالتزكير بالماضيين، ورابعة بتقلب الدنيا.

* * *

ماذا يعني اتباع الهوى وطول الامل في الدنيا؟

أما اتباع الهوى فهو يعني أن الإنسان يبني مشاريعه على أساس غير عقلية، ومن ثم فهي غير واقعية، وإنما هي قائمة على نزوات وشهوات ضخمها الخيال. وأما طول الامل فيعني أن الإنسان يغمض عينيه عن أعظم حقيقة هو لابد ملاقتها وهي الموت.

(٢٣٦)

وإذا فهذا اللون من الوعظ موجه إلى الذين يتهمون على الدنيا تهملاً خطراً يجرهم إلى أمرتين خطيرتين: أولهما تزيف الواقع الذي يحيونه، وهذا ما يسميه بطول الامل، وثانيهما ضمور الحاسة الأخلاقية في النفس، إلى حد يجعل الإنسان ضعيفاً أمام رغائبه وأهوائه. ويترك إلى هذه الرغائب والأهواء أمر صياغة مصيره.

قال عليه السلام: (أيها الناس، ان أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الامل. فأما اتباع الهوى فيقصد عن الحق. وأما طول الامل فيبني الآخراة. ألا وان الدنيا قد ولت حذاء (١)، فلم يبق منها إلا صبابة (٢) كصباة الاناء اصطبها صابها، ألا وإن الآخرة قد أقبلت، ولكل منهما بنون، فككونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيمة وان اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل (٣)).

العمل للدنيا على نحو يوجب ضمور الحس الأخلاقي في النفس، وعلى نحو يوجب تزيف الواقع وحسبان الخلود، مما يوجب نسيان الآخرة، والاندفاع في حياة مادية، تجريد الإنسان من معناه الإنساني لتحليله إلى مجرد آلة لجمع النقود والاستمتاع، هذا العمل شر كله، لأنه يفسد الشخصية الإنسانية ويهبط بها، ولذلك فهو عمل منهي عنه.

(١) حذاء: سريعة.

(٢) الصبابة: البقية من الماء واللبن في الاناء.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص: ٤٢.

ثم نبه إلى أن طول الامل والتزييف للواقع أمر لا مبرر له فالدنيا سريعة (حذاء) وهي بالنسبة إلى كل شخص، (لم يق منها إلا صيابة كصيابة الاناء) فلماذا طول الامل وما مبرره؟.

وهاتان الآفتان النفسيتان: اتباع الهوى وطول الامل، لا تحلان إلا في نفس اطاحت النظرة الواقعية الاسلامية. وقد كان الواقع الاجتماعي في زمن الامام يبعد بين الانسان وبين هذه الواقعية وينأى به عنها.

وهذا النحو من العمل للدنيا يسبب التفسخ الاجتماعي، فهو لا يقتصر بآثاره الضارة على الفرد وحده، وإنما يمتد بهذه الآثار إلى المجتمع.

قال عليه السلام:

(.. قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال،
وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا أملك
بكم من الآخرة، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة.
وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرق بينكم
إلا خبث السرائر، وسوء الضمائير، فلا توازرون،
ولا تناصحون، ولا تبادلون ولا توادون، ما
بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا
يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه؟ ويقلقكم
اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبيّن ذلك في
وجوهكم وقلة صبركم عما زوي (١) منها عنكم،
كأنها دار مقامكم، وكأن متعها باق عليكم!!

(١) زوي عنكم: زواه أي نحاح.

وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عييه إلا مخافة أن يستقبله بمثله. قد تصافيتم على رفض الآجل، وحب العاجل، وصار دين أحدكم لعقة (١) على لسانه، صنيع من قد فرغ من عمله وأحرز رضى سيده (٢).
وقال عليه السلام:

(..) قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم (٣)، ونبت المرعى على دمنكم (٤)، وتصافيتم على حب الآمال، وتعاديتم في كسب الأموال، لقد استهان بكم الخبيث (٥) وتأه بكم الغرور (٦).

أرأيت إلى هؤلاء الذين جمعتهم الإنسانية فوحدت غرائزهم وقواهم ومداركهم، ثم جمعهم الدين والوطن فوحداً آمالهم، وآلامهم، وأهدافهم، ومطامحهم، كيف جعلهم العمل للدنيا، على نحو جنوني، يفقدون أجل ميزاتهم

(١) عبر باللعقة عن الاقرار باللسان مع كونه مخالفًا بالقلب.

(٢) نهج البلاغة، رقم النص: ١١١.

(٣) اصطلحتم: اتفقتم، والغل: الحقد. أي اتفقتم على تمكين الحقد في النفوس.

(٤) الدمن: جمع دمنة، وهي الحقد القديم. ونبت المرعى على دمنكم: أي أن حقد بعضكم على بعض مستور بظواهر التفاق فيما بينكم. وأصل معنى الدمن: نفاثات الإنسان من بطنه وأرواث الماشية وأبواالها، وسميت بها الأحقاد لأنها أشبه شيء بها، وقد تبنت على هذه القدارات الأعشاب الخضراء فتستترها بمنظر جميل، يخفى تحته قذارة تعافها النفس، فهكذا الأحقاد الإنسانية المخبأة تحت ستار من التصنّع والرياء.

(٥) استهان: أصله من (هام على وجهه) إذا خرج لا يدرى إلى أين يذهب، أي أخرجكم الشيطان من نور الفطرة وضياء الشريعة إلى ظلمات الضلال والحيرة.

(٦) نهج البلاغة، رقم النص: ١٣١.

الانسانية فلا يتوازرون، ولا يتناصحون ولا يتباذلون. واستحالت هذه النبالات في أعماقهم إلى غرائز ذئبية فخابت سرائرهم، وفسدت ضمائرهم، وانفصمت عرى الود فيما بينهم، وانظر كيف ساقهم ذلك إلى الجبن الاجتماعي، فيغضي أحدهم عن عيب صاحبه، لأنه يخشى أن يواجهه بعيه.

وقد عرفت أنه عليه السلام لا يتنكر لمن يعمل للدنيا على نحو لا يلهيه عن الآخرة، ولا يحيله إلى آلة جشعة لا تعرف معنى للشبع ولا للوقوف، وهو في هذا اللون الوعظي لا يدعو إلى هجر الدنيا وإنما يدعو إلى التخفيف من الظراوة في طلبها ويدعو إلى النظر إليها من زاوية الواقع وحده.

وإن طائفة من الناس تحيا هذا اللون البشع من الحياة المادية الحالصة التي وصفها الإمام عليه السلام في النص الذي قدمناه لبعيدة كل البعد عن المثل الاعلى للحياة في الإسلام، فهو لاء الدين أقفرت ضمائرهم من الشعور بالله، وصار دين أحدهم لعقة على لسانه، قد انقلب كل منهم إلى أنانية تمشي، فيتنكر لمجتمعه ويسير على هدى شهواته.

وإن العمل للدنيا على هذا النحو الذي يفقد الإنسان أجل ميزاته لهو عمل جدير بأن يحارب.

* * *

راجع النصوص التالية: رقم ٤٢ و ٨٤ و ١٠٣ و ١١١ و ١٣١، وفي باب المختار من الحكم راجع: رقم ١٨ و ٣٦.

(٥)

والتدكير بالماضين وبما عرض لهم من طوارق الدهر ونوازل الأيام، وبما ألم بهم من نكبات وآلام، وكيف أن كل ما نصبووا أنفسهم لجمعه من مال لم يغرنهم شيئاً حين حل بهم الموت.. هذا التذكير بالماضين يتخد الإمام عليه السلام وسيلة إلى تجسيم الواقع الذي يزيفه الناس، ويفرون منه، ويتردون عليه. والتاريخ عند العاملين للدنيا على نحو جنوني ينقلب إلى مادة للتسلية واللهو بدل أن يكون منبعاً للعبرة ومقيلاً من العترة، وينقلب أيضاً صدى ميتاً لكتائن لا تصلهم بها صلة، ولا تشدهم إليها وشيعة، فلا تشير مأسية فيهم طائف حزن، ولا تمدهم تجاربه بال بصيرة.

ويحاول الإمام في هذا اللون من مواضعه أن يصل ما انقطع بينهم وبين التاريخ بصلات الفكر والعاطفة، ووسائل العقل والقلب، ليعود التاريخ في أنفسهم مادة غنية بالحياة والحركة، فهي توجه وترشد، وتمسك بالانسان عن الزيف والانحراف.

قال عليه السلام:

(.. وخلف لكم عبراً من آثار الماضين قبلكم،

(٢٤١)

من مستمتع خلائقهم (١) ومستفتح خنائقهم (٢)،
أرهقتهم (٣) المنايا دون الآمال، وشد بهم عنها
تخرم الآجال (٤)، لم يمهدوا في سلامه الأبدان (٥)
ولم يعبروا في أنف الاوان (٦).. أو لستم أبناء
القوم والآباء، وإنحوانهم والأقرباء؟ تحتذون
أمثالهم، وتركبون قدتهم (٧)، وتطاؤن
جادتهم (٨)؟ فالقلوب قاسية عن حظها، لا هية
عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن
المعني سواها (٩)، وكأن الرشد في إحراز
دنياه (١٠)).

وهكذا يقرر عليه السلام صلة التاريخ بهم، وأنه ليس غريبا عنهم فهو تاريخ
آبائهم وأمثالهم.

ويقرر أيضاً أن هذا التاريخ مسلول عن عمله، فهو لا يقوم بدوره في صياغة
حياتهم، لأنهم لا يزالون يتھجرون نفس الخطة التي انتهجها من قبل آباؤهم، فكأن
الدنيا عندهم غاية كل شيء ومتنهى كل غاية.

(١) الخلاق: النصيб الوافر من الخير.

(٢) الخناق: حبل يخنق به. كنایة عن أنهم لم يغتنموا الفسحة في العمر.

(٣) أرهقتهم: أعجلتهم.

(٤) انتقاء آجالهم قطعهم (شد بهم) عن بلوع آمالهم.

(٥) لم يمهدوا. أي لم يهياوا أنفسهم للقاء الله تعالى، وهم في حال السلامة.

(٦) أمر أنف - بضمتين - أي أمر جديد مستأنف لم يسبق به قدر.

(٧) القدة: الطريقة.

(٨) تطاؤن جادتهم: تسرون على سبلهم، بلا انحراف عنهم في شيء.

(٩) كان المعنى: كان المقصود بالتكليف الشرعية سواها.

(١٠) نهج البلاغة، رقم النص ٨١.

وقال عليه السلام:

(.). فقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال،
وحضر الأقلال (١) وأمن العواقب - طول أمل
 واستبعاد أجل - كيف نزل به الموت، فأزوجه عن
وطنه، وأخذه من مأمه، محمولا على أعواد المنايا (٢)
يتعاطى به الرجال الرجال، حملا على المناكب،
وإمساكا بالأنامل. أما رأيتم الذين يأملون بعيدا،
ويينون مشيدا، ويجمعون كثيرا كيف أصبحت
بيوتهم قبورا وما جمعوا بورا (٣)، وصارت
أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين (٤).
وإذن فلم يغرن عن هؤلاء تزييفهم لواقعهم، وغرورهم بأنفسهم، وحسبانهم
أنهم خالدون.

لقد دهمهم هذا الواقع وهم يحسبون أنهم في أمان، فهل أغنت عنهم أموالهم
وهل حصنتهم قصورهم؟ لا، لقد ذهبوا، فليكن لك فيما صار إليه أمرهم عبرة
تدفعك إلى اليقظة، وترحض عنك الغفلة.

ومن بين أن الإمام عليه السلام في هذا اللون من مواعذه لا يريد الناس على أن
يغروا من دنياهم، ويتركون العمل لها، فقد رأينا يكره هذا اللون من السلبية

(١) الأقلال: الفقر.

(٢) أعواد المنايا: النعش. (يتعاطى به الرجال). يتداولونه تارة على أكتاف هؤلاء،
وأخرى على أكتاف هؤلاء.

(٣) البور: الفاسد الهالك. وقال تعالى: (وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) أي هالكين.

(٤) نهج البلاغة، رقم النص: ١٣٠.

إنما يريد أن يحملهم على أن ينظروا إلى الحياة من زاوية الواقع وأن يصدروا في سلوكهم عن هذه النظرة الواقعية الوداعية المصيبة.

راجع النصوص التالية: رقم ٢٠ و ٣٢ و ٨١ و ١٠٩ و ١٣٠ و ١٨٠ و ٢٢٤ وفي باب الكتب وصيته إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام رقم: ٣١.

(٦)

ذكر الإمام عليه السلام أن طول الامل ينسى الآخرة.

ومن البين أن الإنسان حين ينسى أن ثمة عالما آخر سيصير إليه، فإنه يحصر جميع وجوه نشاطه في العمل الدنيا، ولا يتورع في عمله هذا عن سلوك أقبح الطرق الموصولة إلى حيازة المزيد من المال، والتمتع بالمزيد من القوة، وهكذا يدفع طول الامل إلى اتباع الهوى، الذي عرفه الإمام بأنه يصد عن الحق، فهو يحمل صاحبه على ركوب كل شئ في سبيل الوصول إلى ما يريد.

إذا تمكن طول الامل واتباع الهوى من نفس إنسان حمله على طلب الدنيا على نحو جنوني يجعله خطرا اجتماعيا، وعلى نسيان العمل للأخرة.

في بعض الألوان الوعظية التي يحتويها القسم الوعظي من نهج البلاغة يحارب الإمام عليه السلام هذا الانحراف، ويدعو الغافلين عن مصيرهم إلى العمل له.

إذا كان طول الامل غرورا حادعا، وكان اتباع الهوى باطلا، وكنا نعلم بأن المصير هو الموت، وإننا سنصير بعد الموت إلى دنيا أخرى نجزى فيها بما قدمناه من أعمالنا: ثواب إن أحسنا ونؤخذ بجرائمنا إن كنا من ذوي الجرائم. وإذا كان هذا كله حقا فلماذا لا نقدم لأنفسنا ما نحرزها به غدا، ونحن نعلم

(٢٤٥)

أننا حينذاك لا نملك أن نعمل شيئاً، فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، ونحن نعلم أن الموت قد يلم بنا في أي لحظة، فلماذا التسويف؟ ومن البين أنه عليه السلام لا يدعو إلى ترك الدنيا وإنما يدعو إلى العمل للآخرة. وكأن الإمام يدعو إلى الجمع بين الآخرة والدنيا، فهو لا ينهى عن العمل للدنيا، وإنما ينهى عن الاستغراق في هذا العمل، بحيث ينسى الإنسان الآخرة ويقفر ضميره من الشعور بالله، وينقطع ما بينه وبين مجتمعه من أواصر الود والرحمة، وذلك كله يحول بينه وبين أن يبلغ المثل الأعلى في الإسلام.

قال عليه السلام:

(فليعمل العامل منكم في أيام مهلة (١) قبل إرهاق أجله (٢)، وفي فراغه قبل أوان شغله، وفي متنفسه قبل أن يؤخذ بكظمه (٣)، وليمهد لنفسه وقدومه، ولি�تزود من دار ضعنه لدار إقامته) (٤).

وما نشك في أن هؤلاء الذين كان الإمام عليه السلام يدعوهم إلى العمل للآخرة قبل فوات الفرصة كانوا قوماً يقيمون الصلاة لأوقاتها، ويصومون رمضان، ويحجون البيت، فماذا كان يريد الإمام منهم غير هذا؟

(١) المهلة: المهلة والفسحة.

(٢) إرهاق الأجل: أن يقرب الأجل، فلا يبقى للمفرط فرصة يتدارك بها ما فاته من العمل.

(٣) الكظم - بالتحرير - الحلق، أو مخرج النفس. والأخذ بالكظم كنایة عن التضييق عند قرب الأجل أو حلوله.

(٤) نهج البلاغة، رقم النص: ٨٤.

نعم، إن هؤلاء كانوا يأتون كل هذا وزيادة، وقد يحسب السطحيون أن هذا وحده كاف لجعل الإنسان فاضلاً، ولكنه في ميزان الامام أضعف الإيمان. فهؤلاء الذين كان يتوجه إليهم الإمام بكلامه هذا كانوا يصلون ويصومون، ويحجون البيت.

ولكن القبلية كانت تعصف بهم عصفاً شديداً.

ولكن الأحقاد والمطامع كانت تدفعهم إلى التناكر فيما بينهم، وكانت تسل من أرواحهم كل خلق إنساني حميد.

ولكن سياسة معاوية كانت تستهويهم، فتحملهم على الخيانة وتحملهم على الرضا بالذلة، وتحملهم على أن يصيروا عبيداً.

ولكنهم كانوا فرد़ين لا يأبهون للمجتمع ولا يحسبون لآلامه حساباً.

كانوا غرباء عن هذه الخلائق. ولذلك لم يرض عنهم الإمام، ولذلك استشارهم إلى العمل للأخرة قبل فوات الفرصة.

ولم يكن هذا العمل الذي أراده منهم صلاة ولا صوماً ولا حجاً، فتلك أمور كانوا يأتون بها، ولا يقدعون عنها.

لقد كان العمل الذي أراده هو الفضيلة، هو أن يكون كل منهم خلية اجتماعية حية، تكدر في سبيل خير المجموع، هو أن يكونوا أحراراً فلا تستعبدهم الشهوات، فتحملهم على الانحراف عن الحق، ولا تستعبدهم الحياة فتحملهم على الرضا بها مسفة حقيقة عارية من كل نبالة رفيعة وهدف عظيم. كان يريدهم أن يحطموا أصنام اللحم التي يعبدونها، أعني ساداتهم ورؤسائهم ومن له عليهم سلطان ليخلصوا العبادة لله وحده.

قال عليه السلام:

(.. إن من عزائم الله في الذكر الحكيم التي عليها يثيب ويعاقب، ولها يرضى ويُسخط، أنه لا ينفع عبدا - وان أجهد نفسه وأخلص فعله - أن يخرج من الدنيا لاقيا ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتبع منها: أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يعر (١) بأمر فعله غيره، أو يستنصح (٢) حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانيين، إعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه) (٣).

وقال عليه السلام:

(.. ولا ترخصوا لأنفسكم (٤) فتذهب بكم الرخص فيها مذاهب الظلمة، ولا تداهنو
فيهم بكم الادهان على المعصية (٥). عباد الله:

(١) يعر: يعيب ويلطخ، أي أن من أعظم الجرائم أن يعيّب الإنسان غيره بأمر قد فعله هو.

(٢) يستنصح: أي يطلب نجاح حاجته من الناس بالابتداع في الدين.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص: ١٥١.

(٤) أي لا تسامحوا أنفسكم في ترك المعصية، ولا تستهينوا لصغرائير الذنوب، لأن ذلك يصير عادة لكم فتقعوا فيما وقع فيه الظلمة من الاستهانة بالجرائم.

(٥) المداهنة: النفاق، وإظهار خلاف ما في الباطن. والادهان مثله.

إن أنسح الناس لنفسه أطوعهم لربه، وإن أغشهم لنفسه أعصاهم لربه، والمغبون من غبن نفسه (١)، والمغبوط من سلم له دينه (٢)، والسعيد من وعظ بغره، والشقي من اندخد لهواه وغروره. واعلموا أن يسير الرياء (٣) شرك، ومحالسة أهل الدنيا منساة للايمان (٤) ومحضرة للشيطان (٥). جانبوا الكذب فإنه مجانب للايمان.. ولا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الايمان كما تأكل النار الحطب، ولا تبغضوا فإنها الحالقة (٦)، واعلموا أن الامل يسهي العقل، وينسي الذكر، فأكذبوا الامل فإنه غرور، وصاحب مغدور (٧).

في كل هذا لا يدعو الامام إلى ترك الدنيا والانعتاق من أسرها، وإنما يدعو إلى تناولها برفق، ويدعو الناس إلى أن يكونوا كائنات سامية، تجمع الدنيا إلى

(١) المغبون: المخدوع.

(٢) المغبوط: الذي نال نعمة استحق بها ان تتطلع النفوس إليه، وأن ترغب في نيل مثل نعمته.

(٣) الرياء. أن تعمل ليراك الناس، وقلبك غير راغب في العمل.

(٤) منساة للايمان. موجبة لنسيان الايمان، والعفة عنه.

(٥) محضرة للشيطان. مكان لحضوره.

(٦) فإنها الحالقة. فان المباعضة الحالقة، أي الماحية لكل خير وبركة.

(٧) نهج البلاغة، رقم النص ٨٤.

الآخرة، فلا تمعن في تلك إمعاناً يلهيها عن الاستعداد لهذه، ولا تغرق في هذه إلى حد يغسل فيها شخصية الإنسان.

* * *

راجع النصوص التالية: رقم ٢٨ و ٦٢ و ٨١ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٨ و ٩٢ و ١٥١ و ١٧١ و ١٨١ و ١٨٨ و ١٩٦ و ٢٠١ و ٢١٢ و ٢٢٨ و ٢٣٥.

(٧)

والقسم الذي يعظ فيه الإمام عليه السلام بتقلب الدنيا وعدم قرارها على حال هو أشد الألوان الوعظية، فيما يليه، حلوكة وتشاؤماً، إنه يصف فيه الدنيا بالقلب، والمكر، والخداع. ويشبهها بالحياة السامة، ويدعو إلى الزهد فيها، والانقطاع عنها.

ويلوح، في بادي النظر، أن الإمام في هذا القسم يدعو إلى ترك العمل للحياة، ويدعو إلى الاستراحة إلى خيالات الموت والقبر، فيفشل في الإنسان الرغبة في الحياة والأقبال عليها، ويقعد به عن الجهاد من أجلها، ويحيله إلى إنسان متذائب واهن القوى.

ولكن قليلاً من التأمل والامعان كفيل بأن يبين خطأ هذا الرأي.

فقد سبق منا أن تعرفنا على رأيه في الدنيا والعمل لها، فرأيناه يحبذ العمل للدنيا والأقبال عليها، والتتمتع بطبياتها، شريطة ألا يقعد به ذلك عن العمل لآخرته والاستعداد لها، وشريطة ألا ينقلب به العمل للدنيا إلى وحش يصيب مجتمعه بالضرر في سبيل أن يزيد ثرائه، ورأيناه لا يشجع الانقطاع عن الدنيا والاستغراق في العمل لآخرة وحدها، ويعتبر ذلك أنانية لا يحمل بالرجل الكامل أن يمارسها، يتبع ذلك كله في موقفه من العلاء بن زياد وأخيه عاصم.

ورأيناه يحمل رأيه في الدنيا والآخرة في هذه الفقرات:
(للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة ينادي فيها ربه
وساعة يرم معاشه، وساعة يخللي فيها بين نفسه
وبينه لذتها فيما يحل ويحمل. وليس للعاقل أن
يكون شاكراً إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو
خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم) (١).

هذا هو موقف الامام من الدنيا والآخرة، فهو يشجع على العمل للدنيا في
غير إسراف، ويأمر بالعمل للآخرة ولكن في غير إعنات. وهذا هو الموقف
الطبيعي المعقول من الدنيا والآخرة، فلا هو يقعد بالمجتمع عن تقدمه، ولا هو
يحيل الإنسان إلى آلة حاسبة فحسب.

ولكن هذا الموقف لا يلائم ما يقال عن هذا اللون من ألوان وعظة عليه السلام
من أنه يدعوه فيه إلى الاستراحة إلى خيالات الموت والقبر.
وإذا شئنا أن نلتمس حلاً صحيحاً لهذا التنافي الذي يلوح بين رأي الامام في
الدنيا وبين ما يبدو من هذا اللون الوعظي وجدنا مفتاح هذا الحل في وصفه
للزهد وتعريفه له.

فالإمام عليه السلام يعرض في هذا اللون الوعظي جملة من الحقائق التي لا مراء
فيها بأسلوب وعظي أعني مثير للرهبة في النفس.

فهو يقرر في كلامه أن حياتنا بقدر ما تبدو رتبة هي متقلبة في عنف،
وبقدر ما تبدو مسامحة هي تربص في كتمان، وبقدر ما تبدو جميلة عظيمة فإنها

(١) نهج البلاغة، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، رقم النص: ٣٩٠.

تنطوي على حقارات وقبائح كثيرة، ثم يكون ختامها الموت، وهو حتم علينا سواء أرضيناه أم كرهنا.

وإذن فهؤلاء الذين يحسبونها مسالمة وادعة دائماً، ويعتبرونها جميلة عظيمة دائماً، ويعتبرونها حلوة سائغة دائماً، مخدوعون إذ لا واقع لما يحسبون، فهي في واقعها خليط من السعادة والشقاء، والقلق والاطمئنان، والشدة واللين. والإمام عليه السلام يتغى في هذا اللون الوعظي أن يعرفهم بواقعها ليزهدوا فيها. والزهد الذي يريده الإمام غير الزهد في وعي العامة من الناس.

فالزهد في وعي هؤلاء لا يعدو أن يكون موقفاً سلبياً من الحياة، يشل في الإنسان إمكانات الخلق والإبداع عنده، ويحيله إلى إنسان متذائب واهن. وكلمة (زاهد) في وعي هؤلاء تستدعي صورة كائن أقل ما يقال فيه أنه عالة على المجتمع.

أما الزهد عند الإمام فهو تعبير آخر عن رأيه السابق في الدنيا والآخرة.

قال عليه السلام في صفة الزهد:

(أيها الناس: الزهادة قصر الامل، والشكر عند النعم، والورع (١) عند المحارم، فإن عزب ذلك عنكم (٢) فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا عند النعم شكركم) (٣).

(١) الورع. الكف عن الشبهات خوف الوقوع في المحرمات، وأيضاً الكف عن المعاصي مع القدرة عليها وترك الشبهات.

(٢) فإن عزب. أي بعد. أي فان عسر عليكم أن تقصرروا آمالكم، وتكونوا في الزهادة على الكمال المطلوب فلا يفوتكم التحلی بفضيلة شكر النعم، والصبر عند المحرمات.

(٣) نهج البلاغة، رقم النص ٧٩.

فقد رأينا أن طول الامل ينسى الآخرة، ونسيان الآخرة يدفع بالمرء إلى اتباع هواه، وعند ذلك يعود الإنسان خطرًا اجتماعيًّا، لأن ذلك ينقلب به إلى حيوان ذي غرائز طاغية، لا كابح لها، تطلب المزيد من كل شيء.

فقصور الامل عبارة عن وعي الإنسان لواقع حياته، وأن الموت مدركة الآن أو غداً. وهذا الوعي يمسك يده عن الظلم حين لا يستطيع أن يصل إلى أغراضه إلا عن طريق الظلم، ويسلُّ من نفسه الشره والمطامع والاحقاد.

والشَّكر عند النعم، وهو الركيزة الثانية التي يقوم عليها الزهد، عبارة عن فعل الخير، وإسداء المعروف إلى الناس، فليس المراد من الشَّكر هنا الشَّكر باللسان، لأن الشَّكر باللسان لا يقدم ولا يؤخر في رقي المجتمع وتقدمه. إن الشَّكر المراد هنا هو الشَّكر بالفعل. فهذا الذي يعرف الدنيا على واقعها زاهد فيها ولذلك فهو لا يمسك يده عن اصطناع المعروف لأنَّه يعي أنَّ ما ينفقه في سبيل الخير باق له عند الله وعند الناس. أما ما أمسك يده عليه فيصير إلى غيره ليتمتع به.

والورع عند المحارم وهو الدعامة الثالثة من دعائم الزهد نتيجة طبيعية لفهم الدنيا على واقعها، فإذا كانت الدنيا لا تستقر على حال، وكانت خاتمتها الموت، فلماذا نتهالك عليها على نحو يذهب بما فيها من بهجة، فتغدو (؟) سلسلة من القلق والتربيص والخداع والآلام؟ لماذا لا نأخذ منها بقدر، متربقين نهايتها سعيدة كانت أو شقية، فلئن كانت سعيدة فستنقضي ولماذا لا نقضيها على نحو أفضل، ولئن كانت شقية فستنقضي أيضًا، ولماذا نزيدها شقاء وتعاسة؟.. حسبنا ما نلقى منها.

هذا هو الزهد.

فهل تجد فيه تنفيلاً من الدنيا، وإقصاء عنها؟ لا، إنه الموقف الصحيح من

الدنيا بين موقف المتهالكين عليها على نحو جنوني وبين موقف المباعدين لها على نحو مرضي.

وقال عليه السلام:

(الزهد كلمة بين كلمتين من القرآن: قال الله سبحانه: (لَكِيلًا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما أتاكتم) (١)، ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفه) (٢).

فأولئك الذين يملكون عليهم أبابهم فوات شيء كانوا يتربون الحصول عليه، لا يؤمن منهم أن يقاربوا الأثم في سبيل الحصول عليه، وهؤلاء الذين تمتلك أنفسهم بتصورات هذا الفاتح لا يعود لديهم من فراغ النفس وصفاء الضمير ما يتاح لهم التسامي إلى دنيا أرحب وأبلج وأحفل بمثل الخير.

وهؤلاء الذين يأسون على ما فاتهم، ويفرحون بما أتاهم لا يستطيعون أن يشكروا الله على نعمته بأفعالهم، فليسوا، والحال هذه، ذوي فائدة للمجتمع.

إن الراهدين هم الذين ينظرون إلى الأمور نظرة واقعية، فلا يملكون عليهم أبابهم فوات ما فاتهم، ولا يعمى بصائرهم عن واقع حياتهم فرحة بما أوتوا.

هذا هو الزهد الذي دعا إليه الإمام أصحابه وأرادهم عليه، فهل فيه تنفير عن الدنيا؟ اللهم لا، وإنما هو كما قلنا موقف الطبيعي بين موقف المتهالكين على الدنيا على نحو جنوني، والمباعدين لها على نحو مرضي.

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣. وتتمة الآية (.. والله لا يحب كل مختال فخور).

(٢) نهج البلاغة - باب المختار من حكم أمير المؤمنين - رقم النص ٤٣٩.

هذا هو الزهد الذي يدعو إليه الإمام عليه السلام في هذا القسم الوعظي من كلامه، وهو موقف يوازن بين حاجات الإنسان الجسمية والروحية، وهو موقف يجعل من الإنسان كائنا اجتماعيا ذا جدوى لمجتمعه، ينفعه ويعنيه. ويجب أن نعي أن المتهالك على الدنيا، الفاقد للحس الأخلاقي، المجرد من الإنسانية، غير الشاكر، وبعبارة وجيزة غير الزاهد، هو خطر على المجتمع وعالة عليه أكثر من خطر ذلك الزاهد الذي فهم الزهد فهما خاطئا فاتخذ من الدنيا موقفا سلبيا مرضيا.

لان غاية صنيع هذا انه لا يعمل، وانه يعيش عالة على أهله وذويه، أما ذاك فعلمه انه يمتضي دماء الفقراء بنشاطه الذي لا يعود على هؤلاء الفقراء في صورة خدمات اجتماعية.

ولما نريد أن ننكر أن هذا اللون من وعظ الإمام يظهر الدنيا في صورة كالحة منفرة إلى حد بعيد، ولكن هذا لا يدل على رأي الإمام في الدنيا بقدر ما يدل على أن معاصريه الذين توجه إليهم بهذا الخطاب كانوا مغرقين في الدنيا إغراقا خطرا دفعهم إلى الخيانة: خيانة مجتمعهم وكيانهم السياسي، ودفعهم إلى التناحر فيما بينهم، ودفعهم إلى عبادة أصنام اللحم: رؤساء القبائل والزعماء، فإنسان يمارس هذا اللون من الحياة لا يمكن انتشاله من واقعه لحظة يتملئ فيها مصيره بعين بصيرة إلا بهذا اللون من التعبير والتوصير، وقد يدعا علماء البلاغة: إن المخاطب كلما ازداد إغراقا في الانكار حسن من المتكلم أن يمعن في تأكيد ما يقول.

وهؤلاء الذين كان الإمام يتوجه بخطابه إليهم كانوا على هذا الحال أو قريب منه، فقد بلغ من تزييفهم الواقع حياتهم أن خانوا مجتمعهم فتمالأوا مع معاوية وباعوه ضمائرهم بالمال، وأشعلوا في هذا المجتمع روح القبلية التي دفعت بهياته إلى أن يقف كل منها موقفا تناحريا ذا عواقب وخيمة.

وإذن فليس في هذا اللون الوعظي تشويه للحياة الدنيا، وإبعاد عنها، وذم لها، إذا تناولها الإنسان كما ينبغي أن يتناولها، فلم يسرف فيها إسراها يحمله على الظلم، وينقلب به إلى حيوان خطر.

وإنما هو كبقة الألوان التي قدمنا فيما سبق، ينصح فيه بالنظر إلى الدنيا كما هي لا كما تصورها لنا أوهامنا وأحلامنا، فإذا ما تم لنا فهمها دعانا إلى العمل فيها على هدى هذا الفهم. وقد رأينا أن موقفه من الحياة هو الموقف الصحيح الذي يدعو إليه الإسلام، أما الوعاظ الذين أخذوا كلامه على ظاهره، وأما ناشئة الجيل التي انفعلت بآيات غريبة، فهم جميرا مخطئون في فهمهم للقسم الوعظي من نهج البلاغة، لأنهم لم يلقو بالا إلى المثل الأعلى في الإسلام الذي أراد الإمام أصحابه على الصعود إليه، ولم يلقو بالا إلى الواقع الاجتماعي الذي حمل الإمام على أن يفيض في مواضعه هذه الإفاضة ويعرض فيها هذه الألوان. ولم يعرفوا النظرة الواقعية الإسلامية إلى الحياة الدنيا، النظرة التي تعبّر عن نظره الإمام إلى الحياة والأنسان.

* * *

وفي خاتمة هذه الدراسة نقدم بعض نماذج لهذا اللون الوعظي الذي أدرنا حوله هذا الحديث.

قال عليه السلام:

(عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها، والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها

كسفر (١) سلكوا سبيلا فكأنهم قد قطعواه،
 وأموا علما (٢) فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى
 المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها (٣)؟
 وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعود،
 وطالب حيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها؟
 فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا
 بزيتها ونعمتها، ولا تجزعوا من ضرائهما وبؤسها،
 فإن عزها وفخرها إلى انقطاع، وإن زيتها
 ونعمتها إلى زوال، وضرائهما وبؤسها إلى نفاد (٤)،
 وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء،
 أو ليس لكم في آثار الأولين مزدجر (٥)؟ وفي
 آبائكم الماضين تبصرة ومتى ان كنتم تعقلون؟
 أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون؟ والى
 الخلف الباقي لا يبقون؟ أو لستم ترون أهل
 الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى: فميـت
 ييـسىـ، وآخر يعـزـىـ، وصـرـيعـ مـبـتـلىـ، وعـائـدـ
 يـعـودـ، وآخر بـنـفـسـهـ يـجـودـ (٦)، وطالب للـدـنيـاـ

(١) السفر - بفتح، فسكنون - جماعة المسافرين، أي أن الإنسان في هذه الحياة كالمسافر في مسافة الطريق، فإنه يصل إلى نهاية طريقه، والانسان لا بد واصل إلى نهاية حياته.

(٢) أموا: قصدوا.

(٣) المجري: الذي يجري فرسه إلى غاية معلومة، فإنه مهما طال جريه لابد واصل في النهاية إلى غايته.

(٤) نفاد: فناء.

(٥) مزدجر: مكان للانزجار والارتداع.

(٦) من (جاد ؟) بنفسه إذا قارب أن يقضى نحبه، كأنه يسخو بها ويسلمها إلى خالقها.

والموت يطلبها، وغافل وليس بمغفول عنده؟ وعلى
أثر الماضي ما يمضي الباقى).

(ألا فاذكروا هادم الذئات ومنغض الشهوات
وقاطع الأمنيات عند المساورة للأعمال القبيحة،
واستعينوا الله على أداء واجب حقه وما لا يحصى
من أعداد نعمه وإحسانه) (١).

وقال عليه السلام:

(أما بعد، فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة
حضررة، حفت بالشهوات، وتحببت بالعاجلة
وراقت بالقليل، وتحلت بالأمال، وتزيينت
بالغرور، لا تدوم حبرتها (٢)، ولا تؤمن
فجعاتها، غرارة ضرارة، حائلة (٣) زائلة،
نافذة بائدة (٤)، أكالة غوالة (٥)، لا تعدو
- إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها،
والرضا بها - أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه
(كماء أنزلناه من السماء فاختلط به

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ٩٧.

(٢) الحبرة - بالفتح - السرور والنعمـة.

(٣) حائلة: متغيرة.

(٤) نافذة: فانية، بائدة: هالكة.

(٥) غوالة: مهلكة.

نبات الأرض فأصبح هشيمًا (١) تذروه
الرياح وكان الله على كل شيء
مقتداً (٢) لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا
أعقبته بعدها عبرة (٣)، ولم يلق في سرائهما بطناً
إلا منحته من ضرائهما ظهراً (٤)، ولم تطله (٥)
فيها ديمة رخاء (٦) إلا هتنت عليه مزنة (٧)
بلاء، وحرى إذا أصبحت له منتصرة، أن
تمسيي له متنكرة، وإن جانب فيها أعنوا ذب
واحولى أمر منها جانب فأوبي (٨)، لا ينال
امرؤ من غضارتها رغباً (٩) إلا أرهقته من نوابها
تعباً (١٠)، ولا يمسى منها في جناح أمن إلا أصبح
على قوادم (١١) خوف، غرارة غرور ما فيها،

(١) الهشيم: النبت اليابس المتكسر.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥، وأول الآية: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا).

(٣) العبرة: الدمعة قبل أن تفيض.

(٤) كنى بالبطن والظهر عن الأقبال والأدبار.

(٥) الطل: المطر الضعيف.

(٦) الديمة: مطر يدوم في سكون، لا برق ولا رعد معه. والرخاء: السعة.

(٧) المزنة: السحابة البيضاء. وهتنت: انصبت وتدفقت.

(٨) أوبي: صار كثير الوباء.

(٩) الغضارة: النعمة والسعادة.

(١٠) ألهقت به التعب.

(١١) القوادم: جمع قادمة، وهي الواحدة من أربع أو عشر ريشات في مقدم جناح الطائر.

فانية فان من عليها. لا خير في شيء من
أزواتها إلا التقوى) (١).
* * *

راجع النصوص التالية: رقم ٤٥ و ٥٢ و ٦١ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ و ٩٧ و ١٠١ و ١٠٩ و ١١١ و ١١٢ و ١٣١ و ١٤٣ و ١٨٩ و ١٩٤ و ٢٤٤ و كتابه
إلى الحارث الهمданى - باب الكتب: رقم ٦٩ وفي باب المختار من الحكم النص
رقم: ١١٩ ورقم: ١٩١.

وصف الزهد ومعناه: رقم النص ٧٩ وفي باب المختار من الحكم النص
رقم: ٤٣٩.

(١) نهج البلاغة، رقم النص: ١٠٩.